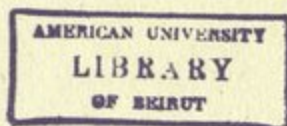


جہاں
کرمو
میراث

920
D34
1972

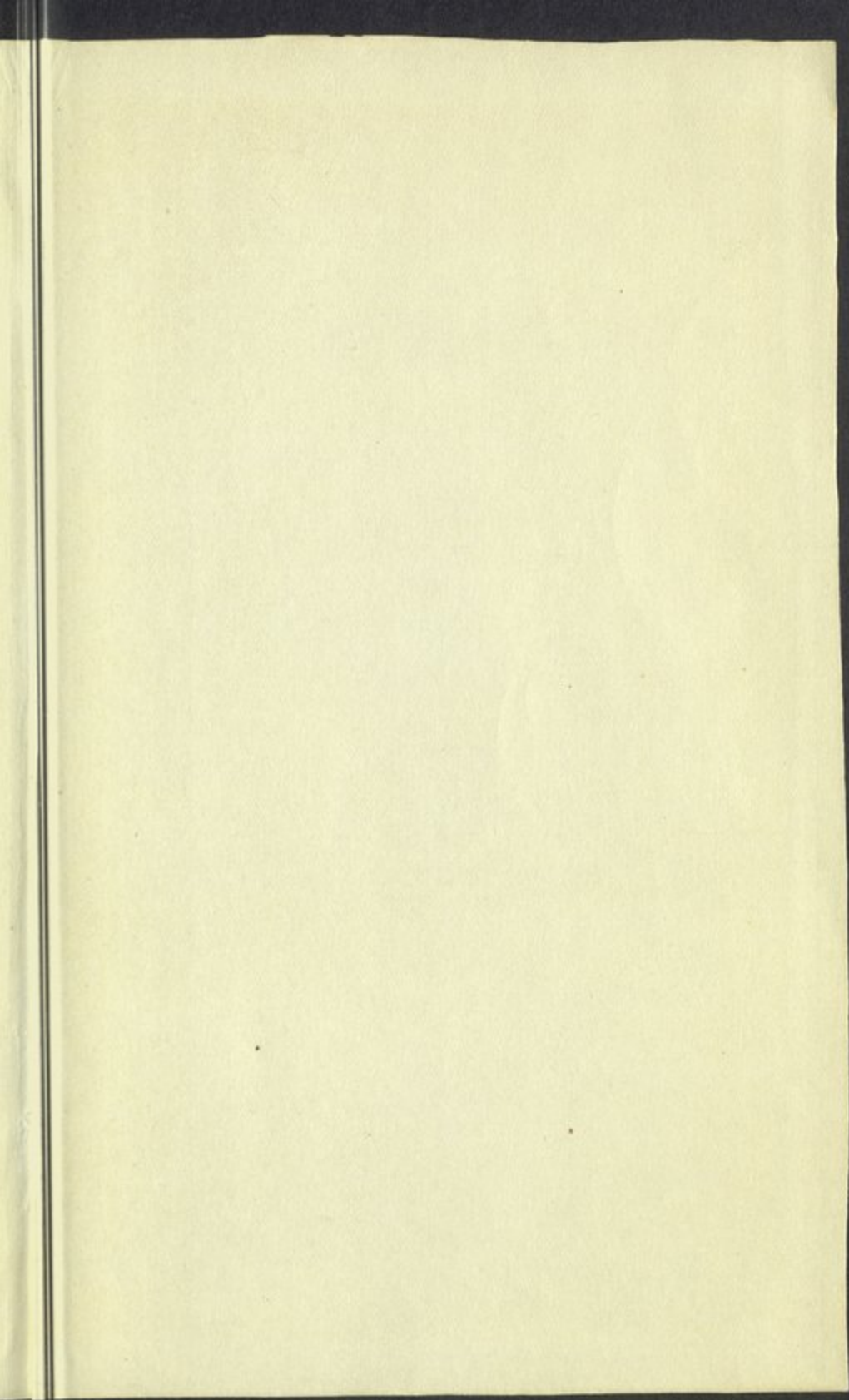


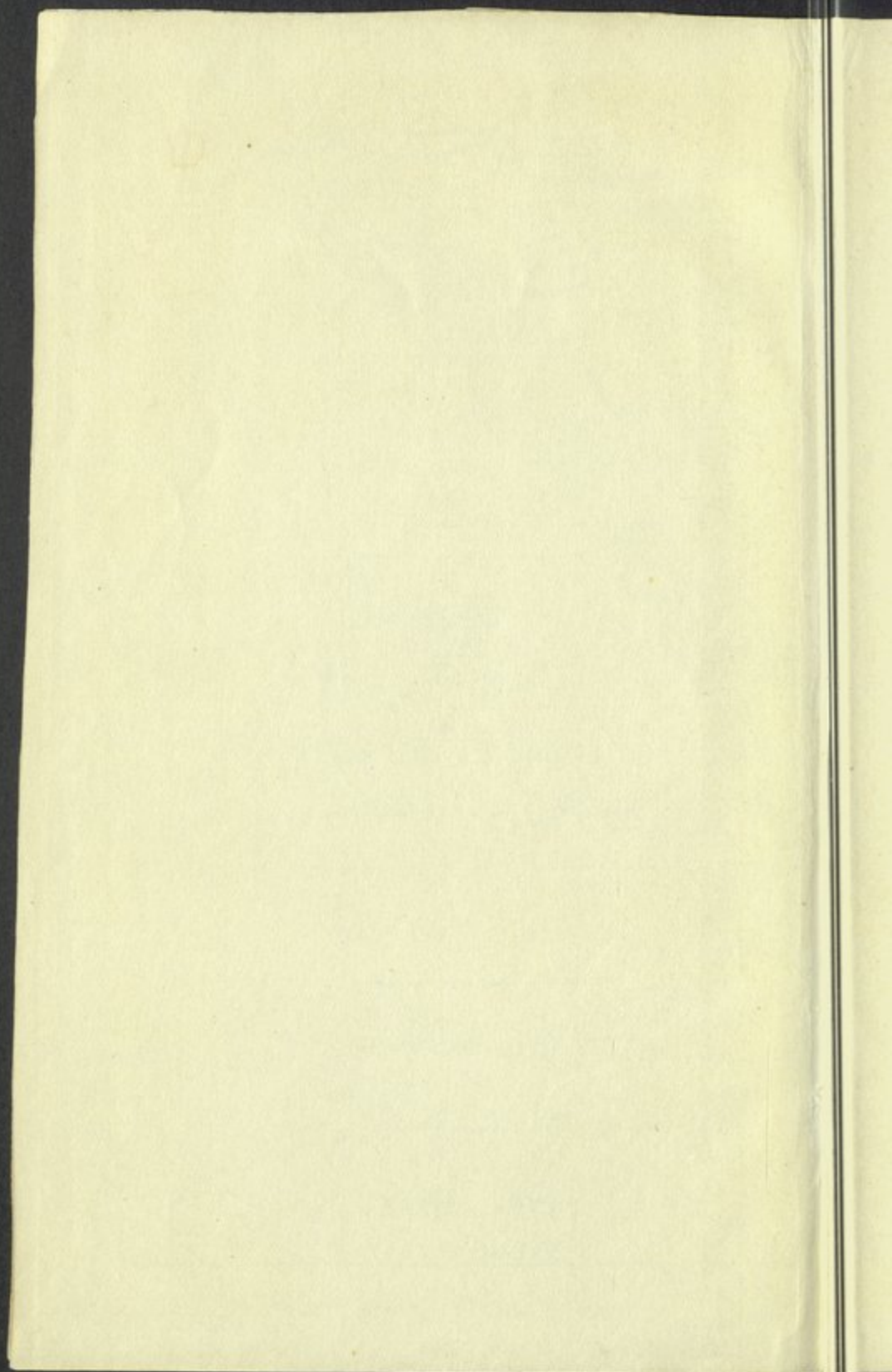
AMERICAN UNIVERSITY

LIBRARY

OF BEIRUT

N. MAKHOUL
CINDERY
20 NOV 1970
Tel. 260458





82
D3

A

828
D3

حِيارُ وِيسْ كُوشِو

وَمَحْطَا طَرَانِه

828

D314 rA

1928

دَانِيَال دِيْفُو

أَعْرِب

أَحْمَدُ عَلِي عِبَاس

« خَرِيجُ كَلِيَةِ اكْسْتَرِ الْجَامِعَةِ بِانْجَلْتَرَا »
وَمَدْرَسِ التَّرْبِيَةِ بِمَدْرَسَةِ دَارِ الْعُلُومِ بِمِصْرَ

الطَّابِعَةُ الْأُولَى

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ لِلْعَرَبِ

بَطْلَبُ مِنَ الْمُنَاطَبِ الشَّرْهَةِ بِمِصْرَ وَمِنْ مَعْرِفِ

١٣٤٢ هـ - ١٩٢٣ م

49458

مَطْبَعَةُ النُّجُودِ بِشَارِعِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِمِصْرَ

11

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

15

١٣٣

فهرس

كتاب حياة روبنسن كروسو ومخاطراته

الموضوع	الفصل	الصفحة
	مقدمة المترجم	١
أسرة روبنسن كروسو ، ومفارقته والديه	الفصل الأول	٤
أول سفر بحرى قام به روبنسن كروسو	الفصل الثانى	١١
أسر روبنسن كروسو فى سالى	الفصل الثالث	٢٦
سفر روبنسن كروسو الثانى فى البحر وانكسار السفينة به	الفصل الرابع	٤٨
اقتطاع روبنسن كروسو فى جزيرة مقفرة	الفصل الخامس	٦١
انتقال روبنسن كروسو الى خيمته وما شعر به من الوحشة	الفصل السادس	٧٥
مصادفه روبنسن كروسو من الصعوبات لعدم وجود آلات فى حوزته	الفصل السابع	٨٠
يوميات روبنسن كروسو	الفصل الثامن	٨٧
تابع يوميات روبنسن كروسو	الفصل التاسع	٩٠١
تابع يوميات روبنسن كروسو	الفصل العاشر	١١٣
طواف روبنسن كروسو فى الجزيرة وعمله السلات	الفصل الحادى عشر	١٢٨
رجوع روبنسن كروسو الى منزله ونجاحه فى أمر الزراعة	الفصل الثانى عشر	١٣٥
صنع روبنسن كروسو الخبز واختراعه آلات لعمل الخبز	الفصل الثالث عشر	١٤٣
استعداد روبنسن كروسو لمفارقة الجزيرة	الفصل الرابع عشر	١٤٩

الموضوع	الفصل	الصفحة
صنع روبنسن كروسو ركوة وما قاساه من الاخطار في البحر	الفصل الخامس عشر	١٥٩
تربية روبنسن كروسو قطيعا من المعز وكيف عاش واطرد نجاحه	الفصل السادس عشر	١٦٩
خوف روبنسن كروسو من أن يرقم رآه على الزم بغثة وتحصينه قلعته	الفصل السابع عشر	١٧٩
تدابير روبنسن كروسو واطلاعه على المتوحشين كانوا يترددون الى الجزيرة	الفصل الثامن عشر	١٨٨
وجود روبنسن كروسو مغارة يستتر بها المتوحشين	الفصل التاسع عشر	١٩٦
مجيء المتوحشين ثانية الى الجزيرة ورقص هناك . وانكسار سفينة بالقرب من شاطئها	الفصل العشرون	٢٠٥
اخراج روبنسن كروسو أشياء كثيرة من السفينة المهشمة واهتمامه بمفارقة الجزيرة وحمله	الفصل الحادى والعشرون	٢١٣
انقاذ روبنسن كروسو أسيرا من المتوحشين وتسميته جمعة . واتخاذ خادما له	الفصل الثانى والعشرون	٢٢٦
اجتهاد روبنسن كروسو في تهذيب جمعة وتعليمها	الفصل الثالث والعشرون	٢٣٦
صنع روبنسن كروسو وجمعة قاربا للذهاب الى بلاد الثانى ومجيء المتوحشين أثناء ذلك	الفصل الرابع والعشرون	٢٤٨
انقاذ روبنسن كروسو رجلا اسبانيا ولقاء أباه وقدم سفينة انجليزية	الفصل الخامس والعشرون	٢٦٢
اظهار روبنسن كروسو نفسه للرئيس الانجليزى ومساعدته إياه على بحارته العصابة	الفصل السادس والعشرون	٢٨٢

الصفحة	الفصل	الموضوع
٢٩٨	الفصل السابع والعشرون	ما جرى بين ويل أتكينس والرئيس . وانقاذ السفينة . وخروج روبنسن كروسو من الجزيرة
٣١٠	الفصل الثامن والعشرون	ذهاب روبنسن كروسو الى لشبونة ومقابلة الرئيس البرتغالي وذهابه من هناك الى انجلترا برا
٣٢٥	الفصل التاسع والعشرون	مقابلة جمعة ديا وخروج الذئاب على روبنسن كروسو ورفاقه وزواج روبنسن كروسو بعد رجوعه الى انجلترا

تم



فهرس الصور

رقم الصورة	ما كتب تحتها	الصفحة
١	ولذلك تركت الياس وركنت فيها باسم الله مجراها ومرساها	١٢
٢	فأخذنا أسرى الى سالى	٢٨
٣	فقام مضطربا وسمعنا له زئيرا يصم الآذان	٤٠
٤	وبهذا الحمل ابتدأت نحو الشاطئ	٦٥
٥	سكنى بجانب الصخرة	٨٩
٦	وبينا كنت ذاهبا الى البحر وجدت سلحفاة عظيمة	١٠٧
٧	وبعد غناء أمسكت بواحد صغير بعد أن وكزته بعصا	١٣٢
٨	فتمكنت بذلك من إيصال الزكوة الى النهر	١٦٠
٩	فوقفت مدعورا مسلوب الفؤاد	١٨٠
١٠	ولكنى عجلت بخروجى منه أكثر مما أسرعت فى دخولى اليه	٢٠٠
١١	وقد لبثوا ساعة يرقصون قبل انصرافهم	٢٠٨
١٢	فتقدم حتى اذا كان بين يدى سجد سجدة الشكر	٢٣٠
١٣	فرح وسرور . هناك مملكتى . هناك قومى	٢٥١
١٤	وبينا كان جمعة يطلق النار عليهم أخرجت سكينى وقطعت وناق الفريسة الضعيفة	٢٦٤
١٥	وتبينتها فاذا هى سفينة انجليزية	٢٨٠
١٦	فلما اقتربوا قليلا وقف الربان وجمعة وأطلقا عليهم الرصاص بفتة	٢٩٧

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد فاني أقدم هذه القصة لجمهور القراء بعد أن قمت بترجمتها من
الإنجليزية الى العربية ، لما اعتقدته من جزيل نفعها وكبير أثرها . وكان أول
باعث لي على هذا العمل الشاق رؤيتي غرام التلاميذ في إنجلترا بها ، إذ
وجدتهم يقرءونها ويلقون الأسئلة فيها على آبائهم وأمهاتهم ، ورأيت هؤلاء
يحجبونهم عن كل شيء فيها ، ويتخذون ذلك ذريعة لتعليم أبنائهم وبناتهم
ما يشاءون . وبذلك جعلها القوم جزءاً من تربية كل فتى وفتاة .

ولا أخفي عليك ما شعرت به عند قراءتها ، فقد أعجبت بها أيما
إعجاب ، لأنها حكاية ممتعة تسرق الألباب لعذوبتها وغرابة موضوعها ،
إذ فيها أخبار رُويَسن كروسو وما قاساه من الأهوال برا وبحرا ،
وما ابتدعه من الأدوات تسهيلا لأسباب معيشته وتيسيرا لراحته . وقد
امتازت هذه القصة عند الغربيين بصدقها ، وإمكانها عقلا ، وتنزيهاها عن
شوائب الخلاعة والسفه ، واحتوائها على حكم وآداب جمة تنفع الأصاغر
ولا يستغنى عنها الأكابر . ولذلك أراها من أحسن ما يقرأ للنشء ، لأنها
تعودهم كثرة التفكير والبحث ، ولا تخل فتاة ولا فتى ، لترفع معانيها ،
وعلو مغزاها ، وخلوها مما ينبو عنه الطبع السليم ، والخلق الكريم

ولما نظرت إلى ما عندنا من القصص والحكايات فوجدته غير متناهي
مما لا يليق بالناشي أن يطلع عليه ، وأيقنت أن التلاميذ في مدارسنا يتوجهون
إلى هذا النوع من القراءة ولكنهم لا يجد سبيلا إليه ، عقدت العزم على
تعريب رحلة روبنسن كروسو ، ليطلع عليها الناشئون ، ويعتبروا
منها العذب

وقد كان لهذه الرحلة ذكر كبير في عالم الكشافة لأن الكشافات
يهتم بمعرفة حياة روبنسن كروسو ، ليستفيد من أعماله وحيله في الحياة
وأرجو أن تكون قد قتت ببعض ما يجب على نحو أبناء هذه الأمة
هي في حاجة شديدة إلى مجهود أبنائها

أما دانيال ديفو مؤلف هذه القصة فكان من أشهر الكتاب
الإنجليز . ولد بلمدن في نهاية سنة ١٦٥٩ وتوفي في ٢٦ أبريل سنة ١٧٣٤
وجل ما عرف عن دانيال ديفو يتعلق بالتأليف والأدب ، وقد اشتهر في
بالأمانة والصدق . وكان اتصاله بوليم الثالث وكبار الرجال من ذوي
النفوذ في المملكة سببا في إذاعة صيته وبعد ذكره . وكتب في عهده
الاتصال كثيرا من المقالات القيمة والكتب النفيسة دافع فيها عن الملك
وسياسته . ولكن لا يهمنا التوسع في هذا الشأن

وكان موت ولیم الثالث كارثة عظيمة على ديفو ، لأن خصومه تأييد
عليه فذاق منهم كل شدة وألم . ولم يخلصه من تلك المظالم والآلام إلا
المملكة آن بعد أن شفع له أحد الوزراء لديها ، فعاد إليه بعد ذلك سائرا
منزله ، ووظف حتى آخر أيام هذه المملكة

وقد ظهر الجزء الأول من كتابه الخالد المذكور « حياة روبنسن

بروسو ومخاطراته » في ٢٥ ابريل سنة ١٧١٩ م فأدهش العالم الأدبي ،
 يتوابع أربع مرات في بضعة شهور . وفي شهر أغسطس ظهر الجزء الثاني
 من عملهم . وقد اتخذ ديفو من روبنسن كروسو مرشداً للكريم الأخلاق ،
 فعلمنا الدين . وهذه القصة - إذا جردت عما فيها من الفلسفة الدينية
 الأخلاقية - من القصص الموضوعة التي لم تتخذ أساساً من الواقع ، بل
 كشأن على الخيال ؛ فتكسر السفينة ، ورؤية كروسو أثر قدم عارية على
 الخيال الساطع الرملي ، وإتقاده جمعة ، واتخاذها تابعاً له ، وغير ذلك من الأعمال
 المدهشة التي قام بها روبنسن كروسو في تلك الجزيرة النائية المقفرة ، كل
 هذا لم يكن أمراً واقعاً ولكنه الخيال : خيال الرجل المتمدين الذي وجد
 كتابه وحيداً فعمل على سعادتها وهناءها

ومن هذه الناحية كانت رحلة روبنسن كروسو فريدة في بابها لا تداني
 في الأدب الإنجليزي ، خلقت لكتابها ذكرى لن تبيد . وقد قال النقاد
 « ان هذه القصة لا تخلق جدتها على ممر الأيام ، كما هو حال كثير من الكتب ،
 بل هي باقية غير منازعة في بقائها ومنزلتها الرفيعة من الكتب الأدبية »
 وقد ترجمت هذه القصة إلى جميع اللغات الحية ، وطبعت بكل لغة
 مرات كثيرة ؛ منها الغالي المصور صوراً جميلة ، ومنها الرخيص الذي
 يتيسر لعامة الشعب اقتناؤه . ولهذه القصة ذكر مشهور بين المربين على
 اختلاف مذاهبهم وأجناسهم . ولما أراد المربون الألمان أن يطبقوا نظرية
 ربط المواد الدراسية بعضها ببعض لم يجدوا ما يصالح لها غير هذه القصة
 وإني أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها خالصة لوجهه الكريم .
 وما توفيقى إلا بالله
 محمد علي عباس

حياة

روبنسن كروسو ومخاطراته

الفصل الأول

أسرة روبنسن كروسو ومفارقته والديه

حدث رُوبِنْسَن كُروسو عن نفسه قال : لقد ولدت سنة ثنتين وثلاثين وستمائة وألف في مدينة يورك . وكانت أسرتي ذات شهرة وإن لم تكن من هذه المملكة ، فقد كان والدي غريباً عن هذه الديار ، أتى إليها من « بريجن » تلك المدينة الألمانية الشهيرة ، واستوطن « هُل » في أول قدومه . وبالتجارة حصل على عقار ليس بالقليل ، وعند ذلك ترك التجارة جانباً ، وقطن بمدينة يورك التي فيها تزوج والدي ، وقد كانت من أسرة تدعى رُوبِنْسَن ، عريقة في المجد بين أسر تلك الولاية ، ومنها دُعيت روبنسن كُروسو ، ولكن اتباعاً لتحريف الكلمات في إنجلترا صرنا نسمي بل نسمي أنفسنا ، ونكتب أسماءنا كروسو ، وبذلك أدعى كل حين أما أسرتي فكانت مؤلفة من أبويَّ ومن أخوين كبيرين ، وقد كان أحدهما قائداً لكتيبة إنجليزية من المشاة في فلندرس ، وكان قبل تحت إمرة القائد الشهير لكهارت ، وقد اتى أخى هذا حتفه في الموقعة التي كانت مع الأسبانيين عن كُثَب (١) من دنكيرك . ولا أعلم من أمر أخى الثاني شيئاً

(١) عن كُثَب عن قرب



بعضها

أكثر مما كان يعلم أبواي من أمرى بعد ذلك

وأما أنا فكنت ثالث ولد أبوى ، ولم أتعلم أى صناعة تشغل وقتى ،
ولذلك ملئ رأسى بأفكار متباينة ، ومعان غريبة . وقد رباني أبى الذى كان
هرما تربية منزلية جديرة بالاعتبار ، ولم ينس نصيبى من التربية المدرسية
المجّانة^(١) التى كانت شائعة وقتئذ . وقد كانت غاية أبى أن أتعلم القانون ،
ولكنى أبيت كل شىء إلا ركوب متن البحار . واشتد ميلى لذلك حتى حملنى
على مخالفة إرادة أبى وأوامره ، ومعارضة رغبة والدتى وأصدقائى الذين
طالما أدلّوا إلى بحججهم ، وامتروا إلى بلحمة الاتصال ، ولكن ماذا يفيد
ذلك والقاب قد ملئ بحب الأسفار ، ونسى كل شىء إلا تلك الطريق التى
أبرزتها لى الطبيعة ، وأظهرت محاسنها حتى أخفت كل شىء سواها

وكان والدى حازما خبيراً يرى الأمر قبل وقوعه ، وقد رأى مادار
بجلى^(٢) فأسدى الى نصائح الغالية بعد أن دعانى صباح يوم إلى حجرته
التي لزمها لما حل به من النّقرس^(٣) ، فكان مما قال لى « أى بُنى ، أى شىء
تريد من ترك أبويك الشفيعين البرين ، ووطنك الكريم حيث تكون
مصوناً عزيز الجانب - ؟ إني لا أرى لك باعثاً إلا حب الأسفار لغير غرض ،

(١) المجّان - ما كان بلا بدل أو عطية الشىء بلا ثمن ، يقال أخذه وفعله

مجّانا وهذا الشىء لك مجّان أى بلا عوض

(٢) الخلد البال والقلب والنفس

(٣) النقرس : داء معروف يأخذ فى الرجل ويقال هو ورم يحدث فى مفاصل

القدم ويكون فى إبهامها أكثر

والتجوال بلا مقصد ، ولو بقيت هنا ومكثت في ديارنا لعشت ثلج (١)
 الصدر بعيداً عن سحب الشقاء بجذك وعملك ، أي بني ، لا تغتر بمن سلك
 طريق الأسفار ، وارتركب الأخطار ، فهم بين رجلين ، رجل ضاقت
 في عينه الدنيا وأظلمت ، فلم ير له بداً من التحول عن دار الذل الى دار أخرى ،
 عله يصيب منها ما يدفع به ألم الحاجة عن نفسه ، وآخر قد ناقت نفسه
 الى حظ أوفر ، وحال أرق مما هو فيه فتغرب عن الأوطان في طلب العلا ،
 واتخذ سبيل المخاوف مسلماً ، وعاهد نفسه أن يهر العالم بما لم يكن في
 حسبانها ، فكشف غامضاً ، أو أظهر مجهولاً ، فشهد له الملام بفعله ،
 وسعة خبرته وعلمه ، وأراك لست بأحد هذين الرجلين ، فقد أعطاك الله
 بسطة في الرزق ، ولم تصل بعد الى الدرجة الثانية . إنك في الطبقة الوسطى
 في الحياة ، وهي في اعتقادي أحسن الطبقات الثلاث ، لأنها بمنأى عن
 الشقاء والنصب ، والمشاق الجسمية التي تكون عادة في الطبقة الدنيا ،
 وقد حصنها الله فأبعد عنها سموم الكبر والفخار ، ومظاهر العظمة الكاذبة ،
 والامترسال الى الأمانى الباطلة ، والحسد الذي يأكل الحسنات كما تأكل
 النار الحطب . أي بني انظر بنفسك تر فضل هذه الطبقة على غيرها ،
 وإن ذلك يظهر لك جلياً إذا تذكرت أن هذه الحياة هي أمنية أهل الطبقات
 الأخرى ، فالملوك طالما ودوا أن لو كانوا مثلنا بعيدين عن الشقاء ، والنتائج
 الوخيمة التي أوقعهم فيها حظهم المملكي ومنصبهم في الهيئة الاجتماعية ،
 ألا تعرف قصة الرجل العاقل الذي دعا الله ربه أن يكون من أهل

(١) يقال ثلجت نفسي كنصر وفرح ثلجاً وثلجاً اطأنت كأثلجت وثلج
 كنجلى أيضاً فرح وأثلجته

طبقةتنا بعيدا عن الفقر والغنى فان لكل مخالف لو أنشبت برجل لأهـاـكتـه»
ولقد شدداني على ذلك، وأمرني أن أشاهد أثر هذا في الناس .
وإني إن فعلت كنت خليقا أن أرى الشقاء في كل بيئة ومجتمع ، ولكن
الوسط خير من الطرفين ، فكلما طرف في قصد «^(١)» الأمور ذميم . فأهل الدرجة
الوسطى في الحياة أقل الناس تعرضا لحوادث الدهر وتقلباته ، فلم تنقل
أجسامهم الحوادث ، ولم يطفئوا أن رأوهم استغنوا . من ينكر علينا أن
متوسطي الحال هم أرخص الناس بالآ ، وأكثرهم اطمئنانا ، وأن الفضائل
إن وجدت لها رائدا فهم روادها ؟ إن لنا حظا من السكون والهدوء
والصحة والسرور ، لا نشارك فيه ، فهذه صفات منشؤها التوسط ،
وأساسها البعد عن البؤس وجمع المال . إن أمثالنا أولى المنزلة الوسطى
يقطعون أعمارهم دون أن يكونوا هدف الكوارث لا تحتمل ، فنحن أبعد
ولد آدم عن مثيرات اليأس والقنوط ، وإن الأيام ستكفل لكل امرئ أن
يرى ذلك لنفسه

وبعد هذا كله حاول أني إقناعي برفق واين ، وتضرع الى ألا أتسرع
في الأمر ، وألا أتصرف فيه تصرف الحمق ^(٢) وتقدم الى ألا أرمي بنفسى
في أتون ^(٣) الشقاء والمهلك الى أنا بعيد عنها ، بما أنا فيه من النعيم ، لأننى

(١) القصد : الاعتدال والتوسط بين الافراط والتفريط
(٢) جمع أحمق وهو القليل العقل وقيل الأحمق الذى يكون مقصوده صحيحا
ولكن سلوكه في طريقه فاسد فلا يكون له روية صحيحة في طريق الوصول الى الغرض
(٢) الأتون كتمشور وقد يخفف موقد نار الحماق وجهه أتاين وأثن

لست في حاجة إلى السعى وراء الحصول على ما يقوتني (١) ، وإذا أردت العمل فسوف يساعدي بما لديه من الوسائل حتى أكون كأقراني في المنزلة وإن لم أكن سعيداً في الحياة ميسراً ، فذلك لشقاء جدّي (٢) ، ولأنني ساعدت الدهر على نفسي ، بتفكّكي (٣) ، عن الصراط السوي ، لا لذنوب اقترفه هو ، لأنه منحنى وصيته التي وسمها بأنها أجدي على من كبير عقل . وقد رغبت في البقاء معه حتى لم يبق مرغبا الا عاهد نفسه على القيام به . وقد وضع أمامي تلك الصورة المحزنة والحادث المؤلمة ، حادثه أخى الأكبر ، وتوسل إلى أن أعتبر به وأتعظ ، فالسعيد من وعظ بغيره ، والشقي من وعظ بنفسه ، وذكر كيف نهاه عن الذهاب إلى حرب البلاد المنخفضة ، ولكنه لم يمتثل لرغباته ، وتغلبت عليه شقوته (٤) ، فكان من الهالكين تحت سنايك (٥) الخيل ومثار النقع . (٦) وكان أبي شديد التأثر لما جال بخاطري ، واستولى على من الشؤون الجديدة وملك أبي (٧) وجناني بل كل حيائي ، فوعدني الدعاء لي ، ولكنه مع ذلك كان يقول « أن الله لا يبارك لك إذا اتبعت هذه السبيل ، وإنك ستجد متسعا من الوقت فيما بعد لتفكر في ترك نصيحتي ، وتندم حيث لا يجدي الندم ، وحين لا تجد من يساعدك على شأنك . »

(١) قاته يقوته قوتنا وقيانة عاله وأعطاه القوت ورزقه (٢) الجد . - البخت والحظ (٣) يقال تنكب عنه عدل وتجنبه واعتزله والأصل أن يولى الرجل منكبه نحوه فيقبل على غيره (٤) الشقاء وهو ضد السعادة (٥) سنايك جمع سُنَيْك وهو طرف الحافر (٦) الغبار (٧) اللب والجنان : - القلب

وقد رأيته - وهو يحدثني هذا الحديث الذي تبين لي صدقه كأنه كان يتنبأ به - يذرف الدمع مدراراً، وينم ظاهره عن حشا قد صدعته الليالي، وكبد حرى تذوب أسى ولوعة. وخاصة عند ذكره أخى الذى مات ميتة الأبطال فى حومة الوغى، أو تصوره أنى قد تقطعت بى الأسباب حيث لاعمين ولا مرشد. وقد هزته تلك الذكرى المؤلمة حتى لم يستطيع صبرا على هذا الحديث فكف عنه صامتا.

عند ذلك هبت فى قلبى عاطفة الحنان والشفقة، فريت لبلواه ورحمت ذلك الشيخ المفؤود^(١). وأى قلب لا يحن لمنظر كهذا؟ لذلك ثبتت عزمى، وغيبت قصدى، ونويت الإقامة مدة عمرى، مع أبى وأمى. ما أمر حبس النفس على ما تسكره، ووقفها على ما لا تريد. إنها أبت على إلا أن تنفض عنها غبار ما مضى، وتنسأه أو تتناسأه. وفعلا تم لها ما أرادت، وحينئذ عولت على الفرار بعد بضعة أسابيع، ولكنى لم أفعل بهذه السرعة التى اعتزمتها. وفى يوم خلوت بأمى وقد وجدت بها منشحة الصدر، طيبة القلب، فعرضت عليها الأمر، وأفهمتها أن حب الأسفار، ورؤية الدنيا، قد ملكا على عواطفى، وأنى إن أفلح فى شىء آخر ما دمت نائيا عن تنفيذ ما تتوق إليه نفسى، وأن الأجدد بأبى أن يأذن لى، لأننى لا محالة فاعل ما اختارت لى الأقدار. وذكرتها وما كانت بناسية، أن سنى الآن قد أصبحت ثمانى عشرة سنة، وصار من المتعذر على أن أبتدىء بتعلم صنعة، أو أكون كاتباً عند أحد الناس وأنى إذا قهرت على ذلك تركت العمل، وهرولت إلى البحر، لا متعطى

(١) المفؤود الذى يشكو فؤاده

متمنه ، لأرى غرائب الدنيا وعجائبها . وقد توسلت إليهما أن تسكما أبي في شأني ، ليأذن لي بالذهاب حيث أحب . فأذا سافرت سفرة وعدت ، ولم أحب البحر ، مكثت هنا ، ولم أغادر مسقط رأسي ، واجتهدت في تمويض ما فرطت فيه سالف أيامي

ولقد كان لسكلامي هذا تأثير عظيم في والدتي ، وهزها حتى كاد يقطع منها الوتين ^(١) ، ودعاها إلى أن قالت لي ، اعلم يا بني أن لا فائدة من كلامي مع والدك في شأنك ، فإنه أدرى بمنفعتك ، وإن كنت تجهلها ، وإنه لمن المتعذر أن يوافقك على هذه الهواجس الشيطانية ، وبتمك في سبيل الغي الذي تريد أن تسلكه . وإني أعجب كل العجب من جرأتك على أن تفتح أباك مرة أخرى ، بعد ما رأيت منه في حديثه معك ، وما أظهره نحوك من الشفقة والرافة . إذا كنت تريد أن توقع نفسك في التهلكة فافعل ما بدا لك ، ولتعلم أن موافقتنا على هذا الرأي ليست في حيز الأمكان . وإني لن أكون سببا في هلاكك ، حتى إذا وقعت في ورطة تُنحى عليّ باللائمة قائلا إن أمي قد وافقتني على السفر ، وساعدت على هلاكك ، في حين كان أبي شديد الأباء ، والأشفاق عليّ من مكروه بصيبي ، ومع رفضها طلبتي ، وشفاعتي لديها أن ترفع الأمر لو الذي ، وتكون نصيري عنده ، قد سمعت أنها خابرتة في الأمر بعد ذلك ، وأنه اهتم بما قالت ، وتنفس الصعداء ^(٢) قائلا « قد يكون ذلك الغلام سعيداً لو بقي

(١) الوتين كقتيل كما ورد في اللغة عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه . قال ابن سيده هو عرق لاصق بالقلب من باطنه أجمع يسقى العروق كلها الدم ويسقى اللحم وهو نهر الجسم وجمعه وثن وأوتنه (٢) الصعداء : تنفس طويل من هم أو تعب

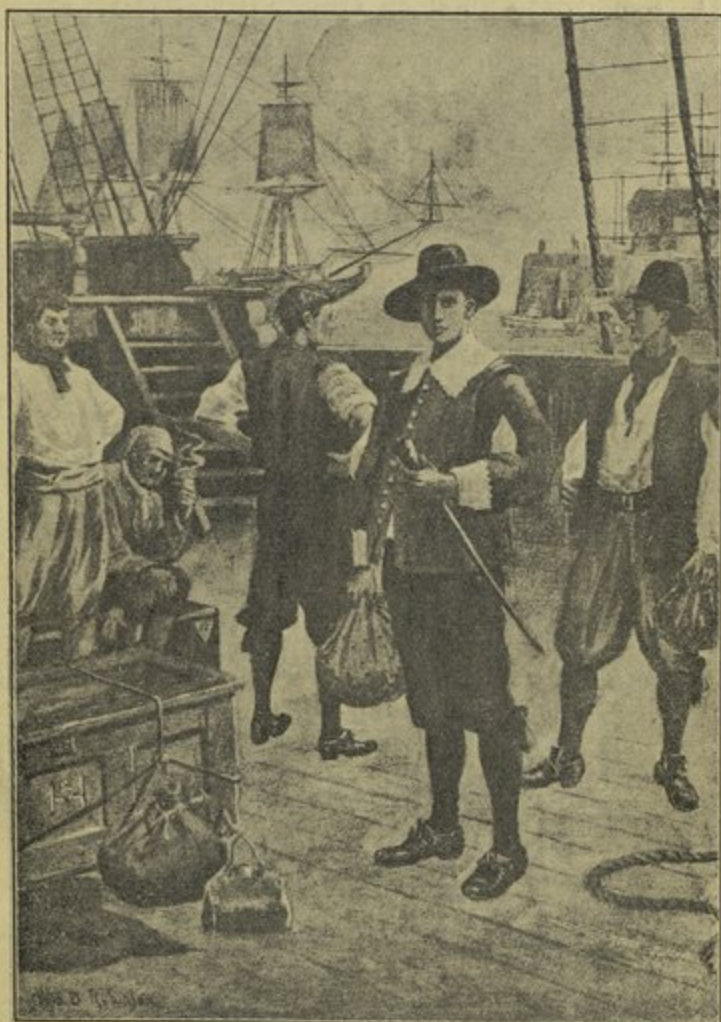
هنا، وإن كنت إذا تغرب عن الأوطان فسيكون أشقى الأشقياء، وأتمس
البائسين الذين سمح بهم الدهر، وما أكثرهم حين تعدهم «
ولم أفر من وجه معارضتي إلا بعد عام كنت فيه أصم الآذان
لكل إرشاد ووعظ، ولم أجد عندى ميلا قط لمباشرة أى عمل من الأعمال،
وكنت ألوم والذى على معارضتهما لرغباتى. وقد ذهبت ذات يوم إلى أهل،
وكنيت أفعل ذلك كلما سنحت الفرص، ولم يكن فى نيتى حينئذ أن أذهب
لأى مكان آخر أو أفر من هذا السجن المظلم، ولكنى رأيت رفيقا لى
كان ذاهبا إلى لندن فى سفينة والده، فدعاني لمرافقته، وألح على فى
مصاحبته، وأخبرنى بأن هذه السياحة لا تكافئ شيئا، وقص على بعض
القصص التى أغرتنى بموافقته، فأجبت سُؤله، وشكرت له ملتمسه،
ولم أستشر أما ولا أبا، ولم أفكر فى رسالة فيها أخبرهما بحالى، بل تركتهما
يعلمان ذلك من غيرى كيفما اتفق لهما، ولم يدربخلدى أن أسألهما الدعاء.

الفصل الثانى

أول سفر بحرى قام به روبنسن كروسو

إن القارىء ليدعش من أمرى، لأننى أدركت أحوالى التى كنت
فيها إدراكا حقا، ولكنى لم أقدر نتائج العمل الذى رغبت فيه تقديرأصحىحاً،
ولذلك تركت اليابس وركبت فيها باسم الله مجراها ومرساها. وكان ذلك
فى أول سبتمبر سنة إحدى وخمسين وستمائة وألف فى ساعة عصيبة كان
يومها عبوساً قطرياً^(١)، ولم تسمح المقادير بآخر ارتكب المخاطر مبكراً

(١) القطارير من الأيام الشديد المظلم وشر قطير شديد



ولذلك تركت اليا بس ورد كبت فيها باسم الله مجراها ومرساها

مثلى ، ولا دامت شقاوته أطول منى . ولم تكد السفينة تغادر الميناء حتى هبت العواصف فلعبت بالأموال والسفينة ، ولا لعب النكباء^(١) بالعود ، فارفعت على اللجة كأنها الطود^(٢) العظيم ، وانحطت حتى خيل إلى النظارة^(٣) أنها ستبتلع في ذلك الغار من المياه ، ولم أكن متعوداً ركوب البحار ، ففرض جسمى ، وذهل عقلى من هول الوهل . وعندئذ ابتدأت أشعر بأنى الولد العاق لوالديه ، وأن ما حل بى إن هو إلا عقاب لما اقترفت من الذنوب ، وترك أبوى الرحيمين بدون إذنها وعلمهما . وقد تمثلت أمامى صورة أبى وهى يبكى ، وأنى وهى تنوёл إلى بكل عزيز لدى أن أطيع أمرهما ، وتسدى إلى النصائح ، فهالنى النوى^(٤) ، وراعى الجوى^(٥) ووخرنى ضميرى الذى كان لا يزال به بقية متأثر ، وأغاظ فى تعذيبى ، وذكرنى باحتقارى النصيح ونبذى إياه ظهرياً ، وفصمى عرى الواجب لربى ووالدى .

وما زال البحر يضطرب بالريح الصرصر ويشتد آذيه^(٦) حتى خلت أن الدنيا آذنت بانتهاء ، ولا عجب فما أنا إلا بحار قريب العهد بالبحار . ولم أر فى حياتى خضماً^(٧) هكذا ، وقد كنت أظن أن السفينة ستلتهم فى كل موجة ، وتغوص فى كل خفضة ، وأتأنا سنفارق الحياة إلى عالم آخر . وقد أقسمت بيارئ النسم ألا أعود إلى البحار إذا سامت من شر

(١) النكباء : ريح انحرقت عن مهاب الرياح القوم ووقت بين ريحين وتجمع على نكب ونكباوات

(٢) الجبل العظيم (٣) النظارة القوم ينظرون الى الشئ وقيل القوم الذين يقعدون فى مرتفع من الأرض ينظرون منه القتال ولا يشهدونه (٤) البعد (٥) الحرقة وشدة الحزن (٦) الآذى : موج البحر وجمعه الاواذى (٧) الخضم : البحر

ما أنا فيه ، بل أذهب إلى والدي ، واعتذر عما جنت يداي ، وأعاهدتهما على اللبث معهما حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . وفي وسط هذا الخطار المحقق بي عرفت قيمة ما أسدى إلي من النصيح ، وأن حياة الطبقة الوسطى من الناس خير من سواها ، فقد عاش أبي حياته في راحة وطمأنينة ناعم البال ، غير معرض لخطر العواصف في البحار ، ولا لطوارئ الحداث^(١) على اليابسة . تمثلت لي تلك الصورة فعمدت النية على أن تكون توبتي نصوحاً وأوبى حقة .

وقد استمرت عواطفى على هذا النمط ما استمرت العواصف ، وتهدج البحر ، ولكن ما انباج صباح اليوم التالى حتى هدأت الريح ، وصار البحر أهذاً من نهر ، وابتدأت أخفف من سخطى عليه ، وبقيت طول ذلك اليوم كما كنت قبلاً ، لأنى كنت لا أزال شاعر ابذلك الدوار الذى اعترانى حين تغير البحر . ولما هَرِمَ النهار ، وجن الليل ، تحسن الجو ، وسكنت الرياح ، وكان المساء مؤذناً بليل جميل ، وقد غربت الشمس وهى آمنة مطمئنة ، وأشرقت كذلك فى صبيحة اليوم التالى مظلة على بحر هادئ من خدرها حتى ظننت ذلك المنظر أبهج من كل ما رأت عيناي .

ونمت ليلتي وأنا مغتبط بحالى ، فقد ذهب ألمي ، وصرت أهش لكل ما أرى . سبحان من بيده ملكوت السموات والأرض يصرفه كيف يشاء . عجبا للبحر يسر اليوم الناظرين وانرا كبين ، وكان بالأمر حرباً شعواء^(٢) ، وداهية دهياء^(٣) ، على أبناء الغبراء^(٤) . وفى هذا الوقت أتى

(١) حدثان الدهر وحدثانه : نوائبه (٢) يقال أشع القوم الغارة أشعلوها أى

بشوا ورفقوها فشعوا ومعناها متفرقة (٣) داهية دهياء مصيبة عظيمة (٤) الغبراء : الأرض

إلى رفيقي الذي حملني على المجيء معه ، وأراد أن يفرج عني كرب ما ألم
 بي ، حذر أن تستمر هواجسي وأصمم على هجر البحار ؛ وقال لي واضعاً
 يده على كاهلي « كيف أنت يا بوب ^(١) بعد هذه الحوادث ؛ إنك بلا ريب
 كنت متخوفاً الليلة الماضية حين كانت الريح تهب ، ولكننا ملاحى السفن
 لا نخشى مثل هذه الريح . لأنها تكاد تكون رخاء ^(٢) . فأسرعت في جوابه
 أندعو تلك الريح رخاء وقد كانت عاصفة مخيفة ؛ فرد قائلاً « إنها لم تكن
 بعاصفة ولم تقرب قط من العواصف ؛ ونحن رجال السفن لا نعبأ بشيء
 مثل ذلك إذا كانت سفينتنا محكمة الصنع جيدة ، ولكني ألتمس لك العذر
 فما أنت إلا بحار حديث العهد بمهنتك . دعنا من هذا ، لنأخذ بعض
 الشراب ، فإنه أحسن مفرج للسكر . ألا ترى حسن الجو الآن .
 ولا أطيل على القارئ القصص فقد جاء الشراب ، وثملت بتعاطيه
 وصرت في نشوة ^(٣) أنستني كل عهد أخذته على نفسي ، فلم أفكر
 حينئذ في أمر التوبة والرجوع عما أنا فيه ، وضاع كل رشد ، وذهب
 كل أمل فإن عودة الدماء ^(٤) إلى حاله الأولى من الهدوء والسكينة ،
 وذهاب العاصفة أبعداني عن أكيد الأيمان ، وأوثق العهود التي حملني
 عليها تتابع المصائب ، والآن قد هدأت نفسي ولم يبق للخوف من الماء
 مجال ، فلماذا لا أتمادى في هواجسي الأولى من ركوب الأخطار ،
 وتحمل المشاق ؛ إني لا أقول بأن فكرة التوبة بعدت عني وتركتني في

(١) بوب اسم دغابة لروبنسن كروسو

(٢) الرخاء : الريح اللينة التي لا تكاد تحرك شيئاً

(٣) النشوة بتثليث النون : السكر والنشوان السكران (٤) البحر

راحة . كلا . فقد كانت تعاودنى على كره منى ، ولكن اندماجى مع
البحارة مع كثرة الطرب والشرب ، كان سبباً فى تغلبى على الرجوع ، ولم
تمض ستة أيام حتى انتصرت فى حومة الوغى ، كما يتأتى لمنلى أن ينتصر ،
ولكن أراد الله إلا أن أكون فى شدة أخرى أدهى وأمر ، وفى حال
لا يسع فيها أكثر الناس تحملاً لغير^(١) الدهر إلا أن يطالب الرحمة والخلاص
منها ، ويعترف بخشونة المركب



وفى اليوم السادس من رحلتنا هذه وصالت السفينة الى طرق « يارم »
غير متجاوزة إياها ، لأن الرياح لم تأت بما تشتهى السفن ، ولذلك لم نسر
طويلاً بعد سكون العاصفة ، وقد اضطررنا هنا للانتظار ، لأن الرياح
كانت لا تزال معارضة لطريقنا ، فقد كان اتجاهها الى الجنوب الغربى .
وقد أمقنا ثلاثة أيام أتى فى خلالها إلى هذه الطرق سفن كثيرة من
« نيوكاسل » وانتظرت حتى تسمح الأقدار قهـب رياح تجاه النهر

وبعد أن أمقنا خمسة أيام ننتظر سـنوح الفرصة ، هبت رياح شديدة
لم يعبأ بها الرجال ، ولم يتوقعوا أى خطر ، لأن طرق يارم كانت تعتبر
كميناء ، وكان أنجرنا^(٢) محكماً ، والأرض تحتنا شديدة ، واستمر البحارة
فى مرح وطرب كمعادتهم ، ولكن الريح اشتدت ، وزادت قوتها فى اليوم

(١) غير الدهر : أحداثه المغيرة

(٢) الأنجر : مرساة السفينة وهى خشبات يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير
كصخرة اذا رست السفينة . وفى اللسان أثقل من أنجرة بزيادة تاء التأنيث
والجمع أناجر

الثامن ، فقمنا في صباحه ، وعملنا كلنا لنجمع الصواري^(١) العليا للسفينة
ونهي كل شيء فيها حتى تقدر على السير بدون أن تحول العوادي دور
ذلك ، وما أتى ظهر هذا اليوم حتى ارتفع البحر ارتفاعا خفيفا ، واشتد بنا
الخطر حتى أمر ربان الجارية بأنزال أنجر^(٢) الأمان
وفي هذا الوقت هبت العواصف من مكناها ، وزارت زئير الأسد
في عربنها . واللبؤة هاج ساكنها لأشبال توقعت عليها الخطر ، حتى
ظننا أن الرياح مواتورة فهي تتقاضى دينها . وقد رأيت الجزع والهلع
باديين على وجوه الملاحين أنفسهم . ولم يمنع الربان جدّه وسعيه في الأبقاء
على السفينة من أن يقول كلما دخل أو خرج من حجرتة « إلهي كن رحيفا
بنا . سنفقد كل شيء . سنقضى »^(٣) وأشباه هذه العبارات . وفي أثناء ذلك
كنت في حجرتي مضطجعا ، ولا تسل عما حل بي حينئذ . إنه ليكني
الآن أن أرجع إلى أفكاري الأولى من التوبة التي حصنت نفسي ضدها ،
ولسكن أين السلامة والأخطار محدقة ؟ كنت أظن أنني قد أمنت شر
شعوب^(٤) بعد ما حل في المرة الأولى ، فأذا أنا بين فكيها ، ولو كني إن
أرادت في ماضئها . وبينما كنت في هذا الحال في حجرتي ، وقد أسندت
رأسي إلى وسادتي ، إذ سمعت الربان يكلم نفسه بتلك العبارة التي ذكرت ،
عند ذلك لم يبق في قوس الصبر منزع فنهضت من مكاني ، ونظرت خارجا

(١) الصواري جمع صار وهو خشبة معترضة في وسط السفينة أو عمود يركز
قائما في وسطها يعلق به الشراع ليسوقها (٢) أنجر الأمان مرسة تنزل عند الخطر وهي
أكبر مراسي السفينة (٣) نموت (٤) المنية

ت ، ويا هول مارأيت ، ونظرت ، وأشدَّ (١) ما نظرت . رأيت الخضم
تلاطم الأمواج ، وقد ارتفع في الجو كالطود العظيم ، ثم تكسرت أمواجه
علينا من آن لآخر . وكلما أمكنتني النظرة ، رأيتنا على شفا جرف هار ،
ورأيت السفن الأخرى التي كانت عن كئيب كذلك . وقد فلق أذن
صراخ دوى له المكان ، وذعرت من أجله ؛ صراخ حدث على أثر غرق
سفينة كانت على ميل منا . وقد رأينا سفينتين أخريين خرجتا عن الطريق ،
وانقطعت أسباب مرسانيهما ، بعد أن ذهب جميع أدقألهما (٢) ، وهما علمت
أن السفن الخفيفة كانت أقل خطرا وعملا على ذوبها ، ورأيت اثنتين منها
مقبلتين نحونا ولم يبق لهما سوى شراع مربع الشكل

وعند الأصيل رجا الربان نائبة والموكل بمراسي السفينة أن يسمح
لها بنزع الصاري الأمامي ، ولكنه لم ير لهما ذلك رأيا ، وبعد احتجاج
شديد ، وتخويف بأن السفينة ستقلب رأسا على عقب إن لم تتخلص من
ذلك الدقل ، رضى بذلك مكرها . ولما تم هذا بقيت السفينة تمايل ذات
اليمين وذات الشمال وقد فقدت توازنها فجردوها من باقي أدقألهما وصارت
بلا شراع .

وكل يمكنه أن يعرف حالى أثناء ذلك ، وما شعرت به نحو هذه
الملمات والكوارث . ولقد تضاعف اضطرابي وكثر همي حين تذكرت
نكثي للعهود ونبذى للنصائح ظهريا ، وزاد ذلك ما كنت فيه ، وما توقعته
من الخطر حتى إن القلم ليعجز عن وصف ما دار بخلدى ، وأحاط بي في

(١) لشد ما نظرت جملة بمعنى التعجب أى ما أشد ما نظرت (٢) أدقأل جمع دقل

وهو الصاري الذى سبق شرحه

ذلك الحين من القلق والحزن اللذين كادا يأتیان على الصُّبابة الباقية لى فى الحياة . ومن أعجب الأشياء أن المصيبة حينئذ لم تبلغ أشدها ، وقد استمرت العاصفة فى الازدياد ، وغضبت ولا غضب الفوادر بين الكُماة^(١) فى ساحة الوغى حتى اعترف البحارة أنفسهم بأنهم لم يروا مثلاً . نعم إن سفينتنا كانت من الطراز الأول جودة وإحكاماً ، ولكنها كانت مثقلة بالأحمال ، تكاد تسترهما اللجة عن الأبصار . وكان البحارة يتوقعون غرقها فى كل لحظة . وما كنت قبل اليوم أعرف معنى لغرق الجوارى . وحانت منى التفاتة فرأيت العاصفة فى تزايد ، ورأيت ما لم أكن متعوداً رؤيته ، رأيت الربان ورؤساء السفينة خاشعين فى صلاتهم لله ، وهم ينتظرون ذهابها الى قاع القاموس^(٢) . وما انتصف الليل حتى سمعنا ضجة من أحد البحارة الذين نزلوا إلى باطن السفينة ليروا ما حل بها ، فهاهنا أن رأى الماء فيها قدر أربع أقدام .

وعند سماع هذا النذير هرعنا كلنا لرفع الماء ، ولكن خيل لى أن قلبى قد نزع من مكانه ، فوضعت يدى لأعرف أين مكانه من أضلاعى ، وخارت قواى فلم استطع القيام ، فاثبتت على جنبى فى مكانى خشية أن أتصدع ، وذهبت إلى عالم غير هذا ، فأرجعنى إلى صوابى بعض الحاضرين إذ أخذ بيدي وأخبرنى أنى كنت عديم الجدوى فيما مضى ، ولكن يمكننى الآن أن أحرك المضخة فأرفع الماء كما يمكن أى رجل من الآخرين . فتهيات لذلك ، وعملت بكل قواى ، بهمة لا تعرف الملل ،

(١) الكُماة : جمع كُما وهو الشجاع أو لابس السلاح سعى بذلك لأنه كُما نفسه أى سترها بالدرع والبيضة ومثله الكُما (٢) البحر وقيل أبعد موضع فيه غوراً

ولا يتسرب إليها اليأس . وبينما نحن كذلك إذ رأى الربان بعض سفن
خفيفة تحمل قححا ، وقد عجزت عن السير في طريقها ، فخرجت إلى عرض
البحر ، وعمما قريب ستقترب منا ، فأمر أن يطلق المدفع علامة الخطر ،
ولأننى لم أعود ذلك ، ولم أعرف هذا الاصطلاح الخاص بين مجرى السفن ،
طار لى فرقا ، وظننت أن وكرنا قد انقض عليه ريب المنون ، فأثنى على
بنيانه من القواعد ، وعلى من فيه أجمعين ، فوقعت على ظهرى مغشيا على
ولما كان هذا الوقت وقتا لا يفكر فيه المرء في غير نفسه ، وقتا فيه
يفر كل امرئ من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، وفصيلته التى
تؤويه ومن فى الأرض جميعا لينجو بنفسه التى هى أعز الأشياء لديه ،
لم يفكر أحد فى أمرى . ولما رآنى أحد البحارة على تلك الحال أتى إلى
المضخة مسرعا فأزاحنى برجله عن مكاني ظانا أنى هلكت ، وأخذت
المضخة تصير^(١) . وقد مضى على زمن طويل وأنا ملقى قبل أن أفيق من
سكرتى وذهولى

ولقد استمررنا فى العمل ، ولكن الماء كان يكثر داخل السفينة ، وأصبح
من المتعذر أن يسير المركب حتى يصل إلى اليابسة مع أن العواصف قد خفت
وطأتهما ، ولذا أمر الربان فأطلقت مدافع النجدة وطلب المساعدة حينما من الدهر
حتى رأينا سفينة صغيرة عن كشب وقد أرسلت زورقا من زوارقها لم يد
المساعدة ، ولقد تكبد الزورق كثيرا من الصعوبات حتى أتى قريبا منا ،
ولسكن استحال علينا أن ننتطيه وعلى رجاله أن يدنوا منا دنوا كافيا .
ولما استحسكت حلقات الشدة وصاقت جدف الملاحون ، وقد وطدوا العزم

(١) صَرَ الشئ بِصِرِّ صُرَا وَصِرِرَ صَوْت

على استخلاصنا من ريب المنون ، فخطروا بحياتهم لحياتنا ، فنجحوا من
 الاقتراب منا بعد الجهد والأعياء ، فرمى رجالنا بجبل متين طويل ،
 وعلقوا به عوامة ، فأمسك به بحارة النجاة ، وتعلقوا ، وساعدناهم في
 العمل فوصلوا إلى مؤخر سفينتنا ملاصقين لها ، وفي أقل من لمح البصر
 غادرنا مكاننا واحتوانا الزورق ، ولم يفكر أحد في أن نذهب إلى السفينة
 الأخرى التي كانت سببا في نجاتنا ، لأن ذلك يخرج عن طوق البشر ،
 وإنما اتفقنا على ترك القارب يسير حيث ترمى به المقادير بعد أن نجتهد في
 إرشاده وجذبه إلى الشاطئ بقدر ما يُسمح لنا بذلك ، ولقد تعهد رباننا
 بأن يقوم لرب الزورق بما يتلف منه إذا تكسر على الشاطئ ، وبعد تجديف
 طالت مدته ، انحدرت سفينتنا إلى الشمال ، واتجهت بحاج شاطئ ونزّلت
 ولم يبق أكثر من ربع ساعة على ترك السفينة حتى غرقت . وحينئذ علمت
 - وما كنت أدري من قبل - كيف تفرق السفن . وقد كان رفقاءى مجدين
 في عملهم كي يقربوا مركبنا من الشاطئ ، وبعد لآي^(١) مارأينا ،
 وأمكنا أن نميز ما عليه ، فرأينا كثيرا من القطان ينتظرون أوبتنا ،
 وقد عيل صبرهم من كثرة التطلع ، ومد الأعناق ، وما منهم إلا مستعد
 لأداء ما يحتمه عليهم حب الإنسانية والرحمة والحنان . ولكن شق
 علينا الوصول إلى الثغر ، ولم يأت لنا ذلك حتى مررنا بمنارة السفن التي
 نصبت للهداية عند « ونترن » . وبعد إجهاد الجسم ، نزلنا على الشاطئ
 سالمين ، وقد أخذ منا الأعياء مأخذه ، فسرنا مشيا على الأقدام حتى
 وصلنا « يارم » حيث قوبلنا بكل عطف ولين من رئيس البلد الذي أحلنا

(١) لآي يلاي : أبطأ واحتبس . واللاي الأبطاء والشدة أيضا

دار الراحة من فضله ، ومن التجار وغيرهم . وقد تقضوا فأعطونا من
النقدين ما يكفي لعودتنا إلى لندن أو هل على حسب رغبتنا . ولو عدت
إلى هل لعددت من السعداء ، ولسر أبي من الغنيمة بعد الكد بالقفل^(١)
ولسكن حُمّ^(٢) القضاء ، ونزل القدر ، فلم أعد ، ولم يعلم أبي بنجاتي من
الغرق إلا بعد حين

ولقد تجسم نحس طالعي ، وصرت أصم لكل نداء وداع ، ولم أتمكن
من تذليل النفس حتى تتبع طريق الهدى . وإني لا أستحي أن أعبر عن
القوة الدافعة لي إلى تجنب العودة ، ولا أصفها إلا بأنها قوة خفية استأثرت
بجسمي^(٣) ، وجعلت أذني صماء للوعظ والأرشاد ، ومناجاة الوجدان ،
ونتائج حادثين من أكبر الوسائل المهدبة التي جرت في حياتي . ولقد
أثرت هذه الحوادث في رفيقي الذي كان سببا في رحلتي وتشجعي ، ولعل
القارئ يتذكر أنه كان ابنا لربان السفينة ، وقد قاباني بعد أن وصلنا
يارمث بثلاثة أيام حزينا كئيبا ، فسألني عن حالي وأخبر أباه بقصتي ،
وإني أتيت إلى سفينته لأجرب الملاحة وأخبرها ، فنظر أبوه عند ذلك إلى
بعين ملؤها الحزن وقال لي « يا بني لعلك اتعظت بما أصابك ، وإنه لجدير
بك ألا تعود إلى مثل ذلك ، فأن هذا إشارة إلى أنك لا تطيق أن تكون
ملاحا ، فأجبتة » ولماذا ياسيدي ؟ هل عزمت أنت على ألا تعود إلى البحر
مرة ثانية ، فأسرع إلى الجواب « هذا شيء آخر . إن هذا عملي وواجبي في

(١) قفل الرجل يقفل ويقفل قفولا وقفلا رجع أو من السفر خاصة

(٢) حُمّ القضاء قضى ونزل وقدر (٣) الحلم : — العقل والجمع أحلام وحُوم

الحياة، وقد خرجت معنا لتعرف حظك، وقد عثرت عليه وعرفته،
فلا تنظر غير هذا إذا داومت على امتطاء البحار. ولعل ما حل بنا من
نكبات الدهر كان لأجلك، وما حديث ذى^(١) النون عنك،

أن تخبرني عن أمرك، وما حملك على الخروج إلى البحر
ذلك بشيء من أمري، وأوقفته على حكايتي فتفسر.

التغير وقال «ماذا صنعت حتى يأتي إلى سفينة
قدمي معك في سفينة أخرى على أن تـ»

حمله على حديثه هذا ما جر

والزمني الرجوع لوالد

استمرت في طر

للاسترسال ثم

أني ذهبت

ولم أره

وصرن

لى

لقد حال دون عودتي لوالدي حمق تغلب على عواطفني الشريفة، إذ ظهر
ل، أني سأكون أضحوكة^(١) يضحك مني أهل بلدي، ويعجبون^{مخالي}،
أ، وأحسست العار الذي يلحقني حين أرى بين مواطني،
الإنسان عجيب في تطورات وأحواله، وأنه قد يخرج
نه، وخاصة الشبان، فأنهم يرتكبون الذنوب غير
قيم، ويرون من العار أن يتوبوا ويندموا.
ما يمدون عقلاء حازمين

أنا لا أدري أي طريق أسلك،

أدثة من متخيلتي، فما

وتبعاً لذلك امتحت

، وعادت إلى

أ، واشتد

، قاصدة

لهم

كني

لذا

لي

ل

-

صلاتهم . ولكنى أحمد الله إذ كنت موقفا فيما طلبت هذه المرة ، فعرفت
 رب سفينة كان قد ذهب إلى شاطئ غينا ، ونجح في سفره إليها ، وأراد
 أن يرجع الكرة ثانية . وقد أظهر ارتياحا لحديثي معه . وأعجبه منه
 قولي إنى أريد أن أرى الدنيا . فأخبرنى بأنى إذا ذهبت هذه المرة فسأرى
 ما أحب ، وأصل إلى بغيتى . وتفضل بحملى بلا مقابل . وزاد على ذلك
 اتخاذى رفيقا له . وشجعنى على حمل بعض السلع لأتجر فيها هناك ، وقال
 إنى ربما نجحت فى ذلك ، وحصلت على بعض الثراء
 وقد تقبلت نصيحته بقبول حسن ، واتخذنى صديقا له ، فعمدت
 خنصرى على محبته ، والذهب معه فقد حاب الدهر شطريه ^(١) وضرب
 إبطيه . ورأيت فيه أمانة وإخلاصا جذبانى إليه ، وحبياه إلى . وقد ابتعت
 بعض الأشياء التى أخبرنى أنها ستلقى نفاقا ^(٢) فى تلك الديار ، وأنفقت
 على شرائها أربعين جنيتها حصلت عليها من بعض أقاربنى الذين كنت
 أرسلهم ، وأظنهم قد أخذوا هذا المبلغ من أبى أو أمى . ولم أسافر سفرة
 سعيدة كهذه ، لأن الربان كان من الأفراد الذين لا يوجد الدهر بكثير
 منهم ، فقد كان أمينا صادق الوعد منجزا . وبمساعده ناقت نفسى لتعلم
 بعض أعمال الملاحة ، فعرفت كيف أعين اتجاه السفينة ، وكيف أراقب
 الأنواء . وقصارى القول أنى علمت ما لا يلقى بملاح أن يحمله . وقد كان
 للربان ميل لأن يعامنى ويرشدنى ، وأحسست من نفسى اشتياقا للتعلم ،
 وعند انتهاء هذه السفرة ، كنت ملاحا وتاجرا معا ، لأنى رجعت ومعى

(١) حلوه ومره خيره وشره أى أنه مجرب (٢) رواج

خمسة أرطال، وتسع أوقيات من التبر، بعتهما بثلاثمائة جنيه، فظهر لي المستقبل
ممتلئاً بالآمال، فعللت نفسي بها « وما أضيّق العيش لولا فسحة الأمل ». على أنى لم أخل من مصائب الحداث ، وتقلبات الزمان ، فقد ضربني الدهر
ضربانه ، ومرضت مرضاً مستمراً من شدة الحرارة ، وكانت تجارتنا على
الشواطئ ما بين خط الاستواء والخط الخامس عشر من خطوط العرض
الشمالية .

الفصل الثالث

هنا ✕ أسرُ روبنسن كروسوفي سالى

وقد عزمت بعد هذا النجاح على الاتجار في غينا ولكن صديق
الربان فارق الفانية ، ولقى ربه بعد وصوله ، فصارت السفينة إلى نائبه،
فأخذ الرئاسة ، وألقيت إليه مقاليدها ، وعولت على الذهاب معه في سفرة
أخرى ، فأسفرت هذه الرحلة عما أكنه لى القدر فكنت فيها من أشقى
الاشقياء ، وكانت أتعس رحلة رحلها إنسان . ولم آخذ معى أكثر من
مائة جنيه ، وترك المائتين الآخرين ، وأقت ما أقت مع أرملة صديقى
الهاك التى كانت من أعدل الناس ، وأحسنهم لى معاملة . وبابتداء
السفر ابتدأت صروف الليالى تغير علينا . فبينما كانت سفينتنا تسير بين
جزر كنارى وشاطئ إفريقيا ، إذا بسفينة بعض اللصوص الا تراك قد
انقضت علينا فى صبيحة يوم من الأيام وأرخت لشُرْعها الأئنة ،
فسارت نحونا مخز العباب ، وتشق اليم شقاء فأسرعنا إلى شُرْعنا فنشرنا منها
فوق الأدغال ما قدرت على حمله ، انهرب من اللص المهاجم ، ولكن

سرعان ما تبيننا أن ذلك لا يجدي ، لأن العدو كان يجري نحونا جرياً سريعاً ، ولم يكن بد من لحاقه بنا ، فحملنا نفوسنا على الصبر ، وأخذنا نعد العدة ، ونهئ السفينة للقتال ، ونزال العدو . وكان معنا اثنا عشر مدفعاً ، والعدو الجائر ثمانية عشر . وعند الساعة الثالثة بعد الزوال اقترب منا ، ولسكن سفينته اعترضت مقدم سفينتنا قهراً ، وكان يود أن لو يأخذنا من وراء ، فأحضرنا ثمانية من مدافعنا ، وسلطناها عليه من ذلك الجانب ففر ليغير اتجاهه . وكان رجاله أثناء ذلك يصبون علينا وابلاً من طلقاتهم ، وهم لا يقلون عن مائتي رجل . وفي هذا العراك القصير لم نفقد أحداً من رجالنا ، وكنا على أهبة تامة للملاقاته ثانية . وبعد أن استعد لمهاجمتنا مرة أخرى ، دنا منا ، وخرج ستون رجلاً من سفينته إلى جاريتنا ، وبعد أن أبعدناهم عنها مرتين ، وجدناها معاملة ، وأحصينا ما فقدنا فوجدنا ثلاثة من القتلى ، وثمانية من الجرحى ، فلم نر مندوحة عن التسليم ، ووضع السلاح ، فأخذنا أسرى إلى سألتي وهو ميناء^(١) المغاربة . وقد خفت سوء المعاملة ، وليكني أحمد الله إذ لم تكن كما حسبت . وقد خصصت من دون رفيقي بأني لم أذهب إلى القضاء لحاكمي ، فقد اتخذني ربان السفينة لنفسه ، وجعلني عبداً رقيقاً أخدمه ، لأنني كنت أصغر القوم ، وأسرعهم في الأعمال ، وأخفهم حركة ، وأكثرهم نشاطاً ، وتوسم في المقدرة على القيام بأعباء خدمته . وقد استولت على الأحن عند هذا التغير ، فن تاجر إلى مملوك شقي . ما أفسى قلبات الدهر ! إنه خادع خوان . وحقا قال أبي حين تنبأ بأني سأكون شقياً حيث لا مخلص لي ، وقد

(١) المينا والميناء مرفأ السفن وهما مذكران



فأخذنا أسرى إلى سالى

امتدت إلى يد القدر، فخرت كل شيء، وعز الفداء. وليت الحزن وقف
 بي عند هذا، ولكن القاريء سيعلم عما قريب أني تحمات ما يتقل
 رَضَوَى^(١)، ويهم الليالي بعضه. وقد حماني ربان سفينة اللصوص إلى
 منزله، وكنت أعتقد أنه سيأخذني عند سفره، وركوبه البحر مرة ثانية،
 فكنت أمني نفسي بالخلاص إذا تغلب علينا أحد الأسبانين، أو البرتغاليين،
 الذين اشتهروا بالسورة والقتال، ولكن الله لم يشأ أن يكون ذلك، فقد
 تركني عند سفره في منزله، لأنظر في أمر الحديقة، وأرتها في غيبته،
 وأقوم بأعمال الخدم. وعند عودته أمرني بالمكث في السفينة لأراقبها.
 وطالما فكرت في أمر الخلاص مما أنا فيه من الذل والهوان، ولكن
 هيهات لمثلي أن ينال ذلك، إذ لم يكن من الممكن الهرب، لأنني لم أجد
 من يصحبني إذا اجتأت وركبت البحر، ولم أر هناك من كانت حاله
 كحالي لتتعاون على الفرار، ولم يقع نظري على إنجائزي، ولا إرلندي
 ولا أسكتلندي، ولا غالي. فكيف لي الخلاص من هذا المأزق الحرج
 والمركب الخشن. وعلى ذلك بقيت سنتين وأنا أعلل النفس بالآمال،
 ولكنني لم أقدر على فعل ما رغبت، وتناقت اليه النفس
 وقد مكث سيدي في منزله مرة أطول من عادته، ولم يركب البحر،
 وسمعتة يقول إنه لا يملك ما يكفي من النقود ليهيئ سفينته للسفر. وكان
 أثناء ذلك يأخذ زورق السفينة لصيد السمك. وكنت أنا وشاب كان
 يدعى مَارَسْكُو نَجْدَف. وقد عمات بجد واهتمام في الصيد حتى كان سيدي
 يرسلني مع أحد أقاربه ومَارَسْكُو لنصطاد

وقد حدثت حادثة فتحت لى الطريق ، وجعلتنى أفكر كثيرا فى شأن الفرار ، وذلك أنا ذهبنا للصيد صباح يوم من الأيام ، وكان الجو هادئا ، ولكن الضباب مالمبث أن ارتفع فى الأفق ، وتكاثف بعضه على بعض ، حتى عميت علينا المذاهب ، ولم نر الشاطئ مع قربنا منه . وقد جسد جدنا فى التجديف على غير هدى كل ذلك اليوم ، وما تلا من الليل ، حتى كلت منا القوى . وعند الصباح وجدنا أنفسنا بعيدين عن الشاطئ بمسافة لاتقل عن فرسخين^(١) ، وبعد جهد شديد وجوع تحكم ، وصلنا سالمين بعد أن ابتدأ الخطر ، لأن الرياح هبت وأذنت باشتداد . وقد أخذ الربان لنفسه عظة من هذا الحادث المؤلم ، فعزم على أخذ الحيلة فى المستقبل إن هو ركب البحر واعتلاه ، ووطد العزم على حمل الأبرة^(٢) المغناطيسية وما يكفى من الميرة^(٣) . ولما أخذ قارب السفينة الأنجائزية ، أمر بنجار سفينته أن يهيئه للرحلات ؛ ويمده للركوب فى المستقبل . فصنع به غرفة فى الوسط ، وترك خلفها متسعا لفرد يقف فيه ليدبر القارب بسكانه^(٤) ، ويرشده بكوئله ، وفسح المجال أمامها لفرد أو اثنين ، ليراقبا الشرع . وقد كانت تلك الغرفة تكفى لنوم الرئيس وخادمين . وكان بها خُوان^(٥) للأكل ، وخزانات صغيرة لوضع زجاجات الراح^(٦) والخبز والأرز والبن . وقد تعودنا الخروج معا إلى البحر فى

(١) الفرسخ ثلاثة أميال (٢) المعروفة بالبوصلة (٣) الطعام (٤) سُكان السفينة كَوْنَلها وهو المعروف بالدفة (٥) الخوان : ما يوضع عليه الطعام ليؤكل وجمعه اخونة ومخون (٦) الخمر

بهذا القارب ، إذ كان سيدي دائما يحتاج إلىّ لأنني برهنت على كفاءتي
فصيد . وقد عزم مرة على ركوب البحر للاستراحة وصيد السمك مع
لائحة من مشهورى أهل تلك الجهة ، ولذلك استعد لهم على قدر طاقتي ،
أرسل إلى القارب ميرة كثيرة ، وأمرني أن أحمل إليه بعض آلات القتال
لأنهم عزموا على القيام ببعض الأغارات والتلصص .

وكان القارب في الصباح التالي معدا على مسب أوامره وكل شيء كان
على أهبة الاستعداد لملاقاة ضيوفه ، ولكن مولاي حضر إلىّ وأخبرني بأن
ضيوفه لم يحضروا ، وأنهم أجلاوا خروجهم إلى البحر إلى فرصة أخرى ،
لأن الأعمال والطوارئ حالت دون ذهابهم اليوم ، وقد أخبروا سيدي
بأنهم سيتناولون العشاء معه الليلة ، ولذلك أمرني أن آخذ السفينة مع
الرجل والفلان كما هي عادت ، لنحصل على بعض السمك وأن أعود
سريعا متى وجدنا ما يكفي . فصعدت بالأمر ، وأخذت الأهبة للتنفيذ
وحينئذ عاودتني فكرة الخلاص والهرب ، لأنني سأجد مركبا معدا تحت
إمرتي . ولما غاب عني سيدي تهيأت لأصيد السمك ، بل لعمل سياحة طويلة ،
وإن لم أعرف وقتئذ إلى أي مكان ، لأن البعد عن هذا الموضع كان جل غايي .
وقد اجتهدت أن أحصل على ما كولات أكثر مما كان عندي في
القارب ، ولذلك قلت للرجل الذي كان يصحبني : يلزمنا أن نأتي ببعض
الخبز ، لأن سيدي لم يأمرني بأخذ شيء مما في القارب لنا كله ، فأجاب
بالإيجاب ، وذهب فأحضر سيفا (١) مملوءا بالخبز ، وثلاثة أوعية مملوءة
بالماء العذب .

(١) وعاء كلجئو الق أو كالقفة وجمعه أسفاط

وكنت أعلم مكان زجاجات الشراب في السفينة ، فذهبت في غيب
الرجل وأحضرتها كلها . وقد أحضرت مقداراً كبيراً من الشمع إلى قاربتي
لأنني وجدته في السفينة ، وكان يزيد على نصف قنطار ، وكذلك حملت
جملة صالحة من الحبال والخيوط ، وفأساً ومشاراً وقدماء ، ولا مشاحية (١)
في أن هذه الأشياء كلها كانت كبيرة النفع لي في مثل هذه الأحوال .
وقد لعبت بالرجل مرة أخرى ، وانقاد لي فيها انقياد الأعمى لها .
الطريق ، وذلك أني قلت له « أي إسماعيل . إن بندق الرمان على ظهر
السفينة . فهل يمكنك أن تأتي ببعض البارود والرصاص ؟ » لأنني قد تقابلت
غنيمه فأنأخذها لأنفسنا » فقال « نعم سأحضر لك ما طلبت » وقد ذهب
فأحضر نحو رطل ونصف من البارود ، وستة أرطال من الرصاص . وفي
هذا الوقت نفسه وجدت بعض البارود في غرفة الرمان ، فلأت منه زجاجة
كبيرة بعد أن وضعت ما بقي بها من الشراب في زجاجة أخرى . ولما تم
لي ما أردت ووجدت كل ما أحتاج إليه ، خرجت فيها باسم الله مجراها
ومرساها ، وغادرت الميناء طلباً للصيد . ولما كان حراس القلعة التي في
مبدأ الميناء يعرفوننا لم نجد صعوبة في المرور عليهم . ولما صرنا على بعد ميل
من الميناء تركنا السفينة للرياح تبعدها عن هذا المكان وجلسنا للصيد .
ولقد كانت الريح تهب من الشمال الشرقي فكانت عكس ما أحب ، لأنها
لو هبت من الجفوب لكنت قادراً أن أصل شاطئ إسبانيا ، أو على أقل
تقدير خليج كادز (٢) ولكنني لم أعبأ باتجاه الريح لأنني كنت أريد البعد

(١) لا مناقشة (٢) في شواطئ إسبانيا

عن منبع شقاوتي وبلائي ، ولم أهتم بأمر مصيري بعد ذلك ، بل تركته
للقضاء والقدر ، وركنت لما تأتى به المقادير

وقد مضى علينا ردح من الزمان ، ولم نحصل على طائل ، لأنى
كلما أحسست السمك يأكل الصنارة لم أخرجها من الماء ، لئلا يراها المغربي .
ولما عيل صبرى قات له متظاهراً بالحسرة وخيبة الآمال ، « ما هذا الحظ
التمس ؟ ما هكذا يخدم سيدى . وإنا ليازمنا أن نبتعد فى البحر حتى نجد
بغيتنا . » ولما لم يظن شرا وافقنى على طابئى ، فأطلقت للسفينة العقال ،
فأعبت الريح بالشراع وسارت سريعا ، وأدرت كوثلها كما أحببت فأبعدها
نحو فرسخ من المكان الذى كنا فيه . وحينئذ أعطيت السكان للغلام ، ثم
ذهبت نحو المغربى ، واثنت خلفه كأنى أبحث عن شئ فقدته ، ثم أخذته على
غرّة منه فحملته بين يدى ، ورميت به فى البحر ، ولكنه مالبث حتى ظهر
على سطح الماء لأنه كان يحسن السباحة ، وسألنى مستعظفا أن أخذه ، وأحمله
معى ، ووعدنى بأن يذهب فى معيتى إلى أى مكان شئت . وكان فى خلال
ذلك ينهب الماء نهبا ساجحا نحو السفينة ، ولو تركته لوصلها بعد زمن قصير ،
لأنه جد فى العمل ، وكانت الرياح ضعيفة ، فأسرعت نحو الغرفة وأحضرت
بندقة وهددته بها وأعلمته أنه إن ذهب لحاله فإن أف فى طريقه ،
وقلت له « إنك تقدر أن تصل الشاطئ والبحر الآن هادئ ، فول وجهك
شطره ، وأنا أمدك بالأضرك ولكنك إن حاوت الوصول إلى السفينة ،
فسأقضى عليك ، وأفقدك حياتك ، لأنى عزمت على الفرار طلبا لحريتى . »
وما سمع كلامى حتى غير وجهته ، فذهب نحو الشاطئ ، ولست أشك أنه

وصله دون تعب ولا مشقة ، فقد كان فاقد النظير في السباحة .

ولما صفا إلى الجو من هذا الرجل نظرت إلى الغلام الذي كانوا يسمونه كسيرى وقالت له « إذا برهنت لى على أمانتك وحسن إخلاصك ، فستحظى عندى بما تحب ، وإلا فإن حظك سيكون أتعس من صاحبك . ولن أثق بما تقول حتى تقسم لى برسولك . » فكان جوابه أن افتر ثغره ، وتبسم ضاحكا ، ثم تكلم كلام الساذج الغر الذى لا يقدر أن يكون ذا لونين ، وحلف أن يكون لى أمينا ، وأن يكون نحت أمرى ، ويذهب معى حيث أردت ، فلم يسعنى إلا التصديق ، وعلى هذا تم أمرنا .

وكنت غصون المدة التى رأيت فيها المغربى ساجحا أظاها بأتى متجه نحو مهب الرياح ، حتى يظنوا أنى ذهبت بسفينتى نحو قم المضيق ، ولم يكن فى إمكان أحد أن يدور بخلده غير ذلك ، لأن الجهات الجنوبية كانت مسكونة بالقبائل المتوحشة من الزنوج ، فإذا رأونا أحاطوا بنا بزوارقهم وأهل سكونا ، وإذا نزلنا إلى الشاطئ افترسنا الحيوان الضارى ، أو أكلنا المتوحشون الذين هم أقسى قلبا ولا رحمة عندهم . وما جن الظلام حتى حرلت وجهى نحو الجنوب الشرقى ، وجعلت سيرى مائلا إلى الشاطئ . وكانت الريح كما أشتهى ، والبحر هادئا ، ولذلك سارت السفينة سيرا حثيثا حتى أظننى ، قطعت مائة وخمسين ميلا عند حلول الساعة الثالثة من اليوم التالى . وكنت بعيدا عن أملاك فيصر مراکش أو أى ملك آخر ، لأنى لم أر آدميا فى هذه التخوم عند ما نظرت إلى الشاطئ . وهكذا كانت إقامتى عند المغربيين ، والجزع الذى استولى على حين كنت فى ديارهم . ولهذا لم آمن أن أقع فى أيديهم مرة أخرى ، فلم

أشأ الوقوف أو الاقتراب من الشاطئ، فسرت على هذا النمط خمسة أيام، واستمرت الرياح تهب نحو الجنوب ففكرت في الأمر، وقالت لنفسى إذا كانت السفن قد تبعني، فهي لا محالة قد يؤت من لحاق، ورجعت كما أنت، لطول الشقة وسحق الطريق. فعوات على الاقتراب من الشاطئ، وإلقاء عصا التسيار، فأرسيات السفينة في مصب نهر صغير لا أدرى أى نهر من أنهار الدنيا هو، ولا أعلم اسم الأرض التي كان بها، ولا خط عرضه، ولا الشعب الذي يقطن تلك البلاد إن كانت آهلة بالسكان. ولم أر، وما رغبت أن أرى أحدا. وكان كل اهتمامي أن أجد ماء زلالا صالحا للشرب. ولا يفوتن القارىء أنا وصلنا إلى هذا المكان في المساء، وقد عزمنا على السير مع الشاطئ حين يسترنا الليل بظلامه، لنكشف الأرض، ونسبرها، ونعرف أمرها. ولكن ما حل الظلام حتى سمعنا أصواتا تصم الآذان، وتلقى الرعب في قلب الفارس المغوار، أصواتا متعددة مختلفة النغمة، جاءت من الحيوانات المتوحشة التي سكنت هذه المحال، ولكننا لم نعلم نوعها ولا ماهيتها، وقد شاهدت الهلع باديا على وجه الغلام حتى ظننته سيقضى، ونوسل إلى الأذهب إلى الداخل، بل أنتظر الصباح فقلت «إي وربي إن رأيك لحق يا كسيري^(١) ولكن قد نرى في الصباح رجالا هم شر علينا من هذه السباع الضارية» فقال صاحكا «حينئذ نطلق عليهم نارنا فيفرون أمامنا». فسررت لهذا الجواب، لأنني علمت أن الجزع لم يحتمك فيه، وأعطيته بعض الشراب ليشد أزره. وعند التفكير في نصيحة كسيري وجدتها جديرة بالقبول، فتقبلتها بقبول حسن،

(١) كسيري اسم الغلام الذي كان يدعى به

ثم ألقيت راسي السفينة ، واضطجعنا هادئين لا نبدي حراكاً ^(١) وبتنا ولم تفتمض أعيننا ولم يهَوَّ ^(٢) النوم جفوننا ، فقد عدت العوادي عن الراحة ، وحال الخوف بين المرء وقلبه ، والجُنوب ومضاجها ، فبتنا مسهدين ، ولم تمض ثلاث ساعات حتى رأينا أنواعاً كثيرة من الحيوان المفترس عظيمة الجسم تأتي زرافات ^(٣) ووُحْدانا ^(٤) إلى الماء فتسير فيه لتشرب ، وتغسل جسمها للبرودة ، وكنا نجهلها جهلاً تاماً ، إذ لم نر مثلها في حياتنا ، وكانت أصواتها مخيفة مفزعة حتى تصورت أنها في عالم آخر ، وأن هذه هي الصيحة . وكاد يموت كسيري من الخوف ، وما كنت بأحسن منه حالاً . وقد زاد ما بنا من الوجد حين سمعنا صوت حيوان يشق نحونا الماء شقاً . ولم تتمكن من رؤيته لتحكم الظلام ، ولكن علمنا بما أحدث من الجلبة أنه كبير الجثة مخيف . وأخبرني كسيري بأن الحيوان كان أسداً . والله أعلم بالحقيقة . وقد رأى الغلام أن تغادر المكان ، وماكاد يتم حديثه حتى رأيت هذا المخلوق العظيم على قدر رمح منا ، فأسرعت إلى الغرفة وأحضرت آلة من آلات دفاعنا ، وأطلقناها عليه ، فدار دورة ثم رجع من حيث أتى . وإنني ليصعب عليّ أن أصف ما تبع ذلك من العويل والصياح ، والأصوات التي عات على الشاطئ في داخل تلك الأرض عند سماع تلك الطلقة ، وقد داني هذا الهياج على أن هذا الصوت كان أول صوت سمع من نوعه . وقد عرفت الآن أن من المستحيل الخروج إلى الأرض ، والسير فيها ليلاً كما أني لا أعرف كيف يمكن ذلك نهائياً ،

(١) حركة (٢) هَوَّى الشيء هَوًى هَوًى أحبه واشتهاه (٣) جماعات مفردة

زرافة بمعنى جماعة (٤) وُحْدان جمع واحد

لأن الوقوع في أيدي المتوحشين كان شراً من لقاء الضبع . ومهما كانت المخاوف ، فقد حُمَّ علينا أن نغادر سفينتنا إلى اليابسة ، لنحصل على ماء ينساغ عذبا في الألفا^(١) ، لأن ما معنا منه قد انتهى ، ولكن أتى لنا ذلك ونحن لا نعرف مجاهل تلك الأرض ولا معالمها ، غير أن كسيري أخبرني بأني إن سمحت له ، فسيذهب ويبحث عن الماء ، ويملاألى جرة منه فقلت له « ولماذا تذهب أنت وأمكت أنا ؟ أفلا يكون العكس ؟ »

فأجاب إجابة ملأى بالحب والشفقة « إذا أتى المتوحشون فأكلوني ، نجوت أنت وذهبت آمنا على نفسك وحياتك » . فأجبت « سنذهب معا ، وإذا أتى القوم فسنقتلهم وننجو جميعا » . وقد تأهبنا للنزول بعد أن أعطيت رفيقي بعضا من الخبز والشراب ، فاقتربنا من الشاطئ وغادرنا القارب حاملين سلاحنا وجرتين لئلاهما ماء

وقد رأيت من الحكمة ألا أبعد بعيدا عن السفينة لأنني خفت أن يحضر المتوحشون بزوارقهم على النهر ، ولكن الغلام رأى مكانا منخفضا على مسافة ميل فخرى نحوه . وبعد لاأى ما عاد مسرعا نحوى ، فظننت عند رؤيته أنه متبوع بجمع من آكلى لحم الإنسان أو بعض أنواع الحيوان الضاري ، فهرولت لمساعدته ، ولما صرت منه على قيد^(٢) رمح ، رأيت حاملا أرنبا كبيرا مما تعودت رؤيته ، وكان قد قتله أثناء وروده الماء . وإني سررت كثيرا بهذه المنحة ، لأن لحمها كان طيبا ، ولكن زاد فرحي عند معاملتي بأن الماء الذى وجدته الغلام كان عذبا نيرا^(٣) ،

(١) الألفا جمع ألفة وهي اللحم المشرفة على الخلق فى أقصى سقف الفم (٢) مقداره

(٣) النير الذى يهنا شربه

وأنه لم ير أحدا من القوم المتوحشين . وقد علمنا فيما بعد أن الماء كان قريبا منا ، فكنا نأخذ منه حاجتنا ، وقد ملأنا أوعية الماء التي معنا ثم تأهبنا لاستئناف المسير بعد أن لم نر أحدا في هذا الجوار .

وقد علمت من السفرة الأولى لهذه الجهة أن جزر كيناري ، وجزر الرأس الأخضر ، ليست ببعيدة عن ساحل القارة ، ولكني لم أجد معي آلات للرصد حتى أعرف خط العرض الذي كنا فيه ؛ ولم أذكر خط عرض هذه الجزر ، فأنى لو علمته لكان من السهل الهداية إليها . وقد كان ما عولت عليه مع كل ذلك أن آتى إلى الطريق المعبدة التي تمر بها السفن التجارية الإنجليزية التي اعتادت السير في هذه الجهة ، فأنا إن نجحنا في ذلك أمنا ونجونا من المهالك . لأنها تمد إلينا يد المساعدة وتنقذنا من الشقاء الذي نحن فيه سابعون

وكنتم أعتقد أن هذه الأرض بين أملاك مراکش وأرض الزنوج ، وأنها خالية من السكان سوى الحيوان الأعجم المفترس ، لأن الزنوج تركوها وذهبوا إلى الجنوب خوفا من المفريين ، ولم ير هؤلاء أنها تستحق السكن والعناية . وهناك سبب آخر أدى إلى خلوها من الساكن ، وهو امتلاؤها بكثير من أنواع الحيوان المفترس كالضبع والأسد واللبؤة التي اتخذتها مستقرا لها ، ولذلك لا يستعملها المغاربة إلا للصيد ، حيث يذهبون إليها كالجيوش التي يتكون كل منها من ثلاثة آلاف رجل أو أكثر ، ومدى تلك الأرض مائة ميل ، وقد مررت بها تجاه الشاطئ ولم أرها فيها نهارا أي ساكن ، ولم أسمع ليلا غير صوت الحيوان الخفيف الذي تقشعر

لسمعه الأبدان .

وقد رأيت مرة أو مرتين قمة تنريف التي هي أعلى قمة في جبال جزر كناري، وفكرت في الذهاب إليها، واجتهدت مرتين في ذلك، ولكن خاب مسعاه لمعارضة الريح لي، واشتداد البحر على سفينتي، ولذلك عقدت النية على متابعة السير في طريق الأصلي قريباً من الشاطئ.

وقد اضطررت مراراً أن أجنح إلى الساحل، وأقف عنده للحصول على الماء العذب. وأتذكر أنني فعلت ذلك مرة في صباح يوم من الأيام، فأرست السفينة تحت طنف^(١) من الشاطئ الجبلي، وانتظرنا علو الماء حتى تذهب إلى الداخل. وبينما نحن كذلك إذا بكسيري قد أخذ يمدى وهمس في أذني قائلاً « يلزمنا أن نغادر هذا المكان لأنني أرى حيواناً عظيم الجثة، مخيف الشكل، نائماً على مقربة من البحر » فنظرت في اتجاه إصبعه، فرأيت أسداً ما رأت مثله عني، رأيت نائماً في ظل الجبل وقد امتد جسمه امتداداً عظيماً، عند ذلك قلت للغلام « اذهب إلى الشاطئ واقتله ». فنظر إلى نظرة الخائف وقال « سيأكلني قبل أن أقتله » فلم أهتم بما قال وأمرته بالسكون، ثم أخذت بندقنا وحشوته ليكون معداً للرمي، وعند الانتهاء من العمل صوبت النار نحوه واجتهدت أن أصيبه في الرأس ولكنه نام رافعا إحدى ساقيه فوق أنفه، فأصاب الرصاصة يده من الركبة فكسرت عظامها فقام مضطرباً، وسمعنا له زئيراً يصم الآذان. وأراد العدو

ولكن خائنه ساقه، فاضطجع ثانية، ثم قام على ثلاثة وزار فاعراً فاه. وقد أخذتني الدهشة عند ما علمت أن الرصاصة لم تصب رأسه. ولذلك أخذت

(١) الطنف : مانتاً من الجبل



فقام مضطرباً، وسمعنا له زفيراً يصم الآذان

البندقية الثانية، وصوبتها على رأسه، فأصابته وهو مُوَلِّ، فوقع صريعاً وقد خفت زثيره، ولـسـكـن لم تنزل به بقيمة من الحياة. وعند ذلك تشجع كسيرى، وسألنى أن أسمح له بالذهاب إلى الشاطئ ففعلت، فأخذ معه بندقية وأتى بنفسه في الماء، وسبح حتى وصل إليه، فوضع فوهة أنبوبة البندقية في أذنه، وأطلقها فخر ميتاً. وهكذا فارق هذا الوحش هذه الدار.

ولقد سرنا هذا الغلب، ولـسـكـن شملى الحزن لأسرافى في الذخيرة التى كانت معنا، فقد كان من الحزم اقتصادها لوقت آخر عصيب. ولم تكن هذه الفريسة طعاماً لنا، بل كانت خالية من كل فائدة لملئنا، ولـسـكـن كسيرى أصر على أخذ شيء منها فجاء إلى وسألنى أن أعطيه الفأس ليقطع رأس الأسد، ولكنه بعد مدة عجز عن قطعه، وعاد مع إحدى رجليه. وخطر ببالي أن أسلخ جلده حتى يكون لنا مفيداً، ولذلك جلست ورفيقى نعمل لهذا الغرض، وقد أثبت كسيرى بعمله أنه كفء كريم، لأننى لم أعرف كيف أقوم به. وبعد أن أجهدنا أنفسنا يوماً كاملاً نـجـحـنا فى عملنا وأخذنا الأهاب ^(١)، فوضعه على ظهر الحجرة فجف في يومين، واستعملته فراشاً للنوم عليه.

وبعد هذه الاستراحة واصلنا السير فى طريقنا مدة اثني عشر يوماً ونحن نأكل ما يسد حاجتنا، لأن ميرتنا قد نقصت نقصاً ظاهراً، ولم نـجـح إلى البر إلا عند الحاجة إلى الماء، لأن الخطوة التى أردت العمل لتحقيقها كانت أن أتابع السير حتى أصل نهر غمبيا أو سينغال، وأقرب

من الرأس الأخضر لأعثر ببعض السفن الأوروبية ، وإن لم تساعدني المقادير على ذلك فأني لا محالة هالك بين الزنوج . إني أعرف أن السفن الأوروبية التي تقصد شواطئ غينا أو البرازيل أو الهند الشرقية تمر بهذا الرأس أو الجزر المسماة باسمه ، وعلى هذا وضعت خطتي للنجاح ، فأما أن أجد السفن التي أنشد ، وإما أن تفيض روحنا .

وفي نهاية الاثنى عشر يوماً وجدت الأرض التي نمر عليها مسكونة ، ورأينا السكان على الشاطئ ينظرون إلينا ، وهم سود البشرة ، عراة الأجسام لا شيء يسترهم . ولقد اعتورتني فكرة الذهاب إلى الشاطئ لرؤيتهم ، ولكن رفيقي كان أعقل وأحزم ، فمتعنى من ذلك . وقد اقتربت بسفينتي من الشاطئ رغبة في محادثتهم فآنست منهم ارتياحاً لذلك . وحين دقت النظر إليهم وجدتهم عزلاً لا سلاح في أيديهم ، سوى واحد قد أخذ في يده عصا طويلة ، أخبرت بأنها مزارق ، وأنهم يجيدون رميها على الرمية ، فتسير مسافة غير قصيرة . فأخذت الحيطه ، وباعدت ما بيني وبينهم ، وتكلمت معهم بأشارات ظننتهم يفهمونها ، وطلبت منهم أن يمدوني بشيء للأكل ، فأشاروا إلى أن أقف بجاريتي حتى يحضروا لي شيئاً من اللحم ، فبدأت من السير حتى وقفت السفينة . وقد أرسلوا منهم اثنين فأسرعا إلى الداخل ، وفي أقل من نصف ساعة رجعا ومعهما قطعتان من اللحم المجفف ، وبعض الحبوب التي تنبت أرضهم . ولم نعرف أصل هذه الأشياء ، ولكن الضرورات تبيح المحظورات ، وكنت سعيداً بوجودها . وهنا نشأت صعوبة يجب تذليلها ، وهي كيف يصل إلينا ما أعدوا لنا ، لأنني كنت حذراً أن أدنو منهم ، وأخرج إليهم ، ولم يكونوا

أقل منا حذراً وخوفاً. وقد ابتدعوا طريقة في صالح الجميع ، فوضعوا ما أحضروا على الشاطئ ، ثم ذهبوا بعيداً عنه ، فخرجنا وأخذناه ، وبعد ذلك رجعوا إلى مكانهم مرة ثانية ، فكانوا على الشاطئ قريبين منا . وقد أشرنا إليهم سمة الشكر لما أسدوا إلينا ، فقد قصرت أيدينا عن المكافأة فوجب أن يطول لساننا بالشكر . ولكن أراد الله إلا أن نقوم لهم بخدمة عظيمة قد قدروها حق قدرها لأننا رأينا في الحال خدقين عظيمين قد أطلقا أنفسهما العنان ، وأقبلا من الجبل إلى البحر عدواً أحدهما مطارد والآخر مطارد ، ولم نعلم من أمرهما شيئاً . هل كان المذكّر مطاردا الأُنثى ؟ هل كانا يلعبان ؟ هل كانا في غضب ونضال . هل كانت هذه حال الحيوان في هذه الديار ؟ كل ذلك كان غير معروف لنا ، ولكن كان يغلب على ظني أن هذه الحال لم تكن اعتيادية ، لأن هذه الحيوانات قلما تظهر نهاراً ، ولأنني رأيت القوم وقد اتقى في قلوبهم الرعب ، وخاصة النساء ، فولوا الأذبار ، خلا ذلك الرامح ^(١) ، فانه ثبت مكانه . وقد واصل الوحشان العدو غير ملتفتين إلى الزنوج ، حتى نزلا الماء وسبحا فيه بمنة ويسرة ، كأنما جاءا للهو واللعب . وبعد هنيهة رأيت أحدهما وقد أخذ طريقه نحونا ، وصار على مقربة منا ، ولكنني كنت مستعداً للطوارئ ، فأخذت في يدي بندقة كنت قد أعدتها لمثل هذه الملمات ، وأمرت رفيقي أن يهني الأخرين . ولما قرب هذا الضاري منا أصبته بطلق نار في رأسه فاختم في الماء تواتاً على أثره ، ولكنّه ما لبث حتى ظهر مضطرباً كأنه

يصارع الموت ويدافعه ، ثم اتجه نحو الشاطئ ، وما وصله حتى فاضت روحه الخبيثة .

ولو أعطيت من البيان أعلاه ، ومن البلاغة غايتها ، ما قدرت أن أمثل للقارئ الدهشة التي استولت على النظارة^(١) عند سماع الصوت ، ورؤية الدخان ، فقد اصفرّت وجوههم ، وسقط بعضهم على الأرض من شدة الهول ، ولكنهم عادوا إلى رشدهم ، وقويت قلوبهم عند ما رأوا الوحش ميتا ، وقد ظهر الدم على وجه الماء ، ورأوني أشير إليهم بالاقتراب من الشاطئ ، فقد هموا للبحث والتنقيب عن الجثة ، وقد عثرت عليها في النقطة التي علا الدم فيها ، فشددت وثاقها بحبل ورميت طرفه الآخر إلى الزوج ، فأخرجوها فأذا بها نمر عظيم الجسم ، وإذا بجلده من أئمن الجلود وأغلاها قيمة . ولقد طرب القوم ورفعوا أيديهم ليعبروا عما اعتراهم من الدهشة . إذ كيف قتله ؟ وبأى شيء كان ذلك ؟

وأما الحيوان الآخر الذي صاحب هذا ، فقد ذهب سريعا إثر سماع الصوت ، ورؤية النار إلى الشاطئ ، وهروا إلى الجبال التي منها أتى ، ولم أتحمق ما هو ؟ ولقد فهمت من حال القوم أنهم يأكلون مثل هذا اللحم ، فأشرت إليهم بأن يفعلوا به ما أرادوا ، وجعلت ذلك هبة مني إليهم ، ففرحوا وأظهروا لي شكرهم لصنيعي معهم . وفي أقل من لمح البصر ابتدءوا يهيئوا الفريسة ، وكانت سكاكينهم من قطع الخشب الحادة . وقد فعلوا بهما ما أرادوا بسرعة عجيبة ، وبعد أن هيئ اللحم للأكل ، أرادوا أن يعطوني بعضه فامتنعت مظهرا أنني تنازلت لهم عنه ، ولكنني طلبت الجلد فأعطوه لي دون

تأخر ، ثم أحضروا الى بعض ما كولاتهم فأخذتها وإن كنت لم أعرف عنها شيئاً . وقد طلبت إليهم أن يملئوا جرانا ماء ، فأخذت إحداها وجعلت عاليها سافلها فعرفوا أنني أريد ماء . فنادوا بعض نساءهم ، فجاءت امرأتان ومعهما جرة كبيرة مصنوعة من الطين المحرق فوضعتها على الشاطئ ، وأرسات كسيري فلا جرانا الثلاثة . وقد كانت النساء عراة الأجسام كالرجال .

الآن وقد أخذت الماء والحبوب ، وجذور بعض النبات المغذى ، فيجب أن أحذر المسكث الطويل ، والاقتراب من الشاطئ . ولذلك سرت بعيداً عنه مدة أحد عشر يوماً في آخرها رأيت الأرض قدبرزت إلى البحر مسافة كبيرة ، وكان بيني وبينها إلى الأمام مسافة خمسة فراسخ فسرت مسرعاً ، ثم ابتعدت عن الشاطئ فرأيت أرضاً في الجهة الأخرى من البحر فعلمت أن هذه كانت الرأس الأخضر ، والأخرى الجزر المسماة بهذا الاسم . ولكن بعدت بيني وبينها المسافة فلم أسكر بلدة النجاش لأن الرياح لو اشتدت فربما قضت على كل شئ قبل إدراك الغاية

وفي هذه الحال وعدم الثقة بالمستقبل ، ذهبت إلى الحجرة ، فجلست فيها ، وتركت الغلام يباشر العمل ، ولكنه مالبث حتى صاح « سيدي سيدي ! سفينة شرعية » لقد ظن هذا الجهول أن السفينة ربما كانت لبعض المغريين ، وأنهم يتعقبوننا ، مع أنني أعلم أننا تركناهم وغادرنا منطقة نفوذهم . وما سمعت كلامه حتى قت مسرعاً ، فرأيت السفينة ، وعرفت أنها برتغالية ذاهبة إلى غينا للتجارة في الرقيق ، ولكن حين تحققت جهة سيرها علمت أنها تقصد ناحية أخرى ، ولا تريد الاقتراب

من الشاطئ فحوات سيرى نحوها ، وعزمت على محادثة رجالها إن
تأتى لى ذلك .

ولكنى بعد قليل أيقنت أنه يتعذر على أن أقرب منها ، وأنها
ستذهب بعيدا عني قبل أن أتمكن من الإشارة إليها ، وإعلامها بحالى .
وبينما كنت فى بأس من أمرى ، وارتباك فى قضيتى تحققت أنهم رأونى ،
وقد ساعدتم على ذلك مراقبتهم بمراقبتهم^(١) ، فأواسفيتنى أوروبية ،
فاستنبطوا أن جاريتنا قد غرقت ، وأننا نزلنا فى زورق النجاة ، ولذلك
هدءوا من سيرهم وأعطونا الفرصة للاقتراب منهم ، والالحاق بهم . وقد
شجعنى ما رأيت ، وأردت أن أعلمهم بأنى فى خطر ، فأطلقت بندقتى فى
الهواء ، وقد علمت بعد أنهم رأوا الدخان وإن لم يسمعوا الصوت ، وعقب
ذلك انتظرونى ، وما مضى ثلاث ساعات حتى كنت معهم فسألونى عن
أمرى ، وما حل بى ، بالبرتغالية تارة وبالأسبانية أخرى . وبالفرنسية
طوراً آخر ولكنى لم أفهم شيئاً فجاء بحار كان معهم من الأسكتلنديين
ونادانى فأجبتة ، وأخبرته بأنى إنجليزى ، وقد هربت من الرق فى سالى
فسمحوا لى بالنزول فى سفينتهم ، وأخذوا معهم كل متاعى

وإنى لأعجز من التعبير عما خالج نفسى من السرور ، لفوزى ونجاحى
فى مكان يعز الخلاص فيه ولقد قدمت كل ما أملك للربان شكرا الصنيعه
ولكنه أبى ووعد بأن يسلم إلى كل شئ عند الوصول إلى البرازيل ، ثم
قال « إنى أنقذتك من مخالب الموت ، لا لأجر تنقده لى ، بل لأنى أحب

(١) المراقب جمع مرقب وهو المنظار الذى يرقب به عن بُعد « تلسكوب »
أما الذى يُرى به عن قرب فهو المجهر « ميكروسكوب »

أن أسدى الجميل لمن يستحقه ، ولعلى أن أكون ذات يوم فى مثل موقفك هذا فأجد من يأخذ ييدى ، على أنى سأحملك إلى البرازيل بعيدا عن قومك وعشيرتك ؛ وإذا سلبتك مالك بقيت هناك صفر اليدين ، فتموت جوعا فكأنى أريد أن أكون كالى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا^(١) فأسلبك حياة أعطيتكمها . إنى سأحملك معى بلا أجر ولا مقابل ، وأرجو أن ينى مامعك بسد حاجاتك هناك ، ثم القيام بنفقاتك إلى بلدك الذى منه درجت . وقد صدق فعله قوله ، فإنه أخذ كل متاعى ، تحت عهده ، وأعطانى به ييانا لم يترك فيه شيئا إلا أحصاه .

أما قاربى فقد كان جيد النوع ، وقد عرف ذلك الربان ، فعرض على شراءه منى ، وسألنى عن الثمن الذى أريده ، فأبيت تعيين شىء وفوضت إليه الأمر فى أخذه بلا ثمن ، ولسكنه أبى وقال « سأعطيك ثمانين قطعة من ذوات الثمانية ، وإذا وجد فى البرازيل من يزيد عليها أعطيك ما زاد » وكذلك أعطانى ثمن الغلام كسبرى ، ولسكنى امتنعت عن أخذه ، لأنى لم أحب أن أسلبه حرية ، لخدمته إياى خدمة صادقة . وأخبرت الربان بذلك فعرف حقيقة الأمر ، وأخبرنى بأنه سيعتقه بعد عشرين سنين . وقد وجدت ارتياحا عند الغلام لهذا الأمر ، فبركته وشأنه فذهب إلى الربان .

(١) الأنكاث جمع نكث وهو ما نقض من الأ كسية والأخبية

الفصل الرابع

سفر روبنسن كروسو الثانى فى البحر وانكسار السفينة به

وقد كانت الأوبة إلى البرازيل جميلة ، ووصلنا إليها من خليج جميع القديسين . بعد اثنين وعشرين يوما . الآن تخلصت من هذه المصائب فاذا أعمل فى هذه الحياة ؟

إنى لا يمكننى أن أذكر جميع أعمال الشفقة والحنان التى قام بها الربان نحوى ، فقد سلم إلى جميع متاعى ، وابتاع منه ما سمحت نفسى ببيعه حتى حصلت على مائتين وعشرين قطعة من النقود البرازيلية من ذوات الثمانية . وبعد قليل عرفت رجلاً أميناً من الفلاحين الذين يزرعون القصب ، فسكنت معه وتعلمت منه زرع هذا النبات وكيفية تعهده . ولما رأيت ما فيه أرباب الحقول من الراحة وحسن المعيشة ، والحصول على الثروة فى وقت قصير عزمت أن أصير منهم ، ولذلك اشتريت أرضاً بقدر ما سمحت لى به نقودى التى كانت معى ، واتى تركتها خافى بلندن

وقد كان متاخى رجلاً من اشبونة - ولكنه من أبوين إنجليزيين - وكان اسمه ولز ، وكانت حاله كحالى ، فكنا نعمل ونقضى الوقت معاً ، وقد عملنا سنتين لنحصل على ما يسد الرمق ، لأن الأرض كانت فى حال غير صالحة للزرع ، ولكننا فى السنة الثالثة وجدنا بصيصاً من الأمل ، فقد زرعنا بعضاً من التبغ وأعدنا جزءاً من الأرض ليزرع قصباً فيها . وكان احتياجنا إلى المساعدة عظيماً ، ولذلك أسفت جد الأسف لفراق كسبرى ، ولكن كيف آسف على هذا الخطأ ، وأنا لم أعمل عملاً صالحاً موثقاً فى حياتى

وأيقنت ألا علاج إلا الاستمرار حتى يحكم الله . إن أمرى لعجيب جداً .
قد تركت والدى ولم أصنع لنصحه ، والآن أشتغل في عمل غير الذى من
أجله خرجت من بلدى ، وعدت إلى درجتى فى الحياة ، وهى الدرجة التى
أرشدت إلى التمسك بأذيالها ، ولم أرتضها ، ولينتنى فعلت . وقد كان فى
مقدرتى أن أعمل هذا العمل فى بلدى بين أهلى ؛ وما كنت فى حاجة إلى
التغرب والبعء ، لأشتغل فى أرض أجنبية بين قوم غرباء ، لارابطة
تربطهم بى . ولم أجِد من أحداث غير جارى إذا سمحت له الأحوال ،
وأصبحت أعتمد على كدى بلا معين ولا مساعد ، وغدوت كمن رمته
المقادير على شاطئ جزيرة مقطوعة عن العالم . بهذا أشبه حالى ، والله يعلم
مقدار صدق ، فإن الأيام برهنت لى أنى كنت فى غرور ، وأن حالى هذه
أرقى وأنعم من حال مبتور الأوصال فى جزيرة لا أنيس له بها إلا اليوم
والغربان .

واقعد استمر وبان السفينة التى أفلتت ثلاثة أشهر بعد العدة للرحيل ،
ويعلاً سفينته من الأحمال التى يريد حملها ، وقبل سفره أخبرته بنقودى
التي تركتها فى لندن فقال لى إذا أمرت من بيده هذه النقود هناك أن
يرسلها إلى لشبونة للتاجر الذى أعينه ، فسأشترى لك بضاعة رابحة ،
وأحضر لك ما أجنبيه منها ، ولكن لا يعلم الغيب إلا الله ، وأرى من الحزم
أن تأمر لى بمائة جنيه فقط وتحفظ المائة الأخرى ، فأذا ربحت من هذا
المسلك أمكنك أن تعمل بما بقى مثل ما عملت بالمائة الأولى ، وإلا فاحفظ
عليك مالك ، لترجع إليه عند احتياجك . « هذه كانت نصيحة هذا

الرجل الأمين ، وقد رأيتها تستحق العناية ، فكتبت له الرسائل والأوامر التي طلب مني إلى المرأة الطيبة التي كان المال مودعا عندها .

وكتبت لزوج الربان الإنجليزي بكل ما حل بي ، فأخبرتها بأني وقعت في الأسر ، وصرت لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ، وأني هربت ، وكيف قابلت هذا الربان البرتغالي ، وكيف كانت معاملته لي ، وما أظهره نحوي من العطف والحنان ، ووصفت لها حالي وما أنا عليه ، وأفهمتها كيف تنصرف في مالي الذي عندها . وعند وصول الربان إلى لشبونة أرسل السكتب التي كتبتها للتاجر الإنجليزي بلندن ، وأخبره أن يتوجه إلى السيدة ، ويعطيها الرسائل ، ويخبرها بكل ما حصل لي وقد فعل فأعطته المرأة النقود وزادت فأرسلت إلى الربان هدية ثمينة ، مكافأة له على إحسانه إليّ

وعند تسلم النقود قام التاجر فاشترى بها سلعا إنجليزية ، وأرسلها للربان إلى لشبونة ليحضرها معه إلى البرازيل عند عودته ، وقد فعل ذلك ولم يقبل مني شيئا على عمله غير قليل من التبغ ، وقد اشترى لي عبدا بثمان الهديّة التي أرسلتها له المرأة ليعمل في مزرعتي ، وقد كانت الساع من الأصناف التي يحتاج إليها القوم فبعتها بأثمان مرتفعة ، وحصلت على أربعة أمثال ثمنها ، وأصبحت غنيا ، وخاصة بعد أن اشتريت عبدا آخر غير الذي أحضره لي الربان ، واستأجرت أيضا عاملا أوروبيا ليعمل الجميع في الحقول ويتعهدوا الزرع . ولقد حسن شأني وارتفع ذكري ، ولكن كفران النعمة يسبب زوالها ، إن الأرض أنتجت إنتاجا حسنا ، وحصلت على مقدار كبير من التبغ ، وكثرت في يدي النقود فأصبحت أفكر

في مشروعات جديدة وأعمال لا تصل إليها قدرتي ، وهذا هو السر في إفلاس
أقدر المال

ولو أتيت لي أن أستمع في العمل الذي أنا فيه الآن ، لو وجدت متسعا
من الرزق والهناءة في العيش ، ولعرفت مقدار نصائح أبي ، وقدرت الحياة
الهادئة المطمئنة قدرها ، ولكن أشياء أخرى هجمت عليّ ، وأصبحت
العامل على شقتائي . وكان المسبب لذلك رغبتي الشديدة في الأسفار ،
ومخالفتي للنهيج الواضح الذي أعدتني له الطبيعة

وقبلا خالفت والدي ، ونبذت رأيهما ظهريا ، فكيف أقنع الآن
بهذا الأسلوب في حياتي ؟ يازمني ترك ما أنا فيه ، وما كنت أنتظره
من السعادة والثراء من الفلاحة إلى رغبة أصبو إليها وتتوق نفسي شغفا
بها ، وعلى ذلك رميت بنفسي في هوة سهيجة لم يقع فيها أحد سواي

وقد أقمت أربع سنين بالبرازيل ، تعلمت في غضونهما لغة القوم ،
واتخذت منهم أصدقاء من طبقة المزارعين والتجار الذين كانوا في
سان سالفادور التي كانت مرفأنا . وكنت خلال محادثتي معهم أقص عليهم
أمر الرحلتين اللتين قمت بهما إلى شاطيء غينا ، وكيف عاملت الزوج هناك
واشتريت سلعهم بأبخس الأثمان ، وأقل الأشياء ، فكنت آخذ الذهب
والحبوب وسن الفيل والعميد بالخرز والأعجب والسكاكين والمقصات وقطع
الزجاج والفؤوس وما مائل هذه الأشياء

وكانت هذه الأقوال تجذب قلوبهم نحوي . ويسمعونها كأن علي
رؤوسهم الطير ، فقد استولت عليهم طريقة شراء العميد الذين كانوا إذ ذاك

قليلين ، وكانت تجارتهم رابحة ، ولا يسوغ لأحد مباشرتها إلا بأذن من ملوك إسبانيا والبرتغال

وكنيت ذات يوم جالساً بين نفر ممن أعرفهم ، وأنا أحدثهم حديث أسفارى السابقة ، وأقص عليهم قصصها ، فجأني ثلاثة منهم في اليوم التالي ، وقالوا لقد بتنا نفكر فيما كنت تحدثنا به الليلة الماضية ، وجئناك لنعرض عليك اتفاقاً سرياً . وحينئذ قالوا إننا اتفقنا على الذهاب في سفينة إلى غينا ونحن كأنا أرباب حقول مثلك ، ولا تحتاج حقولنا إلى شيء احتياجها إلى العاملين . ولما كانت تجارة العبيد لا يمكن مباشرتها ؛ فنحن نكتفي بسفرة واحدة نحضر بها عبيداً نقسمهم بينهم سرّاً ليعملوا في مزارعنا . وإننا نتقدم إليك أن نكون مدبر السفينة التي تقلنا مع تحملنا نحن جميع النفقات ، ولك مثل الذي لنا في العبيد

إن هذه الاتفاقية التي عرضت عليّ ، كانت حسنة لاغب فيها إذا قدمت لرجل خال من الأعمال ، ولكنها على النقيض من ذلك بالنسبة لحالى ، لأننى تقدمت في الزرع ، وانتظرت أرباحاً طائلة منه ، ومثل هذه الرحلة تكون لمثل غلطة لا تقدر نتائجها . ولكن أنى لمثل وقد خلقت سبباً لشقائى أن ينجو من هذا الأمر بعد أن خالفت إرشاد أبى . ولا أطيل على القارئ القول فقد قبلت ما أشاروا به عليّ ، والقلب مفعم سروراً ، بعد أن أخذت عليهم العهود والمواثيق بأن يباشروا زراعتى أثناء غيبتى ، وأن يقوموا بتنفيذ وصيتى بحسب ما أتركه من التعليمات ، إذا طوحت بى المقادير فى عالم الأبدية ، وعلى ذلك كتبت وصية بينت فيها ما يجب عمله فى أرضى وزراعتى ، وجعلت ربان السفينة الذى نجاني من الموت

وارثي الوحيد ، وجعلت له أن يختص بنصف الناتج من الأرض ، أما النصف الآخر فأوجبت عليه إرساله إلى إنجلترا ، ولم أترك أمراً إلا اتخذته لبقاء الأرض ، وحفظ الزرع . ولو أتى تفكرت فيما أنا قادم عليه ، وسببرته بمسبار الحكمة والسداد ما تركت عملاً راجحاً كالذي كنت فيه إلى آخر محفوف بالمخاطر والأهوال بعدما ظهر لي في أسفاري الماضية من المصائب والهموم التي تفرق بين المرء وقلبه

إني وافقت على هذا المشروع بسرعة عجيبة ، وأطعت بلا تفكير ما أمأته على عواطفى دون أن أنقده نقد الصيارف للدراهم . ولم يبق بعد ذلك إلا إعداد العدة ، وأخذ الأهبة ، وبعد قليل أعددت السفينة ، ثم شحنها وركبتها في ساعة عصيبة في أول سبتمبر سنة (تسع وخمسين وستمائة وألف) وقد كان هذا نفس اليوم الذي تركت فيه أبى وأمى منذ ثمانى سنين في هل ، لأعمل لشقائى مخالفاً رأيهما وأترك سعادتي وهنائى . وكانت سعة سفينتنا مائة وعشرين طناً . وكان معى ست بنادق وأربعة عشر رجلاً ورب السفينة وغلامه . ولم نشحن السفينة إلى آخر ما تطيق ، بل أخذنا معنا سلماً خفيفة من الأمتعة التي ينتظر نفاقها في تلك الجهات وخاصة المرائى الصغيرة .

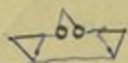
لقد أبحرت السفينة إلى الشمال تجاه شاطئنا ، وكانت الخطوة التي رسمناها لسيرها أن تتجه نحو شاطئ إفريقية حين تكون عند الخط العاشر أو الثانى عشر من خطوط العرض الشمالية . وكانت هذه خطوة الملاحة في تلك الأيام . وقد كان الجو حسناً إلا أنه كان حاراً جداً كل الوقت الذى سرنا فيه تجاه شاطئنا . ولما وصلنا إلى ارتفاع رأس

سان أو جَسْتِينُون ركننا الشاطئ كما لو كنا نريد جزيرة فَرَنْدَدِ نُورُونَا، متجهين إلى الشمال الشرقي، تاركين هذه الجزر إلى الشرق، وبعد مضي اثني عشر يوما في هذا الاتجاه وجدنا أنفسنا في خط العرض الشمالي ٧٤°، وعنده هبت علينا زوبعة مخيفة، وعاصفة أفقدتنا رشدا. وقد ابتدأت هذه الرياح من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، وحينئذ عدلت نفسها إلى الشمال الشرقي، واستمرت ترتفع وتضطرب، والأُمُوج تتلاطم وتعمظم، مدة اثني عشر يوما، ونحن لا ندرى من أمرنا شيئا، وتركنا الرياح الهوج نحمانا، وتمذف بنا حيث أرادت، ونحن خلال ذلك، ننتظر أن نبتلع في كل لحظة، ولم يدر بخلدنا إنا قادرين على إنقاذ أنفسنا.

وقد كان ضغنا^(١) على إِبالة^(٢) موت رجلين من بحارتنا، وغلाम الرئيس، فقد أهلكتهم موجة تخطت البحر إلى ظهر السفينة، ولم تعد إلا بهم. وفي اليوم الثاني عشر من هذا التيه، خفت الوطأة، فلاحظ الرئيس أننا في الخط الحادي عشر من خطوط العرض الشمالية، وعند الخط الثاني والعشرين من خطوط الطول غربى رأس سان أو جَسْتِينُون. وعلى ذلك كنا على شاطئ غيانا أو الجزء الشمالى من البرازيل، بعيدا عن نهر الأمازون جهة النهر العظيم أورينوقو. وقد كان رأى الرئيس أن يذهب إلى شاطئ البرازيل، لأن السفينة لم تعد قادرة على العمل، ولاكنى كنت على خلاف معه فى رأى، لأننا بعد أن نظرنا إلى شاطئ

(١) الضغث قبضة خشيش مختلطة الرطب باليابس. وفي الأساس ضربه بضغث بقبضة من قضبان صغار أو خشيش بعضه في بعض (٢) الإبالة والابالة الحزمة الكبيرة من الخطب. وفي المثل ضغث على إبالة أى بلية على بلية

$$\begin{array}{r} 70 \\ 50 \\ 12 \end{array} \left\{ \begin{array}{r} 58 \\ 18 \end{array} \right.$$



الحرب

أمريكا، وجدنا أن هذا الجزء غير صالح لنا خلوه من السكان. ولذلك
انفقنا على الذهاب إلى جزائر باربادوس، ورجونا أن نتعم ذلك في خمسة
عشر يوماً إذا تجنبنا تيار خليج مكسيكو. ولم يكن من الممكن
الذهاب إلى إفريقية بدون إصلاح السفينة ومساعدة لنا. ولذلك غيرنا
اتجاهنا، وسرنا إلى الشمال الغربي راجين مقابلة بعض الجزر الأنجلزية
لننقذ مما نحن فيه. وما كدنا نأخذ هذا الاتجاه حتى أخذتنا ريح في
يوم عاصف ووقفت بنا خارج طريقنا وطريق كل إنسان يركب البحر
فعلما أننا إن نجونا من هول الماء، فلن ننجو من خطر المتوحشين الذين
يأكلون لحم الإنسان.

وفي هذه الشدة كانت الريح لاتزال تحتدم، وفي صبيحة يوم خرج
أحد البحارة وصاح قائلاً « الأرض » وما كدنا نسمع صيحته حتى
خرجنا مسرعين، لرى بأنفسنا في أي جزء من الأرض نحن. وفي هذه
الضجة راعنا صوت أهاج كامن أحزاننا، وأنه لصوت السفينة وقد
مسّت الرمال، فوقفت حركتها، وأسرع إليها البحر بأمواجه يغالبها
وتغالبه حتى ظننا أننا سنهلك قبل أن يرتد إلينا طرفنا. وفي وقت قصير
رجعنا إلى محالنا لئلا نمنعنا من زبد^(١) البحر ورغائه^(٢) والماء الذي كان يهددنا
بأن نكون في جوفه مقبورين.

وليس من السهل لرجل لم يجرب هذه الحوادث، ولم يوجد في لجتها
أن يصف ما يشعر به مثل هؤلاء البحارة التعمسين. إننا لم نعرف المكان
الذي وصلنا إليه أجزيرة هو أم قارة؟ أم سكون أم خلو من السكان؟ ولما

(١) الزبد: ما يعلو الماء وغيره من الرغوة (٢) الرغاء: الصوت

كانت الريح لا تزال شديدة - وإن كانت خفت من حدتها قليلا - كنا ننتظر تمزيق سفينتنا من وقت لآخر إلا إذا تغير اتجاهها ، وهذه معجزة لم تكن منتظرة . وعلى ذلك جلسنا مكتئين مترقبين الموت في كل لحظة . وكل يعد نفسه للحياة الأخرى ؟ لأن هذه الحياة أوشكت أن تنقطع بها الأسباب . وراحتنا الوحيدة في هذه الحال كانت سلامة السفينة : وإن كان ذلك خلاف ما كنا ننتظر . وقد أخبرنا الرئيس أن الريح اخذت في الذهاب ومبتدئة شدتها أن تزول .



ومع علمنا بأن الريح خفت لم نكن نحمل **بإخلاص** سفينتنا لأنها ساخت ^(١) في الرمل لدرجة لا تمكن معها من بجاتها . ولذلك لم يكن ههنا إلا خلاصنا إذا كان ذلك في وسع إنسان . لقد كان بسفينتنا قاربان أما أحدهما فهشم وسقط في البحر ، وأما الآخر فكان موجودا ، ولكن كيف يحمل إلى الماء ؟ لم يكن هناك وقت للمناظرة ، لأننا كنا ننتظر غرق السفينة في كل لحظة وقد حضر إلينا بعض الرجال وأخبرنا بأنها ابتدأت في التكرس . وفي هذا الوقت الممتلئ بالأكدار ثم البحارة فرموا بالقارب إلى البحر ، وبأنفسهم فيه فكنا أحد عشر رجلا بين رحمة الله ، والبحر الهائج المضطرب ، لأن الريح وإن كانت قد خفت . فلا أمواج كانت تعلو الشاطئ فتخفي أثره . ولما احتوى علينا القارب أيقنا بالهلاك لأن الأمواج كانت تعيث به حتى كادت تحطمه تحطما ، كأنها تطاب عنه ثارا . ولم يكن معنا ما يمكننا من عمل شراع ، ولو تيسر لنا ذلك .

(١) ساخت القدم في الرمل تسيخ سَيْخًا وَسَيْخَانًا بمعنى ناخت أي خاضت

لكن بلا فائدة . ولهذا عوانا على التجديف نحو الشاطىء بقلوب أثقلها
الأحزان . فكنا كمن يسعى لحتفه بظلفه ، لأن القارب عند قربهِ من
الشاطىء سيتفكك إلى عناصره لفعل الماء فيه ضد الرمال والصخور
الشاطئية ، ولكن ما الحيلة وقد ضاقت في وجوهنا سبل النجاة ، ولم
يبق إلا هذا الطريق إن صح أنه مؤد إليها . ولذلك شد الرجال من
عزائمهم ، وأسرعوا بمجازيفهم نحو الشاطىء ، ولم يدعوا قوة تقريبهم من
غرضهم إلا أظهروها .

ولم نعلم شيئا عن الشاطىء مع هذا النصب كله . أرمليا كان أم
صخريا ؟ أعيقا كان أم مرتفعا ؟ ورجاؤنا الذى لم نكن نملك غيره أن
نأتى إلى خليج أو فم نهر لناخذ قاربنا فيه ، أو نأتى إلى جانب آمن
من الريح فنجد مساكن سهلا ، ولكن لم نر شيئا من كل هذه الأمانى ،
فقد ظهرت لنا الأرض بشكل أخف منه البحر المضطرب الذى نود أن
نفر منه .

وبعد أن سرنا كذلك غلوة ونصفا على التقريب رأينا موجة كالجبال
تقفو إثرنا ، وتخبرنا بأجل بياض أن خذوا أهبتكم للرحيل ، وفي غضبها الذى
لا يطاق لعبت بالقارب فقلبتهُ ، وفي أقل من لمح البصر كنا فى جوف
اللجة التى لم تدع لنا وقتا يكفى للاستغاثة برب العالمين ، وقد باعدت بيننا
وبين القارب كما بعدت عنا سفينتنا الكبرى التى وصلنا هنا عليها .

وليس فى مقدور أى إنسان أن يصف الاضطراب العقلى الذى
اعترانى حين كنت تحت الماء ، وإني وإن كنت قادر على السباحة ، فقد

عجزت عن تخليص نفسى من اللجة ، لأستنشق الهواء ، فدفعت بي
الأمواج حيال الشاطىء ، فلما عادت من حيث أنت وجدتنى على
أرض لاماء بها ، عيلا من الماء الذى ابتلعتة قهرا . وقد تركت لى المقادير
قوة جسمية وعقاية تكفى لأن أقوم وأسرع إلى الشاطىء مهرولا ، خوفا
من أن تأتى لجة أخرى فتلحقنى ، وتحملنى عليها كما فعلت الأولى ، ولـكنى
وجدت تجنب ذلك خارجا عن طوق الإنسان ، لأنى رأيت الأمواج
تتجمع مرة أخرى كأنها الجبال الشاخنة ، وتسرع نحوى كأنها عدو ليس
عندى ما يساعدنى على الوقوف أمامه . وإن ماعقدت النية عليه الآن
هو أن أحافظ على تنفسى وأطرح نفسى على الأمواج إذا قدرت ، لأسبح
نحو الشاطىء بقدر ما ييسرنى . واجتهدت أن أحافظ على الدنو منه عند
انسلاخ الأمواج . خوفا من أن تأخذنى معها إذا رجعت إلى البحر .

ولما عادت الأمواج ثانية إلى مكانى ، وجدتنى مغطى بها ، دفيناً
فى جوفها ، وكنت أشعر أنى محمول بسرعة عظيمة نحو الشاطىء . وقد
ساعدت الماء فى قذفى فسبحت بكل قواى مع عدم التنفس ، فكادت
أحشائى تتقطع ، ولكنى صبرت فجيزت بأن قذفتنى اللجة على ظهرها ،
فتشجعت وتمتعت بأمل جديد . وما كدت أشعر باللذة حتى غمرتنى المياه
ثانية ، وإن لم تطل مدة هذه كالأولى . وبعد لأى وجدت الماء يتراجع
إلى البحر ، فطرحت نفسى نحو الشاطىء ضده . وما هى إلا لحظة حتى
كان جسمى قائماً على قدمى فى مكان لا ماء به ، وكذلك بقيت مدة تكفى
لاسترجاع قواى ، فاتم ذلك حتى هرولت نحو الشاطىء ، ولكن ما كان ذلك
لينجبنى من هول البحر الذى تجمع موجه مرة أخرى وأدركنى . وكذلك

فعل مرتين آخرين ، لأن الشاطئ كان مستويا لا ارتفاع به . ولقد كادت اللجة الأخيرة تكون القاضية على ، لأنها دفعتني إلى صخور شاطئية تركتني فاقد الأحساس ، عاجزاً عن مساعدة نفسي ، لأن الصخور صدمتني في جنبي وصدرى حتى صرت كمن لا حياة به . ولو أدركتني الأمواج على هذه الحال لدفعتني القهقري ، ولذهبت أتعاني أدراج الرياح ، ولكنني أفقت قبل عودة اللجة . وعقدت النية على الدفاع والمناضلة ، فلما غمرني وجدني قابضاً على قطعة من الصخور ، فلم تقدر على فك هذا الاتصال . وبعد ذلك كانت اللجج أقل قوة فلم تؤثر في كثير . وبعد شوط وصلت إلى الشاطئ الصخري ، وجالست على الحشائش بعيداً عن الخطر

وابتدأت أفكر في شكر الله عز وجل على نجاتي من ذلك الخطر العظيم ، الذي لم يكن لي أمل في النجاة منه ، وإنني مهما أعطيت من قوة البيان لعاجز عن تصور الجبور الذي يشمر به المرء حين خلاص حياته من خطر يعتقد أنه لا مفر من الهلاك به . ولا عجب أن يؤتى المجرم المحكوم عليه بالموت شنقاً - وقد هيئ للموت ولقت حول عنقه آلة الأهلاك - بجراح يفصده (١) ، في نفس اللحظة التي يُخبر فيها ذلك الخبر السار ، وهو تأجيل ذلك الحكم . لأن الأفراح المفاجئة كالأحزان تدهش (٢) وتضر في أول أمرها

(١) فصدم المريض شق عرقه

(٢) دَهَشَ يَدْهَشُ وَدُهَشَ بِالْبِنَاءِ الْمَفْعُولُ : تَحْيِيرٌ وَقِيلَ ذَهَبَ عَقْلُهُ مِنْ ذَهُولٍ أَوْ وَكَلَهُ فَهُوَ دَرِهَشٌ وَمَدْهُوشٌ . وَأَدْهَشَهُ جَعَلَهُ مَدْهُوشاً

وقد وجدته أسير على الشاطئ رافعا يدي ، مفكراً في رفقتي الذين غرقوا ولم ينج منهم أحد ، لأنني لم أرهم ولا شيئاً يدل عليهم ، غير ثلاث قبعات ^(١) وفلسة سودة ^(٢) وحذاءين . وإني بعد أن هنأت نفسي على الخلاص من هذا الموت ، وما منحتها من النجاة ، ابتدأت أنظر حولي لأعرف حقيقة المكان الذي كنت به ، وما يلزم مني عمله ، فقل سروري ، وعلمت أنني نجوت من الموت لأقع فيه ، لأن ثيابي كانت مبتلة ، وليس عندي ما أرتديه ، ولم يكن معي مأكل ولا مشرب ، ولم أروسيلة أمامي توصلني إلى مأربي ، فأيقنت أنني لا محالة هالك ، إن لم يكن من الجوع فمن الحيوان المفترس الذي يسكن تلك الأرض . وقد كان من المؤلم أن أكون بلا سلاح أصيد به ما أقتات ، أو أدفع به شر حيوان يريد اقتراسي ، ليدفع عن نفسه غائلة الجوع ، فقد كنت خيلوا من كل شيء ، غير سكين ، وقليل من التبغ ^(٣) ، وييب ^(٤) له ، ولذلك ظلمت أجرة على الشاطئ كأن بي مسامن الجنون ، ولسكني عدت إلى رشدي ، فعلمت أن الليل سيهجم بخيله ورجله ^(٥) ، وأن لا بد من التفكير في مبيته ، خوفاً على حياتي من حيوان تلك الجهة الذي يختبئ نهاراً ، ويظهر ليلاً ، ليهرب عن فريسة له ، وكل ما وصلت إليه في هذا الصدد هو أن أنساق شجرة شوكية كانت قريبة مني لتقيني غائلة السباع تلك الليلة التي يجب

(١) برانيط (٢) مانسميه طائفة (٣) التبغ معرب نبات يجفف ويتعاطى دخاناً ومضغاً وسعوطاً وهو المسمى عندنا بالسخان

(٤) ييب التبغ مدخنه الذي ينخن فيه (٥) الرجل جمع راجل وهو من ليس له ظهر يركبه

أن أفكر خلالها أى مِيتة أحب أن أموت ؟ لأنى لم أرأمانى منفذا أو
بريقا من الأمل يقودنى للحياة . وقد تركت الشاطئ إلى الداخل
لأبحث عن ماء عذب ، وما سرت إلا قليلا حتى وجدته فاغترفت منه
بيدى ، ثم وضعت فى فمى بعض التبغ ليمنع الجوع عني ، وسرت نحو الشجرة
بعد أن قطعت غصنا جعلته سلاحى ، ثم علونها وأخذت مكانا يمنعنى من
السقوط إذا نمت . وما وضعت جنبى حتى نمت نوما عميقا ، لأن
التعب أضنانى ، وبعد أن أفقت فى الصباح ، وجدتنى مستريحاً قد زال
عنى العناء .

الفصل الخامس

انقطاع روبنسن كروسو فى جزيرة مقفرة

وكانت الشمس حينئذ قد ارتفعت ، والجو صافيا ، والريح خفت
شدتها ، والبحر أقل اضطرابا . وقد دهشت حين رأيت السفينة سحلت
على الأمواج ليلا حتى استقرت بقرب الصخور التى تعلقت بها أثناء
فرارى من اللجج ، تلك الصخور التى صدمتنى فأحدثت جراحا فى جسدى ،
وهى على بعد ميل من الشاطئ . وقد وجدت عندى الرغبة فى الوصول
إلى السفينة لأحصل منها على بعض ما يازمنى

ولما تركت الشجرة نظرت فإذا بالقارب الذى كنا فيه قد دفعته
المياه إلى الشاطئ وكان على قيد ميلين عن يمينى ، فأسرعت نحوه ، ولكنى
وجدت خليجا من الماء ، يبلغ عرضه نصف ميل ، بينى وبينه ، فتركته
إلى وقت آخر ، وعدت لأصل السفينة عانى أجدا ما أتبلغ به . وبعد

قليل من زوال الشمس وجدت البحر هادئا ، والأأمواج خارت قواها ،
وتراجعت إلى الخلف حتى كان في قدرتي أن أكون من السفينة على بمدرج
ميل ، وحينئذ اعتراني الهم والحزن ، وندمت على تركنا السفينة ، لأننا
لولا زمنها لنجونا كلنا . وما صرت وحيدا لأنيس لي غير وحشي وقد
هاجت هذه الذكري عبراتي ، ولكن ماذا تجدي العبرات ، وقد سبق
السيف العذل ؟ عرفت أن الوقت ليس فيه متسع لمثل هذا ، ولذلك
شرعت في مباشرة أعمالي ، نخلت ثيابي ، لأن حرارة الجو كانت عظيمة ،
وعقدت النية على الوصول إلى السفينة . وبينما كنت أسبح في اللجة ،
والأطم الأمواج إذ وجدت مهمتي شاقة ، لأن السفينة كانت على
اليأس ، وجوانبها مرتفعة ، وليس هناك ما يساعد على تساقها ، ولكنني
علمت أن اليأس مجلبة الردى ، فطفت حول السفينة مرتين رجاء العثور
على مساعد ، وفي الثانية رأيت مرسا^(١) متديلا على مقدمها ، فعميت
من عدم رؤيته أول مرة ، ثم دنوت منه وبعد جهد تعلقت به ، وتسلفت
حتى وصلت مقدم الجارية ، فوجدته مائلا يكاد يفرقه الماء ، أما مؤخرها
فكان عاليا ، وعلى تلك الصورة كان مرساها على الأرض ، فنجنا بذلك
معظم متاعنا من الهلاك ، ولم يصبه الماء بأذى . فخدمت الله ، ثم يمت
حجرة الخبز ، فلأت جيوبني منه ، وطفقت آكل وأنا أجوب حجراتها
باحثا منقبا ، فعثرت في الحجرة الكبرى على بعض الشراب ، فتناولت كأسا
ساعدني على أداء أعمالي بهمة ونشاط . وقد وجدت كل ما أحتاج إليه إلا
شيئا واحدا ، وهو قارب أحمل عليه ما أنا مضطر إليه . وقد علمت أن

(١) جبل البكر

الاسترسال إلى الأمان التي لا سبيل لتحقيقها يضيع الوقت سدى، وأن الحاجة
تفتق الحيلة، فعزمت على تكوين رَمَتْ^(١) من الخشب التي في السفينة،
فألقيت بالقطع في البحر مع حفظها بالأمراس، ثم تبعتها فربطتها بعضها إلى
بعض من أطرافها، وشددت الوثاق^(٢)، ورميت عليها قطعاً أخرى طولا
وعرضا حتى أصبح الرمت قويا، وبذلك أنمت عملا ربما كان من المتعذر
إتمامه في أحوال أخرى. وأول ماقت به بعد ذلك من الأعمال كان البحث
عن صناديق البحارة التي وجدت منها ثلاثة ففتحها، وأفرغت ما فيها، ثم
ألقيتها على الرمت، وملأت أحدها بالميرة، فوضعت فيه خبزا، وأرزاء،
وجبنا، وبعض قطع من لحم المعز المقدد الذي كنا نعيش به في كثير من
الأوقات، وشيئا من الحبوب الأوروپية التي جئ بها للديكة التي كانت
معنا ثم ذبحت. وكان بالسفينة شيء من الشعير والقمح، ولكن لنكد حظي
قد عثت بها الجردان، وكذلك عثرت على بعض زجاجات من الشراب.
وبينما أنا كذلك إذ بالماء قد علا وابتدأ تياره، ولكن كان هذه المرة هادئا.
وقد نظرت إلى معطفي وقيصى، وبقية الثياب التي تركتها على الرمل،
فوجدت الماء قد ذهب بها كل مذهب، فاشتد همي، لأنني لم ألبس
ساعةئذ غير سروالي القصير، وجوربي الذي سبجت به. وقد حملتني
هذه الحادثة على البحث عن ملابس فوجدت منها كثيرا، ولكنني
لم آخذ الآن إلا ما يكفيني، لأنني أردت أن أعمل ما هو أهم من ذلك

(١) خشب يضم بعضه إلى بعض في البحر ليحمل عليه (٢) الوثاق بالفتح
ويكسر ما يشد به من قيد ونحوه جمعه ووثق

كآلات النجارة التي تنفعني ، لأعمل بها على الشاطئ وأهني لنفسي ما يازمني . وقد كانت هذه الآلات أثنى عندي من سفينة ملأى بالذهب ، ولذلك حملت صندوقها بأكمله ، ووضعتها على الرمث

وبعد هذا اهتممت بالبحث عن الأسلحة النارية وذخيرتها ، فوجدت من البندق ^(١) أربعة ، ومن السيوف اثنين ، وثلاثة صناديق ملأى بالذخيرة ، غير أن الماء قد أفسد أحدها ، وكان الاثنان الآخران في حال جيدة ، فأجهدت نفسي ، ووضعتها على الرمث ، وشرعت أفكر في قيادته إلى الشاطئ ، لأنني تخفت أن الريح إذا هبت لا بد أن يذهب تعبي هباء منثوراً ، فخلو الرمث من الشراع والمجذاف والسكّان . وقد شجعتني على عملي ثلاثة عوامل ، أولها هدوء البحر ، وثانيها اتجاه التيار نحو الشاطئ ، وثالثها هبوب الرياح في ذلك الاتجاه . ومما حملته معي في الرمث بعض مجاذيف ، ومنشاران ، وفأس ، وقدم . وبهذا الحمل ابتدأت نحو الشاطئ . وقد كان السير جميلاً نحو ميل . إلا أنه انحرف عن الطريق بعد ذلك ، فكان في طريق غير التي قصدت . ولكنني وجدت تياراً من الماء رجوت أن يقودني إلى فم نهر أو خليج لأجعله ميناء يرسو عليه رمي . وقد أفلح ظني إذ رأيت فتحة في الأرض اشتد فيها تيار الماء . ولذلك هديت الرمث طريقه في وسطه بقدر ما قدرت عليه .

وبينا أنا كذلك إذ بالرمث قد اشتبك أحد طرفيه بالأرض حتى خيل لي أنه سيمغرق ، وبذلك يقضى على جميع أتعابني ، ففكرت في طريق

(١) البندق واحد بنديقة وهي هنا السبطانة وتسمى أيضاً الزبطانة . وهي قناة

جوفاء كالقصبه يرمى بها الطير بحصاة أو غيرها توضع في جوفها



وبهذا الحمل ابتدأت نحو الشاطئ

خلاصه ، فوضعت ظهري ضد الصناديق التي كانت على وشك السقوط في الماء ، ولكنني لم أقدر على تخليصه ، ولم أجروا لي مركباً ، فبقيت كذلك نصف ساعة حتى ارتفع الماء فاستوى الرمث عليه ، وبعد قليل زاد ارتفاع الماء فطفا الرمث وأرشدته إلى الطريق ، فوجدتني ثانية في وسط النهر ، واتجه فكري الآن نحو إيجاد محل صالح للرسو قريب من شاطئ البحر ، لأنني كنت أرجو أن أجده على مر الأيام سفينة تحملني ، وبعد بحث وجهد ما كنت أنشد ، فوجهت برمي نحو ، ولكن جهلي بطبيعة الأرض كاد يفقدني متاعى ، لأنها عند الشاطئ منحدرة ، فلا يمكن الرمث أن يكون فيها مستويا ، بل لابد من ارتفاع أحد طرفيه ، وانخفاض الآخر . ولذلك استعملت المجداف المنكسر كأبجر لحفظ الرمث في مكانه حتى يرتفع الماء ، وعند ارتفاعه أخذته إلى مكان مستو ، ووضعت مجدافاً في أحد طرفيه كرتد ، وآخر في الطرف الآخر . ولما علا الماء علوا كبيرا تركت الرمث فكان بعد قليل على الشاطئ ، وبذلك نجيت من كل خطر .

ولقد اهتممت بعدئذ بتعرف طبيعة الأرض التي كنت بها ، واختيار مكان صالح لأقامتي ، وحفظ مامعي من المتاع ، حتى لا يبيد بطاري من الطواري . وقد قادني المقادير إلى مكان لا علم لي به ، فلم أكن أدري أنه سكان أم ظلمته الطبيعية فجرده من الأنس ؟ أكنيت في خطر من الحيوان المفترس أم كنت بعيداً عن صولته ؟ أني جزيرة كنت أم في قارة ؟

وكنيت بالقرب من تل مرتفع نحو الشمال ، فعزمت على كشفه والتصعيد فيه^(١) ، لأنظر إلى ما حولى . وبعد أن تنكبت قطعة من

(١) يقال صعد في الجبل رقي

السلاح ، وتقلدت أخرى ، خرجت ميمما شطره . وبعد لآى ما علوته ، ونظرت يمنية ويسرة فانهلعت فابى اشدة مارات عيناي ، فأنى وجدنى بجزيرة محوطة بالماء من جميع جهاتها ، ، وليس بالقرب منها غير جزيرتين صغيرتين واقعيتين نحو الغرب .

وأعدت النظر فرأيت الجزيرة عارية من أثر الصنعة ، ولا بدلاً لسان بها . ودار بخلدى أن بها الضواري وإن لم أر منها شيئاً . وكان بها الدجاج بكثرة ، ولكنى لم أعرف نوعه ، وبعد ذبحه كان من المتعذر أن أعرف ما يصالح للأكل وما لا يصالح . وعند عودتى أطلقت النار على طائر كان على غصن شجرة فى حافة أجرة ، والله يعلم أن هذه الطائفة كانت أول طائفة فى هذه الجزيرة منذ أنشئت الدنيا ، وما كاد الصوت يظهر حتى ذعر الدجاج فى كل الأنحاء ، فخرج من مكانه يعدو ويصيح ، كل بنغمه الذى تعودده ، وكان جميع ذلك مخالفاً لما أعهدده من صياح الدجاج . وعند فحص الطائر الذى قتلتته ، وجدته بازيا وإن كان مخلبه عادياً ، وأسنت إذ كان لجمه لا يصالح شئ .

وإنى حمدت نتيجة هذا البحث ، ورجعت من حيث أتيت ، ففوجئت بمعضلة أدهى وأمر ، فقد هجم الليل ولم أدر كيف أقضيه ، لأنى خفت إن رقدت على الأرض أن يأتى صئار فيمزق جسمى إرباً^(١) إرباً ، وإن كنت علمت بعد ذلك أن هذا الخوف فى غير موطنه . وعلى ذلك اجتهدت فعملت كوخاً صغيراً من الصناديق ، وقطع الخشب التى أحضرتها إلى الشاطئ وقضيت ليلتى به . أما الطعام فلم أدر كيف أحصل عليه ، غير

أُني رأيت ثلاثة من الأرناب تجري وسط الطيور ^(١) حين اضطرابها بعد أن صوبت إليها نارى .

وقد ابتدأت أفكر في أنه يحسن بى أن أستخرج من السفينة كثيرا من الأشياء التى أراها عظيمة النفع ، وبخاصة ما فيها من الحبال والشرع ، وكل ما يمكن حمله إلى الشاطئ . ولذلك صحت عزيمتى على الرجوع إلى السفينة إذا أمكن ، لأتقاز ما بها ، لأننى تحققت أن أول عاصفة تهب ستمزقها وتبدد شملها . وقبل البدء فى مباشرة ما عولت عليه استشرت نفسى ، وفكرت فى أمرى ، وبعد إعمال الفكر تبين لى تعذر أخذ الزمّث فأهملته ، وذهبت إلى السفينة عند انخفاض المياه ، وسكون الأمواج ، كما فعلت أولا ، بعد أن تركت كوخى وخلعت ملابسى إلا قميصا وسروالا وخفا على قدمى . وبعد وصولى إلى السفينة صنعت رمنا كالأول . وقد أفادنى تجارى الأولى ، فلم أصنعه ثقيلًا ، ولم أثقله بالأحمال ، بل ملأته بالأشياء النافعة الخفيفة ، فقد وجدت فى حجرة النجار ثلاث حقائب ملاءى بالمسامير بأشكال مختلفة ، وعددا كبيرا من القووس ، ومسنا لشحذ الآلات ، فجمعت ذلك كله مع ما وجدت من الأسلحة النارية ، وصندوقين من الرصاص ، وثمانى سبّطانات ، ومقدارا من البارود ، وعيّبة ^(٢) ملاءى بالرصاص الصغير ، ورزمة من صفائح الرصاص ، ولكن هذه الصفائح كانت ثقيلة ، فلم أقدر على تحريكها لأدنىها من جانب السفينة . وجمعت مع هذه الأشياء كل ما وجدت من

(١) جمع طير وهو كل ذى جناح من الحيوان

(٢) ما يجعل الرجل فيه ثيابه وهو مانسميه «الشنطة»

ملابس الرجال، وشراعا غير مستعمل، وأرجوحة شبكية، وبعض أغطية للجسم عند النوم. وبهذا جميعه ملأت الرمت، وأوصلته إلى الشاطئ وأنا مغتبط بنتيجة عملي.

وكنت خلال غيبتى عن الشاطئ أيعتورنى الخوف على ما تركت هناك، ولكنى عند أوتى إليه لم أجد أثرا لأى طارئ، إلا قطعة وحشية كانت على أحد الصناديق، ولما قربت منها جرت غير بعيد ثم وقفت ساكنة غير مكترثة، وحدقت إلى النظر، كأنها تود أن تعرفنى، فوجهت بندقتى نحوها، ولكنها لم تعبأ بها، ولم تفهم مرادى، ولم تتحرك لتفر منى، فاستبدلت^(١) قطعة من الخبز بالبندقية، ثم رميتها نحوها، فتقدمت إليها وشمته، ثم أكلتها، ورنّت^(٢) إلى بعينها مسرورة شاكرة لطلب المزيد، ولكنى كنت عاجزا عن إسعافها بطلبتها، لأن ما عندى من الخبز كان قليلا، فتركنتى وذهبت لحالها.

الآن وقد نجحت فى حمل ما أحضرت إلى الشاطئ، فأنى ابتدأت فى عمل خيمة صغيرة لى من شرع السفينة، وما أعددت من قوائم الخشب. وقد أخذت إليها كل ما خفت عليه الفساد من المطرأو الشمس ووضعت الصناديق الخالية حول الخيمة. لأ حصنها من الهجوم الفجائى سواء كان من البشر أم من الضواري.

وبعد أن فرغت من هذا التشييد سدّدت باب الخيمة بقطع من الخشب، وبعض ما بقى من الصناديق، وألقيت سريرا على الأرض،

(١) أى أخذت القطعة بدل البندقية على حد قوله تعالى «أستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير» أى أتأخذونه بدله (٢) نظرت

روضعت بجانبه سبطاتين ، ثم ذهبت إليه ، وكان ذلك أول مرة ، ونمت
نوما هادئا طول الليل ، لأننى كنت مُتعباً منقلبا بالهموم ، لقلة نومى الليلة
الماضية ، وكثرة عملى طول النهار فى إحضار ما تحمل السفينة ، وحمله إلى
حيث كنت من الجزيرة .

وقد حصلت على أكبر مستودع يمكن أى إنسان وحده أن يجده
فى حوزته ، ولكننى وجدتني غير قانع به ، مادامت السفينة أمامى ،
وما دام فى مقدورى أن أحصل على أشياء أخرى . ولهذا جددت العزم
على أن أخرج من السفينة كل ما يمكننى حمله منها ، فذهبت إليها كل يوم
عند انخفاض الماء ورجعت بما تيسر لى مما فيها ، وبخاصة الحبال بكل أنواعها
والشرع التى أصبحت ممزقة قطعاً قطعاً .

ولقد أذهب عن نفسى الحزن ، وكان تسلية عظيمة لى ، ما وجدته
فى السفينة من خبز وشراب ، وسكر ودقيق نقى ، وآلات حديدية .
ولا تسل عن دهشتى عند ذلك . لأننى لم أكن أنتظر شيئاً من هذا كله .
وقد أفرغت صندوق الدقيق فى صرات متعددة ، وحماتها إلى الشاطئ
سالمية .

ولما ذهبت فى اليوم التالى إلى السفينة حدثت النفس بقطع أراسها ،
فشمرت عن ساعد الجد ، وقطعتها قطعاً يمكننى حملها ، ووضعها على
الرمث ، وبهذا الحمل الثقيل ابتدأت أسير نحو الشاطئ ، ولكن جدتى
ابتدأ يفارقنى هذه المرة ، لأننى ما كدت أقرب من الخليج الذى رسوت
عليه فى المرة السابقة ، حتى تعذر على قيادة الرمث بأحكام كما فعلت أولاً ،
لأن حمليه كان أثقل من قدرته ، فانقلب بى ، وبما عليه فى الماء . أما أنا فلم

يصلني ضرر، لقربني من الشاطئ. وأما المتاع فقد ضاع أكثره ولا سيما الآلات الحديدية التي لو نجحت في توصيلها إلى الشاطئ لقدمت لي نفعا عظيما، وصرت أراقب انخفاض المياه، وأنحسارها عما في جوفها، مما كنت محضرا إلى الشاطئ، فلما انحسرت سارعت إلى إنقاذ بعض الأشياء، فاستخلصت معظم الأمراس، وبعض الآلات الحديدية، ولكنني بذلت في سبيل ذلك جهدا كبيرا إذ كنت أغرص في الماء، وبعد هذا اليوم كنت أذهب ميأومة إلى السفينة، وأحمل منها ما أستطيع حمله وقد مضى على وأنا بالجزيرة ثلاثة عشر يوما ذهبت خلالها إلى السفينة أحد عشر يوما، وأخذت منها كل ما يمكن حمله بيدين اثنتين في تلك المدة. ولو استمرت المياه على حالها ولم تنثر، لحملت السفينة كلها قطعة قطعة إلى الشاطئ. وبينما كنت أعد نفسي للذهاب إليها في المرة الثانية عشرة، إذ الريح قد ابتدأت تهب وتشتد، ولسكني عند انخفاض الماء ذهبت إلى السفينة، وقد كنت أظن أنني لم أترك بها شيئا، غير أنني وجدت هذه المرة في حجرة منها خزانة فيها أدراج، وجدت بأحدها ثلاثة موايس^(١)، ومقصا، واثني عشر سكيننا^(٢)، وشوكة، وفي آخر عثرت على ستة وثلاثين جنيتها، وبعض قطع من العملة الأوروبية والبرازيلية، بعضها ذهب وبعضها فضة.

ولكنني عند رؤية النقود افترتغري، وقلت بأعلى صوتي «أية فائدة لي فيك أيتها النقود؟ إنك لا تنفعيني بشيء فلا تستحجني رفعك من الأرض.

(١) مفردة موسى (٢) السكين آلة معروفة تستعمل للذبح تذكر وتوث والغالب

إن سكيننا واحدًا من هذه السكاكين أنفع لي من هذه الكومة من الفقدين. (١)
ولا حاجة لي بك ، فابقي مكانك ، ولتذهبي إلى قاع القاموس ، غير
مأسوف عليك ، كمخلوق ليس في حياته ونجاته فائدة . »

وقد أعدت الفكر فيما كنت فيه ، فبدل إلى أخذ النقود ، فجعلتها
ووضعتها في صرة ، وأخذت أحدث نفسي بعمل رمث جديد . وبينما كنت
في هذه الأفكار وجدت السماء قد اكفهرت ، والريح قد اشتدت ، ولم
يمض ربع ساعة على ذلك حتى هبت العاصفة ، والريح الزعزع من ناحية
الشاطئ ، فأدركت أن لا فائدة من عمل رمث الآن ، والريح ليست
موافقة ، إذ كانت تهب من الشاطئ ، فأسرعت إلى ترك السفينة وأخذ
طريقي إلى الأرض الجافة ، لئلا يرتفع الماء وتغرق اللجج وصولي إليها ،
فطرح نفسي على الماء ، وسبحت فيه موليا وجهي شطر الشاطئ ،
وقد أحسست تعبًا في هذا اليوم ، لما كنت أحمل من الأشياء ، وخشونة
الماء واضطرابه ، لأن الريح هبت بسرعة ، وقبل أن يبلغ الماء أشده ،
وترفع اللجج ، ابتدأت العاصفة تشتد ، ولما كنت أحمى الله إذ وصلت
ركني عند أمتعتي وثروتي سالما من كل أذى . واستمرت الرياح الهوج
تعصف طول الليل بشدة عظيمة . وفي الصباح نظرت لأرى السفينة
فألفيتها قد غابت عن الأبصار ، وابتلعها اليم الذي أخنى عليها ، فوفقت مكاني ،
وقد عراني الدهشة ، واستولى على العجب ، بيد أنني أسرعت بالعودة إلى
نفسي ، وحمدت غيب عملي ، لأنني لم أدع فرصة سانحة إلا انتهزتها ، ولا

قوة إلا جمعها حتى حملت من السفينة كل ما قدرت ، ولو بقيت ما كان لي فيها مطمح بعد ذلك .

وقد غرقت السفينة وحطمتها اللجج ، فن الحزم ألا أفكر فيها ثانية ، ولا فيما حوت ، إلا إذا قذفت منها الأمواج إلى الشاطئ شيئاً ، على أنى وجدت بعد أن بقاياها التي بلغت الشاطئ كانت قليلة النفع لي الآن حصرت أفكاري جميعها في تحصين نفسي من المتوحشين إن ظهر لهم أثر ، ومن الضواري إن كان بهذه الجزيرة شيء منها . وكانت لدى طرق شتى لتنفيذ هذه الفكرة ، وأعمل مسكن أقي به نفسي ، أحفر مغارة أو كهفاً في باطن الأرض أم أشيد خيمة على ظاهرها ؟ ولا أطيل عليك فقد عزمت على تنفيذ الفكرتين ، حفر الكهف ، وبناء الخباء . وربما تجد لذة فيما أحيطك به خبراً من بيان الطريقة التي اتبعتها ، ووصف ما أتممت من الأعمال في هذا السبيل .

قد تبين لي أن هذا المكان الذي يجاور البحر لا يصلح للأقامة لأن أرضه كانت سبخة^(١) منخفضة . وملتأت يقينا بأنها غير صالحة ، وخالية من الماء العذب ، فعوات على البحث عن موضع آخر تتوافر فيه شروط الصحة ، وتطيب لي الأقامة به . وقبل البدء فكرت في أشياء لابد منها إن أمكن وجودها ، فأولا فكرت في الصحة والماء العذب ، وثانياً في مأوى من حرارة الشمس ، وثالثاً في وِزَر^(٢) من المخلوقات الضارة سواء أكانت

(١) سَبَخَتِ الأرض سَبَخًا كانت ذات سبخ أي ذات نَرٍّ ومِلح

(٢) الوِزَر : الملجأ

من البشر ، أو من العجماوات المؤذية ، ورابعا في أن أكون قريبا من البحر ليتيسر لى رؤية مابه حتى إذا قدر لى أن أرى سفينة فيه ، أعمل جهدى للنجاة ، لأننى مازلت أمل أن يمتد بى دهرى حتى أفوز بها وبيننا أنا غارق فى البحث ، وجدت سهلا صغيرا من الأرض بجانب أكمة مرتفعة . وكانت هذه الأكمة ممابلى السهل رأسية لا انحدار فيها ، كأنها حائط مبنى ، ولذلك أمنت من هذه الجهة شرا يأتينى . وكان بهذه الأكمة العالية تجاه السهل محل بال يترأى من بعد كأنه باب كهف ، ولا يمكن لم يكن هناك باب أو طريق إلى داخل الأكمة .

وعلى هذا السهل أمام المكان البالى فى الصخور عذمت على إنشاء خيمتى . وقد كان هذا البسيط ^(١) الأخضر من الأرض ، لا يتجاوز مائة خطوة عرضا ، ومائتين طولاً . وقد جعلت باب الخيمة نحوه ، وكان فى نهايته طرق غير منتظمة تقود إلى الأغوار ^(٢) والحقانى ^(٣) بجانب البحر وكان هذا السهل فى الشمال الغربى من التل ، ولذلك كنت فى مأمن من الحرارة كل يوم حتى تتحول الشمس نحو الغروب .

وقبل أن أقيم خيمتى رسمت نصف دائرة أمام المحل المتأكل فى الصخرة ، وجعلت نصف قطرها عشر خطوات تبتدىء من الصخرة ، وجميع قطرها عشرين خطوة من مبدئه إلى نهايته . وعلى محيط نصف هذه الدائرة أمت خطين من الأوتاد القوية ، فدققتهما فى الأرض حتى وجدتهما فى نهاية الصلابة ، وكانت نهاياتهما الظاهرة المديبة فوق سطح

(١) البسيط من الأرض : الواسع المستوى (٢) الأغوار جمع غور وهو المنحدر من الأرض ويقابله النجد (٣) الحقانى معاطف الأودية الواحدة مخشبية ومخشوة ومخشاة .

الأرض بخمس أقدام ونصف . وكان بين الوتد والذي يليه ستة قراريط
ثم عملت طنفاً^(١) للأوتاد من الداخل لتعطيها قوة ومناعة . وبذلك كانت
الدائرة محصنة تحصيناً شديداً يشق على الإنسان والحيوان الضارى أن
يعيث به . وقد أجهدتني هذا العمل ، وبخاصة قطع الأوتاد من الأشجار ،
ثم حملها إلى هذا المكان ، ثم تشذيبها حتى تصلح لهذا الغرض ، ثم دقها
في الأرض

ولم أجعل الدخول لهذا المحل الذي حصنته من باب ، بل بسلم قصير
من الخشب تعودت بعد الصعود عليه أن أرفعه من مكانه . وعلى ذلك
كنت محصناً تحصيناً يرد عني كل خطر . وأمكنني أن أنام ملء جفوني
غضون الليل . وقد علمت فيما بعد أنه لم يكن هناك محل لكل هذا
الاحتراس من العدو الذي توقعت منه الضرر

الفصل السادس

انتقال روبنسن كروسو إلى خيمته وما شعر به من الوحشة

وداخل هذا السياج^(٢) الذي أقمته ، والحصن الذي شيدته ، حملت كل
ما ملكت يداي من الميرة والذخيرة التي أخطأتك خبراً بها فيما مضى .
وقد أنشأت خيمتين إحداهما فوق الأخرى فكانت الكبيرة في الخارج
والصغيرة في الداخل ، ووضعت فوق الكبيرة الخارجية مشمعا كشيئا^(٣)

(١) الطنف : أفريز الحائط وما أشرف خارجاً من البناء (٢) الحائط

(٣) كسّف الشيء غلظ

أنقذته في جملة ما أنقذت من المتاع . وإنما اهتممت بالمحافظة على الخيمتين
لأن في نفسي شراً لمطار التي كانت تسقط بغزارة في جزء من السنة بتلك
الجهة ، ولأحفظ من أمتعني ما يخشى عليه من العبث . ولم أستعمل السرير
الذي أحضرته إلى الشاطئ بعد ذلك ، بل تعودت النوم في الأرجوحة^(١)
الشبكية التي كانت من النوع الجيد

وبعد أن فرغت مما وصفت ، ابتدأت أعمل في تمهيد طريق لي إلى
قمة الصخور العالية . وقد أحضرت إلى السياج الذي صنعته ما أخرجه
من الحجارة والثرى أثناء هذا العمل ، ورصفت فناء منزلي به ، فارتفع عما
جاوره نحو قدم ونصف ، وجوفت خلف الخيمة في المكان المتأكل من
الصخور شبه كهف كوتن حجرة صغيرة أفادتني فائدة جلي . فقد جعلتها
مخزناً لمنزلي . واستغرق هذا العمل عدة أيام قبل أن ينتهي كما أحب وأبغى
ومن الأشياء التي استرعت ناظري ، وشغلت خاطري ، ما سأقصه
عليك . فقد حدث بعد أن انتهيت من أعمالي السابقة أن أظلم الجو واسودت
السحب فجأة ، وعصفت الأمطار ، وأبرقت السماء وأرعدت . ولم أعجب
من البرق نفسه عجي من فكرة طرأت علي أسرع منه . وذلك أنني
تذكرت البارود الذي كان عندي وحينئذ اضطرب فؤادي وجزعت ،
لأن عاصفة كهذه قد تقضي على البارود بانفجاره . وبذلك ينسف
حصني ، ويضيع ما أعتمد عليه في طعامي . ولقد استولت هذه الفكرة
على لبي ، وحلت عندي المحل الأول فبادرت إثر انقضاء العاصفة ،

(١) الأرجوحة الشبكية على شكل فراش تعلق من نهايتها على أوتاد أو شجر.
ويستعملها الأوروبيون كثيراً للنوم عليها

وقد أهملت كل أعمالى ، وتركت البناء الذى كنت أعمله ، والتحصين الذى كنت أباشره ، إلى تجهيز صرات وصناديق صغيرة ، لتفريق البارود . آملا أن يكون فى أمكنة حريزة حتى لا يحترق أجمعه ، ولا يؤثر جزء يحترق فى آخر . وقد أنجزت هذا العمل فى أسبوعين ، وكان هذا البارود الذى لا يزيد على مائتين وأربعين رطلا موزعا على نحو مائة صرة . أما صندوق البارود الذى كان مقفلا ، فلم أتوقع منه أقل ضرر ، ولذلك وضعته فى الحجرة الخلفية التى حفرتها ، وكنت أسميها المطبخ . وأما مابقى من البارود ، فقد حفرت له فى الصخور أمكنة وضعته فيها ، بحيث لا يخشى على حفرة من الأخرى ، ثم علّمت بأحكام موضع كل حفرة كان فيها شئ منه .

وحين قيامى بتلك الأعمال ، كنت أخرج كل يوم مرة ومعى بندقتى لأسر نفسى ، ولأرى إذا كان فى قدرتى أن أصيد شيئا لغدائى ، ولأعرف ما تنبت الأرض التى أنا بها . وبينما كنت متجولا فى الجزيرة أول مرة ، رأيت معزاً ^(١) فامتلاّت نفسى سرورا ، ولكنى ما كدت أنسر حتى تحققت أن المعز شديدة الخوف والحذر ، سريعة العدو ، حتى كان من أصعب الأمور أن أقرب منها . بيد أنى لم أقطع الأمل من صيد ماعز ^(٢) من ذلك القطيع . وقد بحثت عن المكان الذى تجتمع فيه ، فوجدته صغيرا ، فوضعت خطتى ، وعلمت من أمر المعز ما يأتى ، وهو أنه إذا رأتنى فى

(١) المعز : خلاف الضأن من الغنم أى ذوات الشعر والأذنان القصار منها وهى اسم جنس لا واحد له من لفظه والواحدة شاة وهى مؤنثة (٢) الماعز واحد المعز للذكور والأنثى وقيل يقال للمذكر ماعز وللأنثى ماعزة

الوادي ، وكانت فوق الصخور ، فرت هاربة ، وولت خائفة . وإذا كانت
ترعى في الوادي ، وأنا فوق النجاد ، لم ترني . ولذلك أيقنت أن بصرها
كون ليتمجه نحو أسافل الأشياء لا أعاليها . وقد انتفعت بهذه المعرفة ،
فكنت أعالو الربى أولا ، فأصيب منها مقتلا . وأول رمية أطلقها أصابت
ماعزا ترضع جديها ^(١) فأحزنتني حالها كثيرا . ولما سقطت الماعز وقف
جديها بجانبها ساكنا ، حتى وصلت إليها ، وحملتها . وحينئذ تبعتني حتى
وصلت إلى حصني ، فوضعت الأم على الأرض ، وحملت الرضيع معي
داخل السياج مرجيا أن أدعه للتناسل ، ولكنه أبى أن يأكل فاضطربت
لذبحه وأكله . وافسد أغنتني الماعزة وجديها مدة طويلة ، لأنني كنت
أكل غير مبذر . وعلى ذلك اقتصدت فيما ادخرت من الميرة ، وبخاصة
الخبز الذي كنت شديد الحرص عليه .

ولما انتهيت من إعداد سكني ، ابتدأت أعد مكانا لأوقد فيه النار ،
ووقودا لأحرقه . وإني أشعر بوجوب إحاطة الناس علما بحالي وأفكاري
بالنسبة للحياة ، فقد جال بخاطري أنني لم أرم على هذه الجزيرة بهذه
العاصفة الشديدة ، بعيدا عن الطريق الذي كنا نقصده بمئات من
الأميال ، إلا لأن الإرادة الإلهية قد تعلقت بأيجادى بهذا المكان
الموحش ، لأقضى حياتي في شقاء وتعب . وكان الدمع يسيل مدرارا على
خدئي حين أفكر في شأني ، وقد كنت أسائل النفس وأحدها ، لماذا
توجدنا العناية الربانية ، ثم تشقينا ، وتدعنا خائري القوى لا نملك
لا أنفسنا نفعا ، ولا ضرا ؟ فقد كنت في حال يصعب على العاقل أن

(١) الجدي من أولاد المعز وهو الذكر في السنة الأولى والأثني عناق

يكون شاكرا عليها، ولكنى ماكدت أجد عندى هذه الأفكار حتى وجدت ما ينازعها. فقد كنت فى حال يسأل من مثلها العافية، ولكن أين بقية رفقتى؟ ألم نكن أحد عشر رجلا فى السفينة؟ أين العشرة؟ لماذا فقدوا ونجوت؟ أى الخالين خير أن أكون هنا أو هناك؟ وأشرت إلى البحر الذى ابتلع السفينة ورَكَّبَها ما عدانى، وحينئذ تذكرت أن كل شىء يصحبه خير وكل خير له جانب من الشر، وقد حمدت الله على ما أنا فيه، فقد زودت بما يكفينى، ولم أدر كيف تكون حالى إذا لم أحصل على كل ذلك المتاع من السفينة، وكنت مجردا من حاج^(١) الحياة. وماذا كنت أعمل لو تركت بلا بندقة ولا ذخيرة وبدون آلات لعمل ما أضطر إلى عمله؟ وكيف أكون بلا ملابس وفُرُش وخيمة؟ إني بمعونة الله حصلت على مقادير كبيرة من تلك الأشياء، ولكنى ابتدأت أفكر فى تدبير شئونى، وكيفية عيشى إذا انتهت الذخيرة، أو طرأ على حادث من مرض، أو فقد قوة، فعلمت أنى يمكننى العيش، ولوضاعت بنذقتى أو فقدت ذخيرتى، على أنى لم يخطر لى على فكر أن ذخيرتى قد تقضى بلفحة من عاصفة حين تبرق السحب.

وبعد أن أنعمت ما تقدم من الأعمال، ابتدأت حياة لا سرور فيها، حياة هادئة لم يعشها غيرى من الناس. وقد حسبت أول نزولى إلى هذه الجزيرة الموحشة، فوجدته يوافق الثلاثين من شهر سبتمبر، حين تكون الشمس فى الخريف. وبالملاحظة قررت أنى فى عرض ٣٢° ٩ شمالى خط الاستواء.

(١) الحاج جمع حاجة بخذف التاء

الفصل السابع

ما صادفه روبنسن كروسو من الصعوبات

لعدم وجود آلات في حوزته

وشعرت بعد عشرة أيام من وصولي إلى الجزيرة بأنني سأكون في جهل تام بالنسبة لمعرفة الأيام وحسابها ، لا احتياجي إلى الكتب والأقلام والخبر ، وخشيت أن يستبهم علي الأمر ، فلا أعرف الأيام المقدسة التي يستريح الناس فيها من العمل . ولأتجنب هذا جئت بقطعة عريضة من الخشب ، وحفرت عليها بسكين هذه الكلمات « قد وصلت إلى الشاطئ هنا في الثلاثين من شهر سبتمبر سنة تسع وخمسين وستمائة وألف » . ونصبتها بجانب الشاطئ في المكان الذي وطئته قدمي أول وصولي إلى الجزيرة . وعلى جوانب هذا المربع من الخشب كنت أحفر كل يوم ثلثاً^(١) وفي اليوم السابع أحفر ثلثاً أطول من البقية . وفي أول كل شهر كنت أحفر خطاً طويلاً كالخط السابع ، وبهذه الطريقة عملت لنفسي نتيجة زمنية أعرف بها أيام الأسبوع والشهر والسنة .

وعلى أن أحيطك خبراً بأنني أثناء رحلاتي التي قصدت السفينة فيها . لأخذ المتاع منها ، أحضرت أشياء لم أخبرك بها ، لأنها أقل أهمية من الأشياء السالفة الذكر ، وإن كانت نافعة ، وأخص بالذكر منها الأقلام والورق والخبر ، وأربع عاب في كل واحدة منها إبرة^(٢) مغناطيسية ، وبعض آلات رياضية ، وساعة^(٣) شمسية ، ومِرْقَبَا^(٤) ، ومجموعات من الرسوم ،

(١) حزاً (٢) وهي التي تدعى البوصلة (٣) وهي التي تدعى مزولة وهي آلة

للمنجمين يعرف بها زوال الشمس (٤) وهو الذي يدعى تيلسكوب

وكتبتا فنية في الملاحة . وكذلك وجدت ثلاث نسخ من الإنجيل كنت
أحضرها معي من إنجلترا ، وبعض كتب برتغالية ، وعدة كتب أخرى
ولا يفوتني وأنا أعدد لك الأشياء التي كانت معي أن أذكر الكلب
الذي كان معنا في السفينة ، وهرتين . وسأذكر لك شيئا من تاريخها في
المكان المناسب . وقد حملت الهرتين معي . أما الكلب فألقي بنفسه في اليم ،
وسبح إلى الشاطئ حتى وصل إلى في اليوم التالي لوصولي إلى الجزيرة
مع حملي الأول ، وقد كان خادما أميناً لي سنين عدة ، وقام لي بكل ما أمكنه
القيام به . ووددت لو قدر على النطق والكلام حتى يكلمني ، ولكن ذلك
لم يكن في طوقه

وقد استفدت فائدة جلياً من المداد الذي كان معي ، وحررت في
الطروس كل شيء أردت من تاريخ رحلتي ، ولكنني بعد أن نفذت الصحف
عجزت عن متابعة الكتابة ، وتقييد ما يخطر بخلدي . وقد أعجزتني الحيل
التي احتلت بها لايجاد مداد استعين به . والآ ن علمت أنه فضلاء عند
من الأدوات ، تعوزني أشياء لا بد لي منها ، كصافور^(١) ومجرفة ، لأحفر
الأرض ، وأنقل التراب حيث شئت ، وأبروخيطة . أما الكتان فعرفت
كيف أحصل عليه بلا تعب كبير . وهذا الفقر في الأدوات الأولية جعل
أعمالي في حاجة إلى وقت طويل ، ولا تتم إلا بجهد شديد . ولتعلم حقيقة
هذه الصعوبات ، أخبرك أنني لم أنته من عمل مسكني الذي وصفته فيما

(١) الصاقور : الفأس العظيمة التي لها رأس واحد دقيق تكسر به الحجارة

مضى قبل أن تمضى على سنة ، فقد استغرق قطع تلك الأوتاد الثقيلة من الغابات وتشذيبها زمناً طويلاً ، بله (١) حملها إلى السهل . فقد كان الوند يحتاج إلى يومين لقطعه ، وحمله إلى حيث أريد . وثالث لدقه في الأرض بقطعة ثقيلة من الخشب . وقد ألفت هذا العمل شاقاً متعباً لا راحة فيه ولا سرور . ولكن ما لي وللسرور ، وقد علمت أني لا أملك لنفسي عملاً آخر أحسن منه ، وأنا في هذه الحال التي يؤمن فيها الكافر ويرق فيها قلب الفاجر . إنه عمل أقضى فيه وقتي ولا يهمني متى ينتهي ، فليس لي بعده من عمل إلا ارتياد الجزيرة للبحث عن الطعام . وقد كنت أتردد خلالها وأتقيأ ظلالها كل يوم

والآن ابتدأت أفكر في أمري ، وأكتب وصف حالى ، لا لأنى فكرت فيمن يأتى بعدى للاطلاع عليه ، ومعرفة كنهه ، ولكن لأخفف عن نفسي ما أهمها ، وأدخل عليها السرور ، وأدفع الشر بالخير ، فملت أمامى حالى كما يأتى :

الخير

ولكنى لازلت حياً أرزق ؛ ولم تطف على الأمواج ؛ فلم تبتلغنى ، كما وقع لرفقتى فى السفينة

ولكنى أيضاً قطعت عن بحارة السفينة ونجوت من الغرق . والقوة التى نجتني منه بأعجوبة قادرة على تخلصي من هذه الشقة

الشر

قد طرحت على هذه الجزيرة المنقطعة عن العالم بلا رجاء فى النجاة

قد قطعت عن العالم وحيداً لا كون شقياً

(١) بله : اسم فعل بمعنى ترك وهذا اذا لم تنو أن تصف لما بعد هاولا كانت مغفولاً مطلقاً

الشر

صرت وحيداً لا أنيس لي من نوعي

ليس معي ملابس لأستر جسدي

اني غير محصن . وليس عندي ما يقيني
شر الأنسان والحيوان الضاري

ليس معي نفس واحدة تكلمني أو
تفرج عني همي

الخير

ولكني لست في قحط أعالج سكرات
الموت ؛ بل في مكان فيه ما يكفي لسد الرمق

ولكني في جو حار لو حصلت فيه على
ملابس لا أدري كيف ألبسها مع اشتداد
الحرارة

ولكني وجدت في جزيرة لاعلامه
فيها للحيوان الوحشي ، كتلك الأنواع
التي رأيتها على شاطئ أفريقية . وكيف
كانت حالي لو غرقت السفينة وطرحت
هناك ؟

ولكن الله جلت قدرته أرسل السفينة
حيث كانت بالقرب من الشاطئ ؛
فتمكنت من أخذ الأشياء الضرورية
التي تقوم بمطالبي ؛ أو تمكنتي من الحصول
عليها طول حياتي .

حقاً لقد كانت حالي آنس ما خلق ، ولكن كان فيها جانب من
الخير يحق لي أن أشكر الله عليه . وإني أكثر التفصيل في وصف معيشتي
ليعلم القوم أنها أسوأ الحالات ، فيحمدوا ربهم على ما رزقهم
وقد اطمأننت بعد ذلك لمعشتي ، وابتدأت أحيا حياة طيبة بقدر
ما تسمح به الحوادث . وكنت قبلاً أطيل النظر إلى البحر عائتي أجد به
سفينة تنقذني ، ولكني الآن قطعت الأمل . واليأس إحدى راحتين .

وشرعت أعمل في تحسين سكنى حتى أحفظه من المطر الذي كان شديداً
هناك في بعض أجزاء السنة

لقد أحضرت من السفينة ما أحضرت ، ووضعته داخل سكنى ،
والسكنى لاحظت أنه كان غير منظم في وضعه ، فشغل كل مكان داخل
استحكاماتي ، حتى لم أجد مكانا يكفي لتنقلي ، فعزمت على تكبير المحل
بتوسيع الكهف وهي الحجرة الخلفية ، ثم حفر الأرض لأضع فيها بعض
المتاع ، فيخلو سطح المكان قليلا . وقد كانت تلك الصخور رملية فكانت
لا تشق على

وبعد ذلك الحفر بنيت حائطا حول ذلك السور الذي أنشأته من
الأوتاد وكان سمكه ^(١) قدمين . ولما وجدتني آمنا من الحيوان الضاري ،
خلو الجزيرة منه ، حفرت بالصخور وراء حصني بابا المسكنى ، ليسهل
على الولوج منه داخلا واجتيازه خارجا . وقد استفدت منه زيادة على
ذلك ، اتساع المكان لأرتب متاعى فيه . وبعد فراغى من هذا العمل ،
فكرت في إعداد بعض الأشياء اللازمة التي كنت في أمس الحاجة إليها ،
ككائدة وكرسى ، لأنى وجدتني غير متمتع بالأكل ، والجلوس ، والكتابة .
وعلمت أن الإنسان بفكره يمكنه أن يصل إلى ما يريد ، وإن لم تكن له
سابقة خبرة به ، فأنى لم أمسك من قبل بيدي شيئا من آلات النجارة ،
ولكن الحاجة تفتق الحيلة . ولذلك عملت أشياء كثيرة على الرغم من قلة
الآلات المساعدة لى . وكنت إذا احتجت إلى لوح من الخشب أذهب إلى
الشجر فأقطع واحدة ، ثم أشذبها حتى تصير رفيعة بالقدر الذي أريده . حقا

كنت أخرج بهذه الطريقة لوحاً واحداً من الشجرة ، ولكنى لم أجِد
علاجاً لذلك . وكنت أبذل جهداً كبيراً ، واحتاج إلى زمن طويل قبل أن
أصل إلى غايى من استخراج ألواح من الأشجار . ولكن عملى ووقتى
كانا قليلى الفائدة . فصرّفتها فى شئ لا يمتاز عن صرفها فى شئ آخر . وقد
صنعت المائدة والكراسى من قطع الخشب التى أحضرتها معى من السفينة .
وبعد انتهائى منهما دققت فى حائط الكهف أوتاداً وضعت عليها الألواح
من الخشب ، عرضها قدم ونصف ، لتحمل بعض المتاع حتى يكون مرتباً
يسهل على معرفة موضع كل شئ منه . وفى حائط آخر دققت أوتاداً ،
لأعلق عليها ما يمكن تعليقه من الأدوات كالسبطانات وغيرها .

وإذا أتيت لك رؤية الكهف وجسده كخزن عام يجمع بين جوانبه
حاجيات الحياة . وقد كان ترتيبه وتنسيقه يبعث فى نفسى السرور والطرب .
وبخاصة جمعه لكثير من الأشياء التى كنت فى أشد الحاجة إليها .

الآن يحق لى أن أبتدىء فى عمل يوميات لأدون بها كل أمر مهم
أقوم به ، وإنما لم أفكر فى ذلك من قبل ، لأننى كنت مضطرب الفكر
منكبا على العمل لأضمن لنفسى راحتها أولاً ، ولأننى لو ابتدأت قبل ذلك
لكان فى مذكراتى كثير من الأشياء التى لا قيمة لها . وقد لا يجد فيها أحد
ذلك السرور الذى ينتظره فى حال مثل تلك التى كنت فيها . وربما كانت
مذكراتى لو ابتدأت قبل اليوم كما يأتى

« ٣٠ سبتمبر : بعد نجاتى من الغرق ، ووصولى إلى الشاطئ نسيت
أن أشكر الله على إنقاذى من التهاكة . ثم اعترانى غمّتان ^(١) شديد من

(١) غشت النفس غشياً وغشياناً خبثت واضطربت حتى تكاد تنقيا

الماء المِلْح الذى ابتلعتَه ، ووصل إلى إحشائي . وبعد أن نقهت منه جريرت على الشاطئ كالمحموم صار با إحدى اليدين على الأخرى ، لا طما وجهى . صافعا رأسى ، صار خا باللسقاء والوحدة ، با كيا من قرارة قلبى وُجُلْجُلان فؤداى ، حتى كَلَّت قواى ، وخارت مُنَنى ^١ ، فصعقت من هول الوهل صمعة موسى يومك الجبل ، فرأيتنى ملقى على الأرض ، مضطرا للراحة ، ولسكن كيف يهوى النوم عيني ، وأيت رِيَّان الجفون من السكرى ، وقد امتلأت خوفا من الوحوش الضارية أن تأتى فتفترسنى »

وبعد ذلك ببضعة أيام كنت ناظرا إلى البحر فرأيت من بعد شرعا فامتلات نفسى سرورا ، ومنيتها الخلاص مما أنا فيه ، فنظرت إليه حتى كدت لأرى من طول النظر . واختفى من أمامى ذلك البصيص من الأمل ، فارتميت على الأرض أبكى وانتحب ، وأندب حظى ، وأعجب لشقائى ، كطفل صغير . وبجهلى زدت أشجائى وأحزائى . وبعد لائى ما تغابيت على هواجسى ، واجتهدت أن أسر نفسى بامتعى المرتبة ، وكتابة يومياتى التى سأعطيك نموذجا منها فيما يأتى ، وأن تقدم بعضها مفرقا . ولقد واطبت على كتابتها مابق عندى مداد ، وعند فراغه لم أتمكن من الاستمرار فيها .

الفصل الثامن

يوميات روبنسن كروسو

٣٠ سبتمبر سنة ١٦٥٩ : - بعد أن غرقت سفينتنا في عرض البحار، وهلك كل رفيقي، نجوت وحدي نجاة أشبه الأشياء بالموت، وأفردت في هذه الجزيرة التي كنت أسميها جزيرة اليأس والقنوط. وكان همي ببقية ذلك اليوم أن أعود نفسي وأوقفها لتلك البيئة التي وجدت في حومتها لأنني لم يكن في حوزتي حينئذ طعام أقيم به صلي، ولا سكن أوى إليه ولا ملابس أكتسى بها، ولا سلاح أدافع به عن حوبائي^١، ولشدة يأسى لم أراممى غير موت فاغر فاه، فأما أن أمزق بأنياب الوحوش السكواسر، وإما أن ينقض على آكلو لحوم الأنس من الأنس، وإما أن أموت جوعاً. ولما ولي النهار مدبراً وجن الظلام، نمت على غصون الأشجار خوفاً من الحيوان نوماً عميقاً، وقد أمطرت السماء الليل كله. أول أكتوبر : - في الصباح رأيت عجباً. رأيت السفينة طافية على وجه الماء عند ارتفاع اللجج، والأمواج قريبة من الشاطئ الذي وصلت إليه أمس، فداخلى شئ من السرور، لأنني فكرت في الوصول إليها عند انحسار الماء عنها، لا آخذ منها كل ما أحتاج إليه، ولكنني جزعت لفقد صحتي، لأنهم لو بقوا في السفينة لا تقذوها أو نجا بعضهم بأنفسهم من الهلاك، وحينئذ ربما صحت عزيمتهم، فصنعوا قارباً من

(١) الحوباء : النفس

بقايا السفينة، يحملنا في البحر إلى جهة أخرى من العالم . وقد استرسلت في هذه الأفكار مدة طويلة حتى جنيت على نفسي باضطرابها ، ولكني لم أرفائدة من كل ذلك . ووجدت الماء قد انحسر عن السفينة ، فسرت إليها على الرمال ، ثم سبحت في الماء حتى علوتها . وفي هذا اليوم أمطرت السماء النهار كله ، ولكن الرياح لم تهب .

ومن أول أكتوبر إلى الرابع والعشرين منه كان عملي مقصورا على الذهاب إلى السفينة ، وحمل ما يمكن أخذه منها بالطريقة التي سبق لك وصفها . وكان المطر في هذه المدة كثيرا تتخلله فترات يصحو فيها الجو . ويظهر لي أن هذا الجزء من السنة هو فصل الأمطار

وفي العشرين من هذا الشهر انقلب الرمث ومعه ماعليه من الأمتعة ، ولكن الماء لم يكن عميقا . وكان معظم الأمتعة ثقيلًا فانتظرت انحسار الماء عنه ، وأنقذت ما أمكنني إنقاذه .

وفي الخامس والعشرين من أكتوبر أمطرت السماء ليل نهار ، واشتدت الرياح ، فتكسرت السفينة ، ولم يبق لها أثر إلا بقايا تلوح للنظر عند زوال الماء عنها . وقد اجتهدت في ذلك اليوم في حفظ أمتعتي ، وتغطيتها من الأمطار خشية أن تتلفها

وفي السادس والعشرين من أكتوبر ارتدت شاطئ الجزيرة لا تتقي عملا أقيم به ، . وأبني فيه سكنا ، وفي الأصيل اهتديت إلى سهل تحت صخرة ، فخططت عليه نصف دائرة عازمت على تشييد خيمة فيها ، وعولت على تقويتها بصفيين من الأوتاد القوية يجمعها من الداخل حبال شديدة ، ويحوطها من الخارج حائط من الطين .



سكنى بجانب الصخرة

ومن السادس والعشرين إلى الثلاثين من هذا الشهر بذلت كل قوتي
في حمل أمتعتي إلى منزلي الجديد ، وقد أمطرت السحب بغزارة خلال
تلك المدة في فترات متقطعة .

وفي الواحد والثلاثين من هذا الشهر خرجت مع بندقتي ، لا أكشف
الجزيرة ، وأبحث عن شيء أطعمه ، فرميت فقتلت ماعزا ، وحملتها ،
فتبعني جديها إلى مقرى ، وكنت أود أن أبقى عليه للتناسل ، ولكنه
أبى أن يأكل ، فجعلته طعاما لى .

وفي أول نوفمبر نصبت خيمتى تحت الصخور ، ونمت فيها ، وجعلتها
كبيرة بقدر ماسمح لى . ودققت أوتادا داخلها لأعاق عليها الأرجوحة
الشبكية التى استعملتها كسرير لى .

وفي الثانى من نوفمبر جمعت قطع الخشب التى استعملتها فى الأرمات
وعملت بها سياجا للخيمة . وفى الثالث من هذا الشهر خرجت مع سبطائى
واصططت طائرين يشبهان البط . وكان لهما لذىذا . وفى المساء ابتدأت
عمل مائدة لى .

وفي الرابع من هذا الشهر ابتدأت أفسم أوقاى بين العمل والنوم ،
واللهو ، واللعب . فى صباح كل يوم كنت أخرج وقت إصحاء السماء
متنكبأ ببندقى ساعتين أو ثلاث ساعات ، ثم أعمل بمجد إلى الساعة الحادية
عشرة ، ثم آكل ما عندى من الطعام ، ومن الساعة الثانية عشرة إلى
الثانية بعد الزوال أنام لأريح جسمى من وطأة الحرارة ، ثم أقوم للعمل
ثانية ، وقد ضاع أكثر عملى فى هذا اليوم والذى بعده فى صنع المائدة .

وفي الخامس من هذا الشهر خرجت من سياجى، وقتلت سنّورا^(١) وحشياً. أما لحمه فلا خير فيه، وأما جلده فقد كان ناعماً جميلاً، خفظته. وكانت تلك عادتى فى كل حيوان أقتله. وعند عودتى سرت بجانب البحر فرأيت كثيراً من الطيور المائية التى لم أقدر على تمييزها، ومعرفة حقيقتها. وبينما أنا ناظر إليها دهشت وارتعدت فرائضى لرؤية ثلاثة شرع فى اليم، وقبل معرفة ماهيتها، ولّت الأدبار كأن لم تكن.

وفي السادس من هذا الشهر فرغت من المائدة صباحاً. وكانت غير سالمة من العيوب، فتعلمت بعد قليل كيف أصاحبها، لأن الوقت والحاجة كفيلا بتعليم الإنسان وإرشاده.

وفي اليوم السابع ابتداء الجو يصفو وشرعت فى عمل كرسى لى فاستغرق عمله السابع والثامن، والتاسع والعاشر، وجزءاً من الثانى عشر. أما الحادى عشر فكان الأحد. وكنت أنقطع فيه عن العمل، لأنه يوم مقدس. ولا يفوتنى أن أخبرك أنى بعد قليل أهملت تقديس أيام الآحاد لأنى تركت وضع العلامة لها على لوح الخشب، فلم أعرف بعد ذلك الأحد من غيره.

وفي اليوم الثالث عشر أمطرت السماء، وقد صادف المطر هوى فى نفسى، لأنه أزاح عنى التعب، ولطف من حرارة الجو. ولكنه كان مصحوباً ببرق ورعد، فأشفقت على البارود أن ينفجر فيذهب هباء. ولما أمسك المطر عن الهطل شرعت فى تفريق البارود إلى مقادير صغيرة بعيد بعضها عن بعض حتى لا يخشى فقدها.

وفي الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ابتدأت في عمل صناديق صغيرة يسع الواحد منها رطلين أو ثلاثة أرطال من البارود. وبعد الفراغ منها وضعت فيها، وحفرت لها مواضع متعددة في الصخور. وفي خلال تلك الأيام الثلاثة اصطدت طائراً كبير الجنة يصلح لحمه للطعام، واسكني لم أعرف اسمه

وفي السابع عشر ابتدأت أحفر في الصخور خلف الخيمة، لأحصل على فراغ أستفيد منه. ولعمل هذا كنت في أشد الحاجات إلى فأس، ومجرفة، وعجلة يد صغيرة. ولكن أين لي بها في هذا الجزء الخيف الموحش من الدنيا.

وفي اليوم الثامن عشر حين كنت أفتش في الغابة وجدت شجرة من ذلك النوع الذي يسمونه في البرازيل الشجر الحديدي، لقوته وشدة صلابته. واجتهدت فقطعت منها فرعاً بفأسي التي كادت تتحطم من صلابته الخشب، وأحضرتة إلى كني^(١) بعد أن بلغ مني الجهد مبالغه، لأنه كان ثقيلاً جداً

ولما كان هذا الغصن شديد الصلابة، وليس عندي آلات لتشكيله كما أحب، أضعت زمناً طويلاً في عمله مجرفة. فكانت اليد مشكلة بالشكل الحقيقي، كما هي في إنجلترا، واسكن لم يكن في نهايتها حديد. ولذلك كانت حياة الجزء المستعرض من هذه المجرفة قابلة للفناء بسرعة. واسكني أحمد جدى فقد قامت لي هذه الآلة بما أردت منها.

(١) الكني: وقاء الشيء وسترته والبيت وجمعه أكنة وأكنان

وقد كنت في أشد الاحتياج إلى قَفْعَةٍ (١) ، وعجلة يد. أما القفعة، فكنت عاجزاً عن عملها ، لأنني لم أعر في الجزيرة على ما يصلح لجدها وتركيبها . وأما عجلة اليد فقد حرت في أمرها ، وأيقنت أن ليس في مقدرتي إتمامها ، وعلى هذا وجه أفكاري إلى ناحية أخرى فعملت قصعة من الخشب لحمل التراب الذي أحفره فيها . وكان عمل القصعة أخف من عمل المجرفة ، وقد استغرق إتمامها مع الجهد الذي بذلته في عمل عجلة اليد بلا نتيجة أربعة أيام كاملة ، إلا قليلا من الوقت الذي كنت أقضيه في الصباح مرتاداً الجزيرة .

وفي الثالث والعشرين بدأت عملي مجدا بقدر ما سمحت لي به قوتي ووقتي ، فاستغرقت ثمانية عشر يوما في توسيع الكهف وتكبيره ، حتى يتيسر لي وضع أمتعتي فيه بلا مشقة ، ثم استعماله كمطبخ ومطعم . وكانت إقامتي في الخيمة إلا وقت اشتداد الأمطار . فكان من المتعذر علي أن أحفظ نفسي منها . ولذلك وجدت من الحزم أن أعطي الخيمة بخشب يرتكز على الصخرة ، لأضع فوقه الأعلام وورق الأشجار الكبيرة . وفي اليوم العاشر من شهر ديسمبر حين ابتدأت أعتقد أنني انتهيت من إحكام الكهف ، سقط جزء من السقف فجأة ، فأخافني ، لأنه لو سقط فوقي لفارقت الحياة ، ولم تكن لي مندوحة عن تطهير المحل مما سقط فيه ، وإسناد السقف حتى لا يسقط مرة أخرى .

وفي الحادي عشر من هذا الشهر ابتدأت في تنفيذ النهج الذي وضعته ، فوضعت في داخل الكهف أعمدة من خشب عليها ألواح عريضة موضوع

(١) القفعة هي ما نسميه مقلنا

بعضها فوق بعض . وبذلك أمنت أن يحز السقف من فوق .
ومن السابع عشر من هذا الشهر إلى العشرين منه عملت الرُفوف ^(١) ،
ودققت الأوتاد ، لأعلق عليها كل ما يمكن تعليقه
وفي العشرين من هذا الشهر رتبت أمتعتي ، وأحييت أن أتم أثاث
منزلي ، فأحضرت ألواحاً من الخشب صنعت منها مائدة وضعت عليها
طعامي ، ثم عملت أخرى لاستعمالها عند الحاجة .

٢٤ ديسمبر : - مطر كثير مستمر ، ولذلك لم أغادر منزلي .

٢٥ ديسمبر : - مطر لا ينقطع .

٢٦ ديسمبر : - لا مطر . وكان الجو ساراً قليل الحرارة .

وفي السابع والعشرين من هذا الشهر رميت ماعزة فقتلتها ، وأصبت
أخرى في رجلها ثم حملتها إلى السهل . وعينت بأمر العرجاء حتى أبليت ،
وعادت إليها صحتها . وإنما بذات لها هذه العناية ، لأنني أردت أن تأنس
بي ، حتى إذا نفذ ما عندي من الذخيرة تناسلت وانتفعت بنتائجها .

وفي الثلاثة الأيام التالية اشتدت بي الحرارة ، وفقد النسيم ، ولم
أخرج خلال تلك المدة إلا في المساء ، لأبحث عن طعام لي . وكنت كلما
مكنت في المنزل أرتب أمتعتي وأنظفها .

وفي اليوم الأول من يناير كان الجو لا يزال حراً ، ولكنني خرجت
للقنص ^(٢) في أول النهار وآخره . واسترحمت فيما بين ذلك . وكنت ذات
مرة سائراً في الجزيرة مساء ، فتوغلت في داخلها ، فوجدت أودية يكثُر

(١) الرُفوف: جمع رَفٍّ وهو ما يشبه الطاق مما يوضع عليه طرائف البيت كالزُفْرِف

(٢) قَنَص الشيء يقتضيه قنصاً صاده

بها المعز ولكنها كانت ترتاع ^(١) لنَبْأَة ^(٢) ، ويصعب الوصول إليها .
ولذلك عزمتم أن أحضر الكلب ، ليصيد لي منها إن أمكن .

وفي الثاني من هذا الشهر خرجت ومعي كلبى ، فأطلقتها على
المعز ، ولسكنى أخطأت في تقديرى ، لأن المعز تجمعتم واتجهمت
للكلب ، وهجمت عليه ، فعرف الكلب الخطر جيدا ، ولذلك لم يجرؤ
على الدنو منها .

وفي الثالث من هذا الشهر ابتدأت في تحصين سكنى بعمل سياج
حوله ، وإقامة حائط قوى لأنى كنت خائفا من المهاجمة ، سواء أ كانت
من إنسان ، أم من حيوان . وقد وصفت لك هذا الحائط من قبل ،
ولذلك أهملت فى مذكراتى ما يتعلق بهذا الوصف . ويكفى أن تعرف
أن هذا العمل استغرق المدة التى تبدى بالثالث من يناير ، وتنتهى
بالرابع عشر من إبريل ، وقد اشتغلت فيها بجد فى البناء ، وإن كان الحائط
لا يزيد امتداده على أربع وعشرين خطوة . ولسكن المطر عافنى عن العمل
أياماً كثيرة ، ومع ذلك لم أهن ، ولم أضعف ، لأنى شعرت بأن حياتى
رهن إتمام هذا السياج . ولا يغيب عن الذهن ما كلفنى كل عمل من
تلك الأعمال . وخاصة قطع الأعمدة من الأشجار ، وحملها إلى السهل
مكان إقامتى ، ونصبها فى الأرض ، وإيغالها فيها ، ولما انتهيت من هذا
السياج ، وإقامة حائط من الطين حوله من الخارج ، ارتاحت نفسى ،
وعلمت أنه لو جاء أحد عند الشاطئ ، لا يمكنه أن يعرف أن هناك سكنا
وكان من حسن جدى أن فعلت ذلك كما سيتبين لك بعد من الحادث

(١) ارتاع يرتاع فزع (٢) النبأَة : الصوت الخفى

العجيب الذى وقع لى . وفى خلال هذه المدة كنت أجول فى الجزيرة
لأبحث عن طعام ، وأكشف ماخفى منها ، فاتفق لى أن رأيت نوعا
من الحمام الوحشى الذى لم يتخذ أوكاره فى الأشجار ، بل وكر فى
الأفاحيص^(١) من الأرض ، فأخذت عددا قليلا من فراخها لأربئها ،
ولسكنها لما كبرت طارت بعيدا عنى ، لقلة الطعام ، إذ لم أجد ما أقدمه
لها ، ولسكنى كنت أعثر على أوكارها كثيرا فى الصخور ، وأخذ الصغار
منها فأكلها . وكان لحمها شهييا لذيذا .

ولا يخفى عليك أن سكنى كان فى حاجة إلى كثير من الأشياء
الضرورية . واستحال على الاحتياى على شئ منها ، فركت التفكير فيها ،
ولسكن الشئ الذى شغل فكرى هو الحصول على مصباح أستضىء
به فى ظلمة الليل البهيم ، إذ كانت الشمس تحجب فى الأفق ، ويظلم الجو
حوالى الساعة السابعة ، فكنت مضطرا عندئذ للذهاب إلى فراشى .
ولو كان عندى شمع لأمكننى بسهولة عمل مصباح لى ، ولسكن الجزيرة
كانت خالية من النحل ، لأننى لم أر له أثرا فيها ، فكانت الطريقة الوحيدة
التي خطرت على فكرى أن أتخذ من شحم الماعزة التي قتلها مع ذبالة^(٢)
تصنع من نسالة^(٣) الحبال مصباحا لى ، واتخذت لذلك وعاء صنعته من

(١) الأفاحيص : جمع أخوص وهو كالمفحص بجم القطاة وهو الموضع الذى
تفحص التراب عنه أى تكشفه وتنحيه لتبييض فيه

(٢) الذبالة : - الفتيلة (٣) النسالة ما يسقط من الصوف والريش عند النسئل

الطين ، وحرقته في الشمس ، فكنت أحصل بذلك على نور ينفعني وإن لم يكن صافيا .

وبينما كنت أبحث وأرتب متاعى ، وجدت حقيبة تذكرت أنها كانت مملأة بالبئر الذي يقدم للطيور ، ولسكنى عند فخصها وجدت الجرذان أكلت اللب ، وتركت القشور ، وأصبح ما فيها عديم الجدوى ، فألقيت القشور والتراب منها خارج سكنى بجانب الصخور ، واستعملتها في صرّات لوضع البارود فيها ، وقد كان إلقائى لما في الحقيبة قبل هطل الأمطار بقاليل ، ولم أعر هذا الأمر شيئا من الأهمية . ولم أذكر بعد أنى ألقى شيئا في ذلك المحل ، وبعد مضي نحو شهر على ذلك وجدت نباتا قد ظهر هناك ، فذهبت لأعرف ما هو على أجد نباتا جديدا لا عهد لى به ، فكانت دهشتى عظيمة حين رأيته بعد ذلك ، وتحققت أنه نبات الشعير الذى ينبت في أرضنا بأنجلترا ورأيت نحو اثنتى عشرة سنبلة .

وإنى ليعجز قلبي عن وصف ما خالجنى من الدهشة لرؤية هذا النبات الذى لم يكن لى بدّ من إنباته وتعمده . فقد كنت أعتقد أن الجولا يصلح له ، ولذلك لم أفكر فيه قط . أما الآن وقد رأيت أمامى نباتا حسنا فعلمت أن الله أراد أن يكون طعاما لى في هذه الجزيرة جزيرة اليأس والقنوط وتحققت قول الشاعر

والله قسم بين الخلق رزقهم لم يخلق الله مخلوقا يضيّعه
وكان قلبي عند ذاك متوجها إلى الله الذى خلقنى ، وحاطنى برحمته
فسالت عبراتى لعامى أن الطبيعة . تأثرت لحالى ، فرأفت بى وحنّت على .

وقد كان عجبى أكثر حين رأيت بعد ذلك بجانب الصخور نباتاً رأيته من قبل فى إفريقيا . ولما خُصّصته وجدته أرزاً ، وكان اعتقادى حينئذ أن العناية الإلهية أرسلت لى هذين النباتين لا تتفع بشعرهما ، فعولت على البحث فى الجزيرة لعلى أجد شيئاً منهما فى محل آخر ، ولكنى بحثت فى كل مكان سرت فيه ، ونظرت فى كل زاوية مررت بها ، فلم أجد أثراً لئلك الحبوب فى الجزيرة . ولما اشتدت دهشتى تذكرت أنى ألقيت هناك البقايا التى وجدتها فى الحقيقة ، وأن ذلك النبات نتيجة لبعض الحبوب التى نجت من الجردان . ولا أخفى عليك ما خالج ضميرى حينئذ من الندم على الشكر الذى امتلأ به قلبى أولاً للعناية الإلهية ، إذ علمت الأسباب ومسبباتها . واسكنى جاحد نعمة ربى ، فإن شكره واجب فى السراء والضراء ، فأشكر له هذه اليد لأنه لفت نظرى حتى رأيت هذا النبات . أشكره لأنه حفظ النبات من الهلاك بالمؤثرات الجوية ، أشكره لأنه حفظه من الحشائش التى لم تطغ فتأكله ، أشكره لأنه دفعنى إلى إبقاء ما فى الحقيقة بجانب الصخور ، فكان ظلها يحمى النبات ويكلؤه

ولا يعزب عنك أنى حفظت تلك السنابل بعد أن تم نضجها وإيناعها فى آخر شهر يونيه ، حتى أزرعها مرة ثانية ، لأحصل منها على غذاء لى . وقد مضى على ذلك أربع سنين قبل أن أسمح لنفسى بقليل من هذه الحبوب ، وذلك لأن زرع السنة الأولى لم يعط شيئاً يستحق الذكر ، لأننى بذرت البذور قبل فصل الجفاف ، فلم ينبت شيء كما كنت أنتظر . ولا تنس الأرز الذى جمعته من النبات ، فقد حافظت عليه بحفاضة شديدة للغرض نفسه ، أعنى استعماله غذاء لى

وأعود إلى مذكراتي فأقول : إنني تحمات مصاعب حجة في تحصين سكني . وفي الرابع عشر من إبريل سددت كل مابه من المنافذ ، فلم أترك به بابا . وكان الدخول فيه والخروج منه بسلم حتى لا يكون هناك أقل علامة على وجود سكن

وفي السادس عشر انتهيت من صنع السلم ، وصعدت عليه إلى أعلى الخائط ، ثم رفعتنه بعد صعودي . وعلى ذلك كان سكني مقفلا من كل الجهات . وأمنت أي شريصاني من الخارج إلا إذا تسلق الحصن متسلق . وفي اليوم التالي لآتمام هذا العمل كدت أسلم الروح خالقها ، وكاد كل سكني يهلك دفعة واحدة . فقد كنت خلف خيمتي عند مدخل الكهف مشغلا بترتيب بعض الأشياء ، إذ رأيت التراب يتساقط من سقفه ، والأحجار تنكسر من الصخور . وانكسر عمودان من الأعمدة التي أقيمتها في الداخل ، فحدثت فرقة تحركت لها الأرض تحت قدمي ، وطار لها لبي شعاعا ^(١) ، ولم أفكر في سبب هذه الرجة ، غير أنه خطر لي أن أعلى الكهف سقط كما حصل أولا . وخفت على نفسي ، فأسرعت نحو السلم فعاوته إلى الخارج ، لئلا ينالني شيء من الأحجار الساقطة . ولكني لم أكد أضع قدمي على السهل حتى تأكدت أن الأرض قد زلزلت زلزالا شديداً ، فاهتزت ثلاث مرات في ثمان دقائق هزات عنيفة ، تكفي لهدم أمتن بناء على سطح الأرض مهما كان قويا . ورأيت صخرة على الرتبة لا تبعد عني بأكثر من نصف ميل قد سقطت ، فأحدثت رجة لم أسمع مثلهافي

حياتي . وانظرت إلى البحر فوجدته يرغى ويزبد ويضطرب اضطراباً خيلاً
إلى أنه أشد من هياج أرض الجزيرة

وقد كانت دمعتي عظيمة، لأنني لم أرفي حياتي، ولم أسمع شيئاً كهذا.
فكنت كمسرف على الموت من شدة الهول . وكادت أحشائي تتمزق من
قوة الألم، وشعرت بذلك الشعور الذي يشعر به ركاب البحر إذا تلاعبت
الرياح بسفنهم، ولم يكونوا معودين ركوب الجوارى . وكان سقوط
الصخور شديداً، فانتبهت من سكرتي التي كنت سابحاً فيها، ولم أفكر
إلا في سكوني، وما عساه أن يحل به إذا سقطت عليه التلال فألتفتته وكل
ما به . فاشتد حزني وهلمع فؤادي

وعقب الرجة الثالثة لم يحدث شيء، فأردت العودة إلى سكوني،
لأعرف كنهه حاله، ولسكني خفت إن ذهبت إليه أن يحل بي الدمار .
فجلست على الأرض في حال لا تسر أحداً، وأنا لا أدري ما الله صانع بي .
ولم يخالجنى اعتقاد ديني، ولا توجهه للقوة الربانية، غير أنني كنت أتلو
« اللهم ارحمني » وبعد انتهاء الزلزلة انقطعت عن تلاوة هذه الجملة . وأثناء
جلوسي أحسست أن الجو تلبد بالسحب وثقل، كأن السماء تستعد للأمطار .
وبعد هذا بقليل هبت الرياح ثم اشتدت، وفي أقل من نصف ساعة كانت
زَعَزَعاً^(١)، فعلا ماء البحر الزبد^(٢) والرغى^(٣)، وتغطي الشاطئ بقطرات
الماء، واقتلعت الأشجار من جذوعها . وقد استمرت هذه العاصفة ثلاث

(١) الريح الزَعَزَع والزَعَزَع كثيرة المبوب التي تزعزع الأشياء

(٢) الرغى بضم الراء وكسرهما جمع رغوثة مثلث الراء وهي ما يملأ الماء حين
اضطرابه من زبد أبيض

ساعات في آخرها أخذت في الهدوء . وبعد ساعتين من سكونها كانت السماء هادئة ، ولكنها ابتدأت بمطر مدرار كأنه كان يتساقط من أفواه القرب والميازيب ^(١)

وكنتم جالساً على الأرض أثناء هبوب الرياح وابتداء الأمطار ، وقد علمت من ذلك جميعه أن هذه العاصفة ، وذلك المطر نتيجة للزلازل ، وأن الرجة نفسها قد انتهت ، فعزمت على الوصول إلى سكنى . ولما توسطته جاست تحت الخيمة ، فكان المطر يسقط فوقها ، كأنه قدائف المدافع ، وخفت على الخيمة أن تحترق تحت أشدته ، فاضطرت إلى الالتجاء إلى الكهف ، وإن كانت مفاصلى ترتعد فرقا من سقوطه على أم رأسى . واضطرتنى شدة المطر وكثرته للتفكير فى أمرى ، فعزمت على حفر بالوعة ^(٢) لتصريف المياه لئلا تتجمع وتغرق الكهف وتفسد كل شئ . وبعد مكثى فى الكهف مدة لم تحصل أثناءها رجاءات أيقنت أن الزلازل انتهت ، فهذا روعى ^(٣) قليلاً ، واجتهدت فى أن أبعد عني فكرة الخطر وأشجع نفسى ، فشربت قليلاً من الشراب فساعدنى على ما أردت

وقد استمر المطر الليل كله ومعظم النهار ، ولذلك لم أخرج من مكمنى ، ولكنى ابتدأت أفكر فى أمرى ، فوجدت أن الجزيرة مهددة بالزلازل ، وأن عيشى تحت الصخرة قد يفضى على يومئذ ، وأن أحسن طريقة لى هى أن أبني لنفسى كوخاً فى وسط سهل بعيد عن الصخور ، ثم أحصنه بمثل ما حصنت سكنى الأول . ولذلك عزمت على نقل خيمتى

(١) الميزاب : القناة يجرى فيها الماء (٢) البالوعة والبلاعة والبلوعة ثقب تصرف

فيه المياه (٣) الرّوع بالفتح الغزع وبالضم القلب أو موضع الخفاقة منه

من مكانها الذي كان ينذر بالمخاوف ، وبحثت في اليومين التاليين - التاسع عشر والعشرين من شهر إبريل - عن محل يصلح لهذا الغرض ، ولاكن خوفاً من الموت - لو نقلت الخيمة إلى المكان الجديد ، ونمت فيها قبل إتمام السياج حولها - جعلني أفضل المكث فيها حيث كانت . وكنت كلما نظرت إلى ترتيب المتاع وإلى متانة التحصين أتردد في التحول من مكاني وفي الوقت نفسه تبين لي أن إتمام تلك الأعمال الجديدة ، يستلزم وقتاً طويلاً ، ففضلت البقاء حيث كنت حتى أفرغ من بناء الكوخ ، وإعداد ما يتطلبه ، ثم أنتقل إليه . وبهذا العزم هددت من اضطرابي ، وبدأت العمل بكل ما أوتيت من قوة وإسراع . وكانت خطتي في رسم سكني الجديد ، وبنائه ، وتحسينه ، كتملك التي اتبعتها في سابقه . وكان هذا في الحادى والعشرين من هذا الشهر

وفي الثاني والعشرين منه ابتدأت أفكر كيف أنفذ ما وطلدت العزم عليه مع قلة الآلات التي كانت عندي ، لأن الفؤوس والتدْمُ^١ التي كانت في حوزتي أصبحت واهية القوى ، لكثرة استعمالها في قطع الأشجار ، وإعدادها لأغراض شتى . ولم أقدر على استعمال المسنن ، لأنني لم أتمكن من إدارته ، فأجهدت فكري لأستخلص لي سبيلاً أسلكه ، وبذلت كل عناية في تقدير الأشياء ، وترجيح بعضها على بعض ، كما يفعل السياسي الخطير حين اشتغاله في حل معضلة ، أو القاضي حين يسعى لاستخلاص الحقيقة من الوقائع المشوهة ، تلك الحقيقة التي عليها يتوقف الموت أو الحياة لفرد من الأدميين . وقصارى القول أني اهتمت إلى إنشاء

(١) القدم جمع قديم آلة للنجر والنحت مؤنثة وتجمع أيضاً على قدام

هجلة يتصل بها حبل ، وقد ساعدتني على إدارة المشخذ . ولا أخفي عليك
في لم أر في حياتي من قبل تلك الآلة في إنجلترا ، ولم أعرف كيف
تكون ذلك التكوين . وقد استغرق إتمامها وإتقانها أسبوعا كاملا

وفي اليومين الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من هذا الشهر
كنت أشخذ الآلات التي اشتدت حاجتي إليها

وفي الثلاثين من هذا الشهر لاحظت أن ما عندي من الخبز قد نقص
فقصا مشاهدا فأقصت ما آكله كل يوم إلى أقل مقداري . لكن تعاطيه

الفصل التاسع

تابع يوميّات روبنسن كروسو

وفي اليوم الأول من شهر مايو وقت في الصباح ونظرت إلى
الشاطئ فوجدت الماء منجسرا عنه ، وأقيت فنطاسا^(١) وبعض قطع من
بقايا السفينة ، كان الأعصار^(٢) الأخير قذف بها إلى تلك الجهة ، ثم أقيت
نظرة على مُنكسر السفينة ، فوجدته أكثر ارتفاعا مما كان . وبجئت
عن الفنتاس الذي قذفت به المياه إلى الشاطئ ، فوجدته ممتلئا بارودا ،
ولسكنه كان قد تهشم في نقطة منه ، فدخله الماء الذي جمده مابه حتى صار
كالجمود ، فدحرجته على الشاطئ بعيدا عن مكانه ، وسرت نحو السفينة

(١) الفنتاس : سقاية للسفينة من الألواح يحمل فيها الماء العذب للشرب وقدح
يقسم به الماء العذب فيها (٢) الأعصار : ربيع ترتفع بين السماء والأرض وتستدير
كأنها عمود . وفي المثل « ان كنت ربحا فقد لاقيت أعصارا » وهو يضرب للمدل
بنفسه اذا صلي بنار من هو أدهى منه وأشد وجهه أعاصير وأعاصير

المهشمة لأرى ما بها . ولما وصلت إليها وجدت أنها قد تحركت من مكانها تحركا غريبا فقد كان عهدى بحيزومها ^(١) دفيناً في الرمال ، ولكنى أراه الآن قد ارتفع فوقها ست أقدام . وشاهدت مؤخرها محطما منفصلا بقوة الماء . وكانت الرمال مرتفعة بجانبها ، فكنت عند الجزر وانخفاض المياه أتمكن من السير على قدمي حتى أصل إليها ، وقبلت كنت أصبح لبلوغها مسافة لا تقل عن ربع ميل . وزالت دهشتي من هذا التغير لما علمت أنه ناتج من فعل الزلازل ، ولما تحطمت السفينة وظهر ما في داخلها كانت المياه والرياح تقذف بها نحو الشاطئ كل يوم .

وكانت هذه الحالة سببا في انقطاعي عن تنفيذ فكريتي الحديثة بشأن سكني الجديد . واشتغلت في هذا اليوم بما وهبني الله من قوة للوصول إلى السفينة ، ولكنى وجدت جوفها محشوا بالرمال فلم أتمكن من اختيار شيء فيها . ولما كنت قد تعودت ألا أئس من شيء مهما كان أمره عزمته أن أفك السفينة قطعة قطعة ، رجاء أن أنتفع يوما ما بما أملك منها :

وفي الثالث من شهر مايو ابتدأت العمل ، فقطعت بمنشاري سقيفة من سقائف ^(٢) السفينة في جزء معين ، ثم شرعت في إخلائه من الرمل ولكن المياه أخذت في العلو فاضطررت أن أعود كما أتيت .

وفي الرابع من هذا الشهر ذهبت لصيد السمك ، فلم أوفق لصيد شيء أطمئن إلى أكله ، فهممت بالعودة ، بيد أنني ما لبثت أن اصطدت

(١) حيزوم السفينة مقدمها

(٢) السقائف : ألواح السفينة مفردة سقيفة

درفينا . وكنت أحصل على السمك كثيراً ، وإن لم يكن عندى صِنَار
لصيده ، وكنت أجففه فى الشمس وآكله جافا .

وفى الخامس من هذا الشهر رجعت إلى السفينة ، وقطعت ثلاثة
ألواح كبيرة منها ، وربطتها معا وانتظرت ارتفاع الماء فدفعها إلى الشاطئ ،
وفى السادس من هذا الشهر عدت إلى السفينة ، وأحضرت كثيراً
من المزالج^(١) الحديدية ، وقطعا من الحديد . وقد أجهدت نفسى هذا اليوم
ففكرت فى عدم العودة .

وفى السابع رجعت ، ولكن لا لأعمل ، بل لأرى ، فرأيت ما كان
قبل من السفينة متجمعا قد تحطم وتفرق شذَرَ^(٢) مَذَرَ

وفى اليوم الثامن رجعت إلى بقايا السفينة ، وحملت معى إليها من
الأدوات ما يساعدى على تفكيك عراها ، وفصم اتحاد أجزائها . وبذلك
حصلت على لوحين من الخشب حملتهما إلى الشاطئ .

وفى اليوم التاسع عدت كعادتى فوجدت بعد البحث فى وسط تلك
السكومة بعض صناديق لم أتمكن من كسرها ، وعثرت يدى على لفائف
من الرصاص الأنجليزى كان يصعب على تحريكها .

وفى الأيام الآتية العاشر والحادى عشر والثانى عشر والرابع عشر
ذهبت وأخذت كثيراً من الخشب والألواح ولفائف الحديد .

(١) المزالج كالزلاج وهو المغلاق إلا أنه يفتح باليد والمغلاق لا يفتح إلا
بالمفتاح (٢) تفرقوا شذَرَ أى ذهبوا فى كل وجه وتبددوا وهما اسمان جعلتا اسما
واحداً وبنيى على الفتح كخمسة عشر ومحلها نصب على الحال

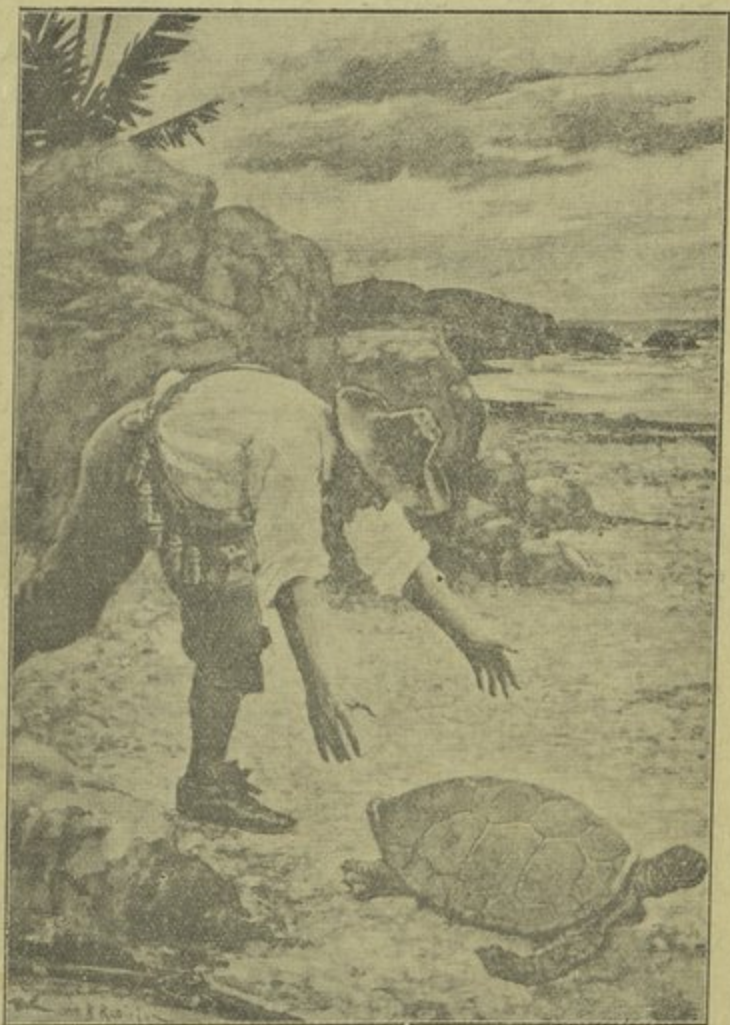
وفي الخامس عشر حملت قدومين لأجتهدي في قطع لوح من ذلك الحديد، فلم أنجح في هذا المسعى، لأن الماء كان يعاوه قدما ونصف قدم. ولذلك لم يكن العمل ميسورا.

وفي السادس عشر هبت الرياح بشدة آتاء الليل، وظهرت بقايا السفينة أكثر تحطيا بفعل المياه، وقضيت وقتا طويلا في الغابة باحثا عن حمام اطعامي حتى منعتني المد من العودة إلى مقر السفينة.

وفي السابع عشر من هذا الشهر رأيت قطعة من السفينة ملقاة على الشاطئ على بعد مياين من مكاني، فذهبت لأتحقق أمرها، فرأيتها قطعة من صدر السفينة، ولتقلها لم أقدر على أخذها،

ومن اليوم المتقدم إلى الرابع والعشرين كنت متفرغا للعمل فيما بقي من السفينة، ففككت كثيرا من أجزائها، ولما هبت الرياح حركت الصناديق من مكانها، وقذفت بها إلى الماء، ولكن التيار لم يكن متجها نحو الشاطئ، فلم يصل إليه في هذا اليوم غير قليل من قطع الخشب. ولم أنقطع عن الذهاب إلى السفينة حتى الخامس عشر من شهر يونيه، ولم أعمل شيئا آخر في خلال تلك المدة غير البحث عن طعام لي، فكنت أنتظر الوقت الذي تعوقني فيه المياه عن العمل فيها، فأبحث عن غذائي. وبعد مضي تلك المدة كنت قد أحضرت إلى الشاطئ خشبا وألواحا وحديدًا يكفي لعمل زورق، لو كنت أعرف كيف أصنعه. وكان فيما حصلت عليه كثير من لفائف الرصاص.

وبينما كنت ذاهبا إلى البحر في السادس عشر من هذا الشهر، وجدت ساحة عظيمة. وكانت هذه أول مرة رأيت فيها السلاحف بهذه الجزيرة.



وينا كسنت ذاهبا إلى البحر
وجدت ساحفة عظيمة

ولا يظن أحد أن الجزيرة كانت خلوا من السلاحف، أو كان عددها قليلا، فقد علمت بعد أنى لو ذهبت إلى الجانب الآخر من الجزيرة، لوجدت مئات منها كل يوم، ولكنى أحمد ربى على أن لم تسقنى قدمائى لذلك، كما سيوضح لك مما تراه مفصلا بعد.

وفى السابع عشر من هذا الشهر طهيت السلاحف، ووجدت فيها كثيرا من البيض الذى بلغ عدده نحو ستين بيضة. وكان لهما الذئب ذقته فى حياتى، وربما كان سبب ذلك أنى منذ وصلت إلى هذه الجزيرة لم آكل غير لحم المعز والطيور.

وفى الثامن عشر من هذا الشهر أمطرت السماء اليوم كله، فقبعت فى عقردارى، ولكنى شعرت أن الجو كان باردا، فاقشعر جسمى وارتعد مع أنى أعلم أن تلك البرودة لم تكن من خصائص هذا الجزء من الأرض

١٩ يونيه : - اشتد المرض وأصابتنى رعدة كأن الجو بارد

٢٠ : - لم أسترح طول الليل. اشتد ألم رأسى. أصبت بالحمى

٢١ : - كنت مريضا جدا. حل بى الخوف المزعج، لمرضى

فى هذه الحال بلا عون لى على الشدائد. صليت لربى،

وكانت هذه أول صلاة بعد عاصفة «هل». ولكنى لم

أدر ماذا قلت فيها؟ ولماذا كانت أفكارى مضطربة؟

٢٢ : - تحسنت قليلا، ولكنى متأثر متأثر شديدا بالمرض

٢٣ : - ساءت صحتى مرة ثانية. برد جسمى وارتعد،

وانتابتنى نوبة الصداع

٢٤ : - تحسنت كثيرا

٢٥ : - حتى شديدة دامت نوبتها سبع ساعات ، وكانت مصحوبة ببرودة وحرارة وإغماء ، وتصببت عرقا بعدها .
٢٦ يونيه : - تحسنت ولسكني لم أجسد ما آكله فأخذت بتدقي وخرجت شاعرا بضعف شديد ، لأبحث عن طعام ، فرميت ما عزا حملتها بعد جهد إلى مسكني ، وشويت بعض لحما ، وتغذيت منه ، ووددت لو طبختها واتخذت من مرقها حساء ^(١) ولسكن لاقدرة لي على ذلك .

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر يونيه رجعت الحمى بشدة ، فلازمت فراشي كل اليوم ، ولم أذق طعاما ولا شرابا . ولقد اشتد ظمئي حتى كدت أهلك ، ولسكن ضعفي حال دون قيامي ، وحصولي على الماء ، فدعوت ربي ثانية ، ولسكن لجهلي لم أدر ماذا أقول ؛ غير أنني أتذكر أنني كنت مضطجعا في فراشي أذكر الله بقولي « رحمة بني بارحيم ، وأشفق علي ، وارأف بضعفي » . ولم يكن لي عمل غير هذا ثلاث ساعات ، حتى خفت النوبة ، فهجم على السكري ، ولم أستيقظ حتى مضى من الليل أكثره . ولما أفقت وجدتني مستريحا ، ولسكن الضعف والمعاش كانا قد نالاني منالاصعبا . وكان منزلي خاليا من الماء فاضطررت للبقاء فيه حتى الصباح . وأخذ السكري بمعاقدة أجفاني ثانية ، فرأيت في منامي هذه الرؤيا المزعجة :-

رأيت كأني جالس خارج سياجي في المكان الذي كنت به وقت حدوث الزلزلة ، فأبصرت رجلا قد خرج من سحابة عظيمة سوداء ،

(١) الحساء : مانسميه شربة

تكتنفه أشعة نارية ، ووقف على الأرض وكان يلمع لمعانا شديدا لم
أستطع معه أن أطيل النظر إليه ، فقد كانت سحنة^(١) وجهه مخيفة لا يمكن
وصف تأثيرها . ولما وقف على الأرض خيل إلى أنها ارتجت مثل تلك
الرجة التي تسببت عن الزلزال ، وكادت تميد من تحتي ، وامتلأ الجوبشرار
من نار . ولم يكد يضع قدميه على الأرض حتى أقبل نحوي بمرح في يده
ليقتلني به ، ولكنه قبل الشروع في القتل ، وقف على نجوة من الأرض
تبعد عني قليلا ، وكلمني كلاما لا أجده في قدرتي وصف تأثيره السيئ في
نفسى . وكل ما فهمته من ذلك الصوت الفظيع قوله « لم تكف كل هذه
العظاات لتوبتك ، فيجب أن تموت » وتخيلت أنه رفع ربحه ليطمئني به .
وليس في قدرة أى قارىء هذا الوصف أن يقدر الهلع الذى انتابنى
وقاق نفسى لهذه الرؤيا . فلقد كنت أحلم بهذا المنظر المؤلم ، فلا أذوق
للراحة طمعا . ولا يمكن تصوير حالى حين صحوت من النوم ، وعلمت
أن ذلك حلم حالم

ابتدأت أقدر معلوماتى الدينية ، وأزن شعورى نحو الله ، فعلمت
أنى غر جاهل ، لا أعرف من الدين غير بقايا قليلة ضئيلة من إرشاد والدى .
فقد أضعت ما تعلمته في هذه الثمانى السنين التى لم أخالط فيها أحدا غير
البحارة الذين كانوا شريرين غير مهتمين بدين ، فهلمت من منهلهم ،
واقفيت إثرهم .

ولا أعرف أنى في خلال تلك المدة ذكرت الله سبحانه وتعالى
بصدق ، أو عنيت بنفسى وما كنت عليه ، فقد كنت أحرق طائشا لارغبة

(١) السحنة : الهيئة واللون

لى فى الخير ، ولا شعور لى بالشر ، جاحداً شريرا ، لا أميل للتفكير ،
ولا للخوف من الله وقت الخطر ، ولا لشكره عند النجاة . ولتفهم هذا
سأقص عليك شيئا من تاريخ حياتى الماضية ، فقد كنت فى كل داهية
حلت بى ، وكارثة انتابتنى ، أرى أن يد الله هى المسببة لذلك : وكان ما حل
بى جزاء وفاقا لذنوبى ، وعقوق والدى ، وجحودى العظيم ، الذى كنت
فريسة له ، وللآثام التى اغترفت منها فى جميع أطوارى ، فأنى أئذ كر
أنى لما كنت على الشواطىء المهجورة فى إفريقية ، لم أفكر إلا فيما سيحل
بى ، وكنت أرجو الله أن يهدينى الصراط المستقيم ويحفظنى من شر
الأنس والوحوش ، ولسكنى ما كنت أذكر الله ولا العناية الربانية .
وكانت تصرفاتى تصرفات مخلوق يتبع نوااميس الطبيعة وينقاد لأحاسسه
وشعوره .

ولما نجوت وأخذنى رئيس البحارة البرتغالى ، وعاملنى معاملة حسنة ،
لم أفكر فى الشكر والثناء . ولما غرقت سفينتنا وأحرق بى الهلاك من كل
صوب ، لم أندم على ما فعلت ، وقالت لنفسى إن هذا بلاء قد اكتنفى ،
واعتقدت أنى خلقت مهينا حقيرا ، لا كون حياتى شقيا

وحين نجوت من الهلاك ، ووصلت إلى الشاطىء ، ورأيت رفقتى
قد بادوا ، عجبت ، وتمسكنى طيش السرور ، وكان ينبغى أن أشكر
الله وأشعر بوجوب الاعتراف له بما يستحقه ، ولسكن هذه العواطف
لم تجد إلى قابى سبيلا ، بل ذهبت أدراج الرياح ، وتغاب عليها ما كنت
فيه من الطرب والحبور ، لنجاتى من شر تلك المخاوف . وكنت كسائر
رجال البحر ينسون كل شئ حين وصولهم بر الأمان ، كأن لم يحصل

لهم ما تشيب من هوله النواصي . ولما استقربى النوى بتلك الجزيرة
ووجدت لنفسى قوتا يقينى من الهلاك ، وعامت أنى بعيد من كل أمل
فى النجاة ، فريد لأنىس لى ، سُرِّى عنى ما كنت أجيد من ميولى
الاجتماعية ، وكنت غير مهتم بمعاودة المقادير لى ، وجرى الأمور على
مالا أهوى ، وقلمافكرت فى هذه الأمور أو خطرت لى على لب .

وكان نمو الحبوب كما أشرت إليه من قبل سببا فى تأثرى ، إذ كان
يجول بنفسى أن ذلك لنفعى ، ولكن لم تلبث هذه الهواجس أن
انتهت ، إذ ظهر لى السبب ، وقد كان فى الزلازل التى حصلت ما يكفى
لتوجه النفس إلى خالقها ، ولما كادت تنقضى حتى عادت النفس
سيرتها الأولى ، كأن لم يكن شئ يذكرك

وقد اعتاد الناس أن يتوجهوا بقلوبهم إلى بارئهم حين ينكبون ،
ويتوسلوا إليه سبحانه أن ينقذهم حين يرزءون ، ولما كنى لم أعر ذلك اهتماما
كأن حالى أحسن الأحوال . ولما اعترانى المرض واشتد وقعه ، ووهنت
قواى ، وتمثل أمامى شبح الموت ، استيقظ وجدانى من نومه العميق ،
وأخذ ضميرى يخزنى على ما أسلفت فى الأيام الخالية ، وما قدمت يداى
من الشرور والآثام ، حتى حلت بى النقم ، وانتابتنى الشدائد والغير .
وقد عذبتنى هذه الأفكار تعذيبا ألما ، حتى وجدتنى أنطق بكلمات دعاء
لله العلى القدير ، أن يفرج عنى هذا الكرب والبلاء . وكنت فى حال
اضطراب عام ، لاعترافى بأجرامى ، وخوفى من الموت فى تلك الحالة
المؤلمة ، فكنت أشقى الناس وأتعسهم ، وكلما فكرت فى مرضى وموتى
وحيدا بلا مساعدة ، بعيدا عن الناس ، انخلع قلبى لمصيرى . وحينئذ

تذكرت نصيحة والدي وتنبؤه بمستقبلي ، تلك النصيحة التي ذكرتها في أول الكتاب ، وهي قوله « إن الله لا يبارك لك إذا اتبعت هذه السبيل . وإنك ستجد متساعدا من الوقت فيما بعد ، تفكر في ترك نصيحتي ، وتندم حين لا يجدي الندم ، وحيث لا نجد من يساعدك على شأنك » . وفي هذه اللحظة وجدني صارخا « لقد تحققت كلمات أبي ، وأدركني القضاء حيث لا مساعد ولا معين . وقد أنهت حياة طبعتي الوسطى التي وضعتني المقادير فيها . وربما كنت سعيدا موقفا لو بقيت بعيدا عن هذه المهالك ، ولكني لم أدرك هذه الحقائق بنفسى ، ولا اتبعت مشورة والدي . ولقد تركتهما يندبان شقائي وأنا الآن أندب نتيجة أعمال الخبيثة . إنى رفضت مساعدتهما لي في هذه الحياة ، وأوجدت نفسى في هذا الضيق الذي يشق على الطبيعة نفسها أن تساعدني على الخلاص منه ، ولا مرشد ولا هادي » فبكيت بكاء التأسف ، وناديت الله أن ينقذني من شر هذا البلاء .

الفصل العاشر

تابع يوميات روبنسن كروسو

وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو ، شعرت بتجدد قوتى لطول نومي ، وكانت نوبة المرض قد انتهت ، ومع تأثير الرؤيا السيئ في نفسى قت لأبحث عن طعام ، لأننى خفت أن تعود لى النوبة في اليوم التالى . وأول شئ عملته أن ملأت علبة بالماء ، ووضعت فيها بعض الشراب ليذهب مابه من برودة ، ثم أخذت قطعة من لحم الضأن

وشويتها، ولكنى لم آكل منها إلا قليلا . وكنت شديد الخوف من عودة الحمى ثانية ، وفى الليل أكلت ثلاث بيضات من بيض السمك عافا بعد أن شويتها فى النار . وكان أكلها هنيئا . وبعد أن تناولت عشاى اجتهدت أن أسير ، ولكن لضعفى لم أتمكن من الذهاب بعيدا ، فجلست على الأرض بجوار البحر الذى كان أمامى هادئا ساكنا . وأثناء جلوسى اعتورتنى الأفكار الآتية . ماهذه الأرض ؟ وما هذا البحر ؟ ومتى كان خلقهما ؟ وكيف كان ذلك ؟ وكيف وجد الأُنس وأوجد الحيوان الوحشى والمستأنس ؟ لاشك أن موجد تلك الأشياء قوة خفية خلقت السموات والأرض ، والهواء والماء . وما هى تلك القوة ؟ لا ريب أنها الله . إذن لا بد أن يكون الله سبحانه هو الذى يحكم ويدبر تلك الأشياء ، لأن من يقدر على تكوينها وإبداعها على هذا المثال ، لا بد أن يكون قادرا على تدبير شؤونها وإحكام أمورها . وينتج من ذلك كله أن كل ما يقع فى ملكه الذى أنشأه لا يكون بغير علمه وإرادته . وإذا كان علمه محيطا بكل شئ فهو لاشك عالم بوجودى فى هذا الضيق . وإذا كان يريد كل شئ من خير وشر ، فهو لاشك قد أراد لى كل ما أنا فيه من بلاء ونصب . ولا يخامرنى أقل ريب فى كل هذه النتائج . فالله عالم بالكبيرة والصغيرة ، يريد كل ما يقع فى ملكه . إذا كان هذا هو الواقع فلماذا أراد لى الله ذلك ؟ وأى ذنب اقترفت حتى أعامل هذه المعاملة ؟ ولكن وجدانى زجرنى عن هذا السؤال ، وأحسست كأن هاتفا يقول « أيها الشقى أتسأل عما فعات ، وما جنت يداك ؟ ارجع البصر كرتين إلى ماضيك المظلم ، وسل نفسك أى شئ تركت من المساوى غير مقترف . سل نفسك لماذا لم تهلك من قبل ؟

ولماذا لم تفرق في طرق « يارمث » ؟ ولماذا لم تقتل في الحرب لما أخذت السفينة إلى سالي ؟ ولماذا لم يفتسك الحيوان الضاري على شواطئ إفريقية ؟ ولماذا لم تفرق هذه المرة حين هلك كل رفقتك ؟ أنسأل ماذا فعلت ؟

وهكذا انتهت تلك الأقوال ، وسكن الهاتف ، فلم أحر جوابا ، فوقفت غارقا في أفكاري ، مذهولا حائرا حزينا ، ورجعت إلى سكني لأنام ، ولكن النوم لم يهوا أجفاني فجلست في مقعدي ، وأشعلت مصباحي ، لأن الظلام قد نشر أجنحته في السكون . وفي هذا الوقت اشتد خوفا من عودة الحمى ، فتذكرت أن سكان البرازيل لا يستعملون الأدوية ، وأنهم يأخذون التبغ لمعظم الأمراض . وقد كان عندي في أحد الصناديق بعض لفائف التبغ التي لم تستعمل ، فذهبت لأبحث عنها فوجدتها ، وعثرت معها على تلك الكتب التي أنقذتها ، فتناولت التبغ وإنجبيلا ووضعتها أمامي على المائدة ، ونظرت إليهما كشفاء لجسمي وروحي . ولا شك أن الله سبحانه هو الذي ذكرني بفكرة التبغ لأجد الكتاب المقدس

وابتدأت أفكر في كيفية التداوي بالتبغ ، فأخذت أولا قطعة من ورقه ومضغتها ، فكان تأثيرها شديداً كاد يحد أعصابي ، لأن الورقة كانت خضراء شديدة ، ولم أكن معودا ذلك من قبل ، ثم أخذت جزءا منه ووضعت في قليل من الشراب الذي كان عندي ، وتركته نحو ساعتين ، راجيا أن أشرب بعضه عند النوم . وحينئذ أخذت قطعة أخرى من

التبغ ، ووضعها فوق جذوة نار ، وملت عليها برأسي وجسمي ، لَأَسْتَنَشِقْ
دخانها حتى كدت أختنق من تأثيرها

وبعد هذا أخذت كتاب الله لأقرأ به ، ولكن رأسي كان يغلي
كالمزجل من اضطرابه ، فلم أقدر على القراءة ، غير أنني لما فتحت دَفَّتِيهِ^(١) ،
وقع نظري على هذه العبارة « ادعني يوم شقائك ، أخلصك من عنائك ،
وتسبح بحمدي » . فوجدتها مناسبة لموقف ، وأثرت في أفكاري حين
قراءتها ، وزاد أثرها بعد ذلك . فالهول كان بالغاً أشده وكنت بعيداً عن
خلق الله حتى استحال النجاة في اعتقادي ، وأصبحت أقول ما قال بنو
إسرائيل حين وُعدوا باللعوم لياكلوها « هل يستطيع ربك أن ينزل علينا
مائدة من السماء ؟ » هل في قدرة الله أن ينقذني من هذه الوحشة المخيفة ؟
وكان الليل قد مضى منه الكثير ، والتبغ أثقل رأسي ، فلت إلى النوم ،
فذهبت إلى مخدعي لأستريح ، وترك السراج مضيئاً في السكف ، خشية
أن أحتاج إلى شيء أثناء الليل . وقبل اضطجاعي في فراشي فعلت شيئاً
لم أفعله طول حياتي . فقد سجدت بجانب مهادي ، وصليت لربي ، وضرعت
إليه أن يشملني بعنايته ، فيخلصني مما أنا فيه . وبعد أداء الصلاة شربت
نقيع التبغ الذي وصفته فيما مضى ، فكان شديداً وقع على رأسي ، فنمت
سريعا ، ولم أستيقظ إلا في اليوم التالي ، في الساعة الثالثة مساء . على أنني
لهذه الساعة أعتقد أنني نمت ذلك اليوم التالي كله ، واللييلة التي أعقبته ،
ولم أفق إلا بعد يوم ولييلة ، وبعض يوم آخر . وإلا فكيف سقط يوم

(١) الدفة بالفتح الجنب من كل شيء أو صفحته ومنه دفنا الكتاب أي

ضمانه من جانبيه

من هذا الأسبوع من يومياتي ، كما ثبت لي فيما بعد . وعند قيامي من هذا النوم وجدتني نشيطا قويا ، وشعرت بالجوع فعامت أن المعدة في حاجة إلى طعام . ولم تصبني نوبة في اليوم التالي الذي كان التاسع والعشرين . وفي الثلاثين من هذا الشهر لم أشعر بمرض فخرجت ومعي بنديقي ، ولكني لم أذهب بعيدا ، واصطدت طائرين من طيور البحر يشبهان الأوز^(١) ، ولكني لم أجدهما عندى ميلا لأكلهما ، فأكلت من بيض السمكة الذي كان يلذ لي ، وفي المساء أعدت أخذ الدواء ، وأعني به نقيع التبغ ، ولكني لم أكثر منه كما فعلت في المرة الأولى ، واقتصرت اليوم على ذلك ؟ فلم أمضغ ، ولم أشم من دخانه .

وفي اليوم التالي وهو الأول من شهر يولييه لم تكن صحي كما كنت أحب ، فقد عاودتني رعدة خفيفة . وفي اليوم الثاني من هذا الشهر أعدت تناول الدواء بطرقه الثلاثة المتقدمة ، شرب ، ومضغ ، واستنشاق ، وشربت منه مئتي المرة الأولى . ولقد برأت من المرض براء تاما ، ولكن قوتي الأولى لم تعد إلى ثانية إلا بعد أسابيع عدة . وفي دور النقاهة فكرت في العبارة المقدسة الآتية - : (سأخلصك) ، فعادت إلى وساوسي الأولى ، واشتد يأسى من الخلاص . ومن أعجب ما رأيت أنني لم أعر ما نالني من العناية الإلهية اهتماما ، كأني لم أنقذ من المرض والموت مرات كثيرة . فقلت لنفسى . لقد كثرت لدى النعم ، ولم أفكر في الاعتراف لله بها ، فلم أحمده ، ولم أسبحه . فكيف أنتظر النجاة الكبرى من هول هذا الموقف ؟ فكانت هذه التخيلات شديدة التأثير في قاي ، فخفق لها خفقانا كثيرا ،

(١) الأوز بكسر الهمزة الباط والواحدة اوزة

فسجدت ، وصليت لله صلاة شكر على ما أولانيه من الشفاء من داء الذي
آلمني وأوجعني .

وفي صباح اليوم الرابع من شهر يولييه تناولت الكتاب المقدس ،
وابتدأت أقرؤه بحمد ، وقررت تلاوة ما تيسر منه كل صباح ومساء . ولم
يضع علي بعد هذا الترتيب طويل وقت حتى شعرت بوخز أليم في فؤادي
على الشرور والآثام التي ارتكبتها فيما مضى . وتخيلت الكلمات التي سمعتها
في رؤياي فشجعتني على الماضي في هذا السبيل ، سبيل التوجه إلى باري
النسم . وبينما كنت أقرأ ، رأيت آيتين كالأيتين . « إن الله يغفر الذنوب
جميعا » « ومن تاب وأصاح فإن الله يتوب عليه » فوضعت الكتاب من
يدي ، وتوجهت إلى السماء بقلبي وبدي ، ودعوت الله أن يتوب علي ،
ويعفولي ما تقدم من ذنوبي . وكانت هذه أول مرة دعوت فيها الله بصدق
واهتمام بعد شعور عميق ، وتقدير للحوادث ، وتأثر بكلمات الله التي تلوتها ،
وأحسست أن الله سيستجيب دعائي . وبعد هذا الانقلاب في أفسكاري
وشعوري ، ابتدأت أرى ماضي المظلم ، ونجسمت أمامي ذنوبي فكانت
تشغل قلبي ، وتكدرهنائي ، فدعوت ربي أن يعفو عني ، وأصبحت قائما
بالرضا من النجاة من هذه الجزيرة . فإن الإنسان حين يرى الأشياء على
حقيقتها يهيمه الخلاص من الشرور والآثام أكبر من الخلاص من مصائب
الحدثان . وقد ابتدأت أشعر براحة في نفسي ، واطمئنان لاعلم بحقيقته ،
وإن كانت حياتي كما هي لم يدناوها أي تغيير ، إلا أن اطراد قرائتي للكتاب ،
وصلاتي لله رب العالمين ، جعلني في مأمن من الاضطراب .

ولما عادت إلى صحتي ، عولت على إتمام كل شيء أحتاج إليه حتى تكون

معيشتي هنيئة غير ناقصة. ومن اليوم الرابع إلى الرابع عشر من هذا الشهر
ابتدأت أجوب مسافات قليلة حتى تعود إلى قوتي، لأن الحمى أضعفت جسمي،
وأضعتني، فقد كان العلاج الذي اتبعته جديدا. ربما لم يشف هذا المرض من قبلي
قط. ولا أنصح لأحد باستعماله، لأنه وإن كان قد أذهب عني المرض،
فقد أحدث لي ضعفا شديدا، صرت بعده عرضة للانفعالات العصبية
مدة من الزمن. وقد علمت بالتجربة أن خروجي من سكني أثناء
فصل الأمطار يضرب بصحتي ضررا بايعا. وخاصة تلك الأمطار المصحوبة
بالزوايع والرياح

وقد مضى على الآن في هذه الجزيرة عشرة شهور، ولم يكن لي
أمل في النجاة، لأنني لم أر أترأ لأى إنسان في هذا الجزء من الأرض.
ولما اطمان قلبي لتحسين سكني اتجهت نفسي إلى وجوب كشف باقى
الجزيرة التى كنت بها، لأرى حاصلاتها، وأقف على دخیل أمرها وقد
ابتدأت في الخامس عشر من شهر يولييه فى كشف الجزيرة، ومعرفة
حالتها، فذهبت فى بحى مبتدئا من الخليج الذى وصلت إليه مع أول
رمت أعدده. وبعد سير نحو ميلين وجدت تيار الماء قد انقطع، وأصبح
النهر كقناة صغيرة يجرى فيها قليل من الماء العذب. ولما كان الوقت
فصل جفاف كنت أرى هذا المجرى خاليا من الماء فى بعض نقطه. وعلى
شاطئ هذا المجرى وجدت كثيرا من الأودية والبطاح المستوية التى كانت
مغطاة بالحشائش. وفى نهاية تلك البطاح على المرتفعات وجدت مقدارا
كبيرا من التبغ الأخضر الذى نما نموا عظيما. وعثرت على أنواع أخرى
كثيرة من النبات لم أميزها، ولم أعرف لها قيمة، وقد عنيت بالبحث

عن نبات يصنع الهنود خبزهم منه يسمى كسافا^(١) ، ولسكنى رجعت
بُخْفَى حُنَيْن^(٢) . وقد رأيت نباتا يدعى الصَّبْر يصنع الهنود منه خبائهم ،
ومنسوجاتهم الخشنة ، ولسكنى حين عنورى عليه لم أكن ملما بخواصه .
وكان فيما وجدت من أنواع النبات بعض عيدان من قصب السكر ،
ولسكنى لحاجته إلى العناية كان قليل النفع .

وقد كنت مرتاحا لنتيجة بحثى . ورجعت مفكرا كيف أصل إلى
معرفة خواص تلك النباتات التى وجدتتها . وهل تفيدنى ثمار أعثر عليها ،
وليس لى علم بحقيقةها ؟ إن معرفتى بالنبات لا تؤهلنى لاستنباط شئ من
ذلك . وحين كنت فى البرازيل كنت قليل الملاحظة لأنواع النبات المختلفة
ولو عنيت بها من قبل ، لنفعتنى فى هذا البلاء الذى اكتنفنى .

وفى اليوم التالى - السادس عشر - رجعت للسير فى نفس الطريق
الذى سلكته من قبل ، وما سرت إلا قليلا بعد المسافة التى قطعتها فى اليوم
الأول حتى وجدت البطاح قد انتهت ، وابتدأت الأرض تمتغطى بالأشجار

(١) ويسمى أيضا عرق الشريس (٢) حنين اسكاف بالخيرة . ورجع بخفى
حنين مثل يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيرة . وأصل المثل أن أعرابيا
ساوم حنيننا الاسكاف بخفين حتى أغضبه فلما ارتحل الأعرابى أخذ حنين أحد خفيه
فطرحه فى الطريق ثم ألقى الآخر فى موضع آخر فلما مر الأعرابى بأحدهما قال ما أشبه
هذا بخف حنين ولو كان معه الآخر لأخذه ثم مضى فلما انتهى الى الآخر ندم على
تركة الأول وقد كمن له حنين فلما مضى الأعرابى فى طلب الأول عمد حنين الى
راحلته وما عليها فذهب بها وأقبل الأعرابى وليس معه الا خفان فقيل ماذا جئت
به من سفرك فقال جئتكم بخفى حنين فذهب مثلا . ويقال فيه غير ذلك

وتتوارى عن الأعين بما ظهر فوقها . وفي هذا الجزء رأيت كثيرا من أنواع الثمار والفواكه ، إذ وجدت البطيخ كثيرا فوق الأرض ، والعنب على الأشجار ناضجا شهيا . ولقد سررت العثور على هذه الفواكه سرورا لا يحد ، واسكني عولت على تناول العنب بحذر ، لأنى أعلم بالتجربة أن الأكل كثير منه قد قضى على كثير من الأنجليز فى أمثال تلك الجزيرة ، وسبب لهم إصابات شديدة بالحمى . وبعد قليل من التفكير عزمت على تخفيف العنب فى الشمس ، ثم حفظه مجفقا للارتفاع به عند الحاجة إليه .

ولم أعد لبيتى فى تلك الليلة ، وهى المرة الأولى التى غبت فيها عنه . ونمت فوق شجرة بعد إعداد العدة لذلك . وفى الصباح استأنفت السير فقطعت أربعة أميال متجها نحو الشمال ، وعند نهاية سبرى وجدت الطريق قد فتح أمامى غربا ، وشاهدت نهرا صغيرا فيه ماء عذب يتجه نحو الشرق . وكانت الأرض مكسوة بالعشب الناضر ، وكل شئ قد حلى بالخضرة الرائعة حتى خيل إلى أنها حديقة مفروشة قد تمهدها يد الإنسان ، وأغدقت عليها الطبيعة بما فيها من جمال .

انحدرت بجانب هذا الوادى الجميل قليلا ، ونظرت إليه نظرة طرب وسرور . وإن كانت تلك النظرات مشوبة بشئ من الأسى والحزن . لشعورى بأن تلك الأرض الشاسعة ملك لى دون شريك ولا مزاحم . فأنا ملك تلك الناحية وسيدها ، ولو أمكننى أن أظفر بمنزلها فى بلادى لكنت كأى نبيل من النبلاء الذين نراهم فى إنجلترا سادة عظماء . وهنا

وجدت كثيرا من أشجار السكاكو، والنارجيل^(١)، والبرتقال، والليمون والأترج^(٢)، ولكنها كانت في حالة غير مرضية، وندر ما حمل منها شيئا من الثمار، ولكن الليمون الحامض الذي جمعته كان مفيدا صحيا، وكنت أمزج عصاراته بالماء، وأحصل منها على شراب ماطف للحرارة، منعش للقوى. الآن وقد عثرت على هذه الفواكه فقد أصبح من المحتم على أن أجد في جمع ما صالح منها، كالليمون والعنب، لأدخره لوقت حاجتي في فصل الأمطار. وتنفيذ هذه الخطة جمعت صبرتين^(٣)، إحداهما من العنب، والأخرى من الليمون الحامض والحلو، ثم أخذت معي قليلا من الصنفين ورجعت إلى بيتي بعد أن غبت عنه ثلاثة أيام، لأحضر حقيبة لحمل ما جمعت في هذا اليوم، ولكنني لم أكد أصل إليه حتى وجدت العنب قد عطب، وأصبح لا يصلح لشيء. أما الليمون فكان على حاله، غير أنني لم أقدر أن أحمل معي إلا عددا قليلا منه.

وفي اليوم التالي الذي كان التاسع عشر، رجعت بعد أن تجهزت بحقيبتين صغيرتين لحمل ما قطفتهما، ولكن أخذ مني العجب مأخذه حين رأيت بعد وصولي أن العنب الذي جمعته كان مبعثرا، مقذوفا به هنا وهناك، وما كولا بعضه. فاستنبطت من كل ذلك أن بالمكان بعض مخلوقات وحشية قد قامت بهذا العمل، ولكنني لم أعرف كنهها.

(١) النارجيل : - الجوز الهندي وهو شجر كالنخل إلا أن وجه الجريدة فيه إلى أسفل وإذا قطع لم يمت. والواحدة نارجيلة ومنه النارجيلة (المسماة بالشيثة) لأنها قد تتخذ منه (٢) شجر بستاني من جنس الليمون ناعم الورق والخطب (٣) الصبرة بالضم ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن

ولما وجدتني لا أقدر على حمل العنب إلى بيتي في الحقيقة ، لأن ثقله كان شديداً يكفى لعطبه ، وأن جمعه ، ووضع به بعضه على بعض كان يؤدي إلى النتيجة التي رأيتها اليوم ، قطفت كثيراً من عروش العنب ، ووضعتها فوق أغصان الأشجار ، لتنضج وتجف ، وحملت معي إلى بيتي ما قدرت على حمله . وعند عودتي من هذه السباحة فكرت في ثمار هذا الوادي وأشجاره ، وحسن موقعه . وأمنه من العواصف ، وقرنته بالسهل حيث أنشأت سكني ، فوجدتني اخترت أرواً مكان في الجزيرة جعلته مقراً لي . وابتدأت أفكر في نقل سكني ، واختيار محل له يكون آمناً في تلك البقعة المثمرة . وقد اعتورتني هذه الفكرة كثيراً ، وتسلمت على أبي لأن جمال الوادي استهواني حتى ملك على جميع مشاعري ، ولكنني كنت كلما أمنت في التفكير أحجم عن التنفيذ ، لأنني الآن بجانب البحر يمكنني أن أنتفع بما عساه أن يحدث فيه من وجود إنسان ، لأن نحس الطالع الذي دفع بي إلى هذا المكان قد يجري إليه أشقياء آخرون من أبناء آدم . ومع اقتناعي بأن هذا ليس بميسور ، قد كانت فكرة وجودي في وسط الجزيرة محبوساً بين التلال والأشجار ، تقرر مصيري إلى النهاية . ولذلك رأيت أن أمتنع عن التحول إلى الداخل ، وأتيت حيث كنت . ولكن غرامى بتلك الرياض النضيرة جعلاني أقيم هناك إلى آخر يوليو . ومع أني قررت المكث بجوار البحر ، قد أنشأت لي كوخاً ، وحصنته بسياج متين رفعته فوق ما تصل إليه يد الإنسان . وهناك كنت آمناً أقضى اليومين والثلاثة . وكان السلم سبيل الولوج والخروج من هذا الكوخ ، كما وصفت فيما مضى . وانتهى العمل من ذلك في أول أغسطس .

ولسكني لم أكد أجنّي ثمرات كدى حتى ابتدأ هطل الأمطار، فاضطرت
أن ألزم سكني الأول، لأن سكني الجديد - وإن كان محكم الصنع - فهو
خال من التلال التي تقيه شر العواصف، ومن السكف الذي يمكن
الالتجاء إليه عند اشتداد وطأة الأمطار.

وفي اليوم الثالث من شهر أغسطس أقيمت العنب الذي علقته على
غصون الأشجار قد جف وغدا زيبا من أحلى الأنواع وأطيبها. ولذلك
جمعتة خوفا من تلفه إذا تساقطت الأمطار، وقد كان هذا العنب المجفف
أحسن غذاء لي مدة الشتاء، وكان ما جمعتة منه يزيد على مائتي عنقود من
العناقيد الكبيرة. وما كدت أجمع هذه العناقيد، وأحماها إلى سكني حتى
اغبر الجو، واكفهرت السماء، وتساقطت السحب أمطاراً كثيرة في المدة
المحصورة بين الرابع عشر من شهر أغسطس ومنتصف أكتوبر، فلم
أتمكن خلالها من الخروج. ولقد دهشت لأمر ساقص عليك نبأه،
ذلك أنني بعد وصولي إلى هذه الجزيرة فقدت هرة كانت معي، فظننت
أنها هربت، أو عدا عليها عاد فقتلها، فلم أفق لها على أثر. وبينما أنا جالس
ذات يوم إذ رأيتها مقبلة مع هُرَيْرَات لها صغيرة. فأني لها بها؟ مع أن
الهرتين اللتين أنقذتهما معي كائتا من الأنثى، ولم أعثر في الجزيرة على
مثل هذا النوع. حقا إن هذا العجيب. وقد كثر بعد ذلك نسلهن،
فاضطرت لقتلهن. وقد كان المطر مستمرًا من ١٤ أغسطس إلى ٢٦ منه،
ولذلك لم أتمكن من الخروج، لأنني كنت أحذر المطر خشية المرض.
وابتدأت أشعر بضيق في العيش، فخرجت من كني مرتين اصطدت في
الأولى عنزا وفي الثانية سلحفاة.

واليك نظامى فى ترتيب طعامى

الفطور ^(١) : عنقود من العنب المجفف (الزبيب)

السكرزامة ^(٢) : قطعة من شواء ^(٣) المعز أو السلاحف

العشاء ^(٤) : بيضتان أو ثلاث من بيض السلاحف

وفى أثناء اعتكافى فى السكهف خشية المطر ، اشتغلت كل يوم نحو ثلاث ساعات فى توسيعه ، واتجهت فى الحفر جهة واحدة حتى وصلت إلى نهاية التل . وعلى ذلك حصلت على باب أو طريق لسكنى اتخذته ممرا لى عند الدخول إليه والخروج منه . ولسكنى بعد أن كنت فى حزر حريز قبل هذا الممر ، أصبحت معرضا لأى طارئ من هذه الثغرة التى ثغرتها ، وإن كنت لم أرى فى الجزيرة أى حيوان يخاف ، لأن أكبر مخلوق عثرت عليه بها كان عنزا . وكان الثلاثون من شهر سبتمبر نهاية السنة من ابتداء وصولى إلى الجزيرة ، لأننى عدت العلامات التى حفرتها كل يوم فوجدتها خمسا وستين وثلاثمائة . فأحدث لى هذا اليوم ذكرى مؤلمة ، ونهينى إلى الشقاء الذى سبجت فيه طول إقامتى وحيدا فى هذا الجزء الموحش . وصمت هذا اليوم كله ، وأقررت فيه بذنوبى ، ورضيت بما قسم لى من قضاء وقدر ، وصليت فيه لله تعالى وتضرعت إليه أن يرحمنى : ولما غابت الشمس تأقت نفسى إلى تعاطى شئ من الطعام ، فأكلت قليلا منه بعد

(١) الفطور : ما يفتطر به وهو يناسب الغداء أى طعام الغداة (أول النهار)

(٢) السكرزامة طعام وسط النهار (٣) الشواء : ماشوى من اللحم وغيره أى

ما عرض لحرارة النار فنضج وصلاح للأكل والواحدة منه شواء

(٤) العشاء : طعام العشى أى آخر النهار

إمسا كي عنه اثنتى عشرة ساعة ، ثم ذهبت إلى فراشى . وهكذا انتهى اليوم كما ابتدا .

× وإني لم أميز الأيام بعضها عن بعض ، فلم أعرف الآحاد من غيرها ، لأن العقيدة الدينية كانت لا تأثير لها في . ولما حسبت الأيام التي مكثتها هناك ، ووجدتها سنة كاملة ، قسمتها إلى أسابيع . وكنت أعد اليوم السابع منها يوما مقدسا ، على أنى بعد عملية التقسيم وجدتني غلظت في يومين .

+ وبعد قليل ابتدا ما عندي من الجبر في النقصان ، فاضطرت إلى إهمال كثير من التفصيلات ، واقتصرت على تدوين عظام الحوادث . وبعد أن قضيت تلك المدة في الجزيرة عرفت فصلى الجفاف والأمطار جيدا ، وابتدأت أعد لكل العدة ، وأحسب لكل حسابه ، وأزود نفسي بما يقتضيه كل منهما ، ولكنى لم أحصل على هذه التجارب إلا بثمان غال . ولعلك تذكر أنى حافظت على سنابل الشعير والأرز التى ظننتها نبتت هناك وحدها ، وكانت نحو ثلاثين من الأرز وعشرين من الشعير ، وقد فكرت في زرعها بعد انتهاء فصل الأمطار . ولتنفيذ هذه الفكرة أخذت قطعة من الأرض للزرع ، وهياأتها ، ثم قسمتها قسمين ، وزرعت كل صنف في مكان خاص به . وبينما كنت مشغلا بالزرع ، فكرت أن أستبقى بعض الحبوب ، خشية أن أكون أخطأت الوقت الصالح لمبذر البذور ، فاستبقيت الثلث من كل صنف . وإنى أحمد الله على توفيقى لهذه الفكرة ، لأن الحبوب بعد بذرها لم تنبت . وعلمت بعد سبب ذلك ، وهو أن فصل الجفاف كان خلوا من الأمطار ، فكانت الأرض جافة يابسة ، ولم تجد الحبوب رطوبة تكفى لآنباتها ، فبقيت في الأرض كما وضعتها ، فلما جاء

المطر ظهر النبات. ولما شاهدت البذور الأولى لم تنبت لجفاف الأرض ، وإفجارها ، بحثت عن مكان رطب لأجرب مرة أخرى ، فعثرت على بقعة طيبة قريبة من الكوخ الذى أنشأته أخيراً داخل الجزيرة ، وأعدتها للزراع ، وبذرت فيها البذور فى شهر فبراير ، قبل الاعتدال الربيعى بقليل ، فاستقبلت الأرض فصل الأمطار ، التى تتساقط فى شهرى مارس وإبريل فرويت ، وأنبتت نباتا حسنا يسر الناظرين . ولما كنت احتفظت بشيء من الحبوب ، ولم أبذرهما جميعهما . كانت غلة أرضى قليلة من كلا النوعين ، وكانت هذه التجارب خير أستاذ لى ، فقد عامت منها الأوقات الصالحة للزراع ، وأن فى المكان أن أزرع وأحصد مرتين كل سنة

وبينما كان الزرع ينمو قمت بقليل من التجوال فى الجزيرة ، لأكشف منها شيئا . واسكنى ، لم أجن من ذلك ثمرة ما ، وقد ذهبت إلى الكوخ الداخلى بعد انتهاء الأمطار فى شهر نوفمبر ، فوجدت كل شئ كما تركته . وقد لفت نظرى سياج كوئى ، فقد كنت أقتته من أوتاد قطعها من بعض الأشجار المجاورة . ولما عدت رأيتها قد نمت نموا عظيما فشذبتها ، واجتهدت فى أن تتناسب فى النمو بعضها مع بعض ، فكونت بعد ثلاث سنين شكلا بديعا من الأشجار المنسقة ، التى تستلفت النظر بحسن ترتيبها . وقد تلاقت أطرافها فظلمت الكوخ ، وجعلته بأمن من حرارة الشمس فى فصل الجفاف

وكان نجاحى فى هذه الأشجار سببا فى قطع بعض الأغصان ، وحملها إلى منزلى الأول ، فغرست حوله صنفين منها فى شكل نصف دائرة ، بينها وبين السياج الأول ثمانى خطوات . وقد نمت نموا كبيرا حتى

غطت سكنى ، ثم آل أمرها إلى أن أصبحت مفيدة للدفاع كما سأقصه عليك في حينه .

الفصل الحادى عشر

(طواف روبنسن كروسو فى الجزيرة وعمله السلات)

بعد هذا كله أمكننى أن أعرف فصول السنة وأقسامها ، واسكنى لم أقسمها كما يقسم الأوروبيون سنتهم إلى صيف وشتاء ، بل إلى الأقسام التالية .

فصل أمطار ، لأن الشمس فيه تكون فى الاعتدال أو قريبة منه	{	نصف فبراير
		مارس
		» إبريل

فصل جفاف ، لأن الشمس تكون حينئذ شمالى خط الاستواء	{	نصف إبريل
		مايو
		يونيه
		يوليه
		» أغسطس

فصل أمطار ، لأن الشمس تكون قد رجعت	{	» أغسطس
		سبتمبر
		» أكتوبر

نصف أكتوبر

نوفمبر

ديسمبر

يناير

» فبراير

فصل جفاف، لأن الشمس تكون حينئذ جنوبى الخط

وكانت فصول الأمطار تزداد مدتها وتنقص، تبعاً لهبوب الرياح
ولكن التقسيم السابق بنى على ملاحظات عامة لجميع الأوقات، وقد
عامت بالتجربة أن خروجى من كنى أثناء فصل الأمطار صار بصحتى،
فاجتهدت أن أجمع ما أحتاج إليه أثناء الجفاف، ثم أقبع فى كسر^(١) يتي
مدة المطر، لأحفظ جسمى من التلف بالحوادث والعمال

وفى مدة الاعتكاف داخل المنزل اهتمت إلى عمل مفيد، فقد كنت
دائماً فى احتياج شديد لأشياء كثيرة، ولكن فقدان الوسائل كان
يقعدنى عن مباشرة عملها. وقد اجتهدت كثيراً فى صنع سلة، ولكن
الأغصان التى كنت أجمعها كانت غير صالحة لهذه الغاية لصلابتها. وقد
تعلمت صنع السلالات من دكان فى المدينة التى كان أبى يسكنها، فأنى اعتدت
أن أذهب إليه، لأرى العمال وهم دائبون فى العمل. فكنت ألاحظهم
بعناية، وأرمدتهم بكل انتباه، وطورا كنت أساعدهم إذا دعيت لبذل

(١) الكسر بفتح الكاف وكسرها جانب البيت، والشقة السفلى من الخباء،

والناحية.

المساعدة . فتعلمت تلك الصنعة ، وأصبحت الآن قادرا على الاستفادة منها إذا تهيأت لي الأسباب . ولقد خطر ببالي أن أجرب تكوين سلة من أغصان الأشجار التي غرستها حول منزلي ، فأنها ربما أفادت كأغصان الصفصاف التي تستخدم في بلادنا لهذا الغرض عينه .

ولتنفيذ هذا الخاطر ذهبت إلى منزلي الثاني ، وقطعت غصونا لينة وجدتها تصلح لهذا الأمر . ولما عدت ثانية إليهما حضرت معي قدوماً قطعت بها كثيرا من الغصون ، ووضعتهما داخل سياجى لتجف . ولما أصبحت معدة للاستعمال حملتها إلى الكهف ، واشتغلت فيها طول فصل الأمطار ، فصنعت منها كثيرا من السلالات التي أفادتنى في حمل الأتربة وغيرها ، وصيانة الأشياء فيها . وكنت دائماً أحرص أن أكون مزودا ولو بواحدة منها ، وقد صنعت سلالات كبيرة لأحفظ فيها الحبوب بدل الحقائب . ولما انتهيت من التغلب على هذه الصعوبة ابتدأت أحتال لأمرين كنت في أشد الحاجة إليهما ، أولهما الأواني التي يمكن استعمالها لأغراض الطبخ ، والثاني البئيب الذي لم أهتمد إلى طريقة صنعه ، ولكنى في النهاية وجدت سبيلا لذلك أيضا . وربما تتذكر أنى أشرت من قبل إلى امتلاء نفسى بفكرة كشف ما بقى من الجزيرة ، واستجلاء ما غمض منها ، وإنى لتنفيذ ذلك أخذت العدة لمباشرة العمل ، فحمت معي بئدقة وقدوما ، واستصحبت كلبى ، وأكثرت من البارود ، والقذائف النارية ، وحملت بعضا من العنب ، وابتدأت سياحتى . ولما وصلت إلى كوخى الداخلى تابعت السير فرأيت البحر نحو الغرب . ولما كان النهار صافى الأديم أبصرت أرضا لم أدر أقالمة هى أم جزيرة ؟ وقد كانت غاية فى الارتفاع والعلو ، ممتدة نحو الغرب

وقد وجدت أثناء هذه السباحة في الوهاد والأودية أرناب وثمانين ،
ولسكنها كانت تخالف كل المخالفة جميع الأصناف التي أعرفها . ولذلك لم
أقدم على أكلها مع قتلي لسكنير منها ، لأنني لم أكن في احتياج لها حتى
أخطر بنفسى ، فقد كان طعامى كثيرا شهيا ، وخاصة هذه الثلاثة الضأن
والحمم والسلاحف ، مضافا إليها ما كان معى من الغنم .

ولم أقطع في هذه السباحة أكثر من مياين في كل مرحلة خلال
أى يوم من الأيام ، لأننى كنت أدخل إلى الطرق المتشعبة ، وأبحث فيها
عائى أصل إلى شئ جديد يكون ذابال ، وكنت عند تقاص النهار ، وهجوم
الليل إذ يحن الظلام ، أختارلى مكانا يصالح لقضاء الليل فيه ، فكنت طورا
أنام على شجرة ، وطورا أنام فى الوادى بعد أن أهينى لى مضجعا أحوطه
بأوتاد لآ من شر العوادرى . وأستيقظ من نومى إذا حاول وحش اجتياز
مرقدى .

ولما بلغت الشاطئ دهشت لاختيارى لأقامتى أسوأ جانب فى
الجزيرة ، فقد وجدت هذا الشاطئ ملآن بالسلاحف ، على حين أنى لم
أجد فى ناحيتى خلال سنة ونصف غير ثلاث . وكذلك وجدت أنواعا
شئى من الطيور ، عرفت اسم بعضها ، أما البعض الآخر فكنت به غير خبير
وقد كان فى قدرتى أن أصيد منها بقدر ما أريد ، ولسكنى آثرت
أن أبقى على البارود والقذائف التى كانت معى ، وحولت نظرى إلى اقتناص
ماعز من المعز التى كانت كثيرة هنا ، بيد أنى وجدت صعوبة كبيرة
فى اقترانى منها ، لأنها كانت نافرة . وكانت سهولة الأرض تمكنها من رؤيتى
قبل أن أستعد لمفاجأتها . ولا أخفى عليك أن الجزيرة فى هذه الجهة

كانت أجمل ، ولكني لم أفكر قط في التحول إليها ، وترك منزلي ، لأنني اعتدت السكنى به ، وأحسست ميلا كان يجذبني إليه عند غيابي عنه في أي رحلة من الرحلات التي قمت بها . وقد أوغلت في هذه السباحة على شاطئ البحر حتى قطعت اثني عشر ميلا وأنا موكلة وجهي شطر الشرق ، ثم نصبت عمودا على الشاطئ ، ليكون علامة لي أهتدي بها ، وعولت على أن تكون رحلتي التالية في الجانب الآخر من الجزيرة ، شرقي المنزل الذي كنت أسكنه ، وأستمر فيها حتى أعود إلى تلك العلامة التي أشرت إليها . ولما هممت بالعودة عزمتم أن أعود من طريق أخرى ، موقنا أني إن أضل السبيل ، لأن الجزيرة كما ظننت كانت سهلة الرؤية ، فأهتدي بلا كبير عناء ، ولكني كنت واهما في ذلك الزعم ، لأنني بعد مسير نحو ثلاثة أميال ، وجدت نفسي في واد متسع تكتنفه التلال المغطاة بالأشجار ، فكنت غير قادر على رؤية طريق لي . ولم أكن لأهتدي بشيء قط غير الشمس ، على أنني كنت في أشد احتياج لمعرفة اتجاهها ، وموقعها بالنسبة للوقت الذي كنت فيه من اليوم . وبغير ذلك لم يكن من المستطاع الاهتداء في تلك المجهول المضللة ، على أن سوء جدي لم يشأ مفارقتي حتى في مثل هذه الأحوال ، فقد كان الجو ملبدا بالسحب ، ثقيلًا تحمله ، فنوارت الشمس بالحجاب ، وأصبحت عاجزا عن رؤيتها ، والانتفاع بها ، فهمت على وجهي ، حائدا عن قصدي أربعة أيام ، اضطررت في نهايتها إلى تلمس الطريق في جانب البحر ، والبحث عن العلامة التي نصبتها لهدايتي ، ثم رجعت إلى منزلي في نفس الطريق التي سلكتها أولا . وكانت أوتى هذه

في جو اشتد هجيرته ^(١) ، وعلت حمارة ^(٢) ، قيطه ^(٣) ، وكانت أحمالي
ضغتنا على إباله

الفصل الثاني عشر

رجوع روبنسن كروسو إلى منزله

ونجاحه في أمر الزراعة

وبينا كنت سائرا في هذه السباحة ، انقض كلبى على جدى ، وأمسك
به ، فأسرعت إليه ، وأتقذته قبل أن يصصره . وكنت كثيرا أفكر في
أن أروض بعض المعز حتى يصبح أنيسا ليتناسل عندي ، ويكون نتاجه
تحت أمرتى ، أنتفع به دون بذل ذخيرة من البارود الذى كنت أخشى
عليه من النفاذ ، ولذلك صنعت له طوقا أبسته عنقه ثم قدته بمقود ^(١)
كان معى إلى كوخى الداخلى ، وتركته داخل السياج ، وذهبت إلى مسكنى
الأول ، لأنى كنت شغفابروئى إياه بعد غيبتى عنه أكثر من شهر . وإن فرحى
بعودتى إليه لا يحيط به وصف ، فأن نومي في سريرى في ذلك المسكان الذى
أعدته بجدى وكدى ، واطمئنأتى إليه ، وراحتى فيه ، لا تقدر بوصف ،

(١) الهجير كأثير نصف النهار في القيط خاصة عند زوال الشمس مع الظهر
أو من زوالها إلى العصر . وسمى بذلك لأن الناس يسكنون في بيوتهم كأنهم قد تهاجروا

(٢) بتشديد الراء شدة الحر وجمعه حمارة

(٣) يطلق على شدة الحر وعلى صميم الصيف

(٤) المقود ما يقاد به من حبل ونحوه وجمعه مقاود

ولا تبين بتصوير ، لأن هذه السياحة التي كنت فيها مجردا من وسائل الراحة ، قد حبيت إلى حالي ، وعزتني عن كثير مما كنت أشكو منه ، وحقا يقال بضدها تميز الأشياء . فلا الصحيح يعرف للصحة قيمة إلا بعد المرض ، ولا الغنى يقدر غناه حق قدره إلا بعد الفقر . ولهذا قررت ألا أترك منزلي وأذهب بعيداً ما قدر لي البقاء بهذه الجزيرة ، لأن كل شيء كان فيه مرتبا غاية في النظام ، وحسن العناية . وكنت أشعر فيه براحة تدخل على قلبي الحزين المضطرب شيئا من الهدوء والسكون . وقد مكنت أسبوعا لا أغادر سكني هذا طالبا للراحة بعد طول العناء . واشتغلت فيه بعمل قفص للبيضاء الذي ابتداء يستأنس ، ويعرفني . وفي نهاية هذه المدة فكرت في الجدوى الذي تركته وحيداً ، فعولت على الذهاب إليه ، وإحضاره ، وإمداده بالعلف . وقد وجدته مكانه يكاد يموت جوعا ، فجمعت له بعض الأغصان ، ووضعتها أمامه فأكل حتى امتلأ ، ثم قدته بعد ذلك معي ، ولكنه لم يكن في حاجة إلى القيادة ، لأن جوعه هذب من جماحه حتى كاد يتبعني كظلي بلا عناء . ولما كنت أكثر من إعطائه الطعام ، والتقرب منه ، صار هذا المخلوق العجيب يأنس بي ويحبنى حبا جما ، حتى لم يعد يخلجني أقل خوف من هربه ،

الآن حل الخريف ، وجاء المطر ، وقد كان هذا اليوم آخر يوم من شهر سبتمبر ، وهو يوم وصولي إلى الجزيرة ، فجعلته عيداً سنوياً لي ، واحتفلت به كما فعلت أولا ، لأنني لبثت هناك عامين لم أكن في نهايتها أكثر أملا في النجاة مني يوم وصولي . وكنت طول اليوم أعبد الله ، وأشكره على ما أنعم علي به من النعم التي لولاها لكنت أشقى مما أنا فيه وأنعم .

ولقد أحسست الثقة بالله والتوكل عليه، لأنه تعالى أمدني بروح من عنده
لتحمل صروف الدهر وغيره. وقد تغيرت الحال، وصرت أحس الآن
شيئا من السعادة والهناء، وإن كنت لا أغبط على عيش يكتنفه الشقاء
من كل فج. وأسفت جد الأسف على سالف أيامي التي عشتها من قبل،
حين كنت شقيا لعيناء، مطرودا من رحمة الله ومن نعمة الإيمان.

وقد تغير الآن حالي، فلقد كنت أسير أولا للقنص، أو كشف
الجزيرة، فتعتورني نوب شديدة من الأسى والألم، فأفكر فيما أنا
مكتنف به من الجبال والغابات والصحراوات، وأنى منقطع القرين، محبوس
بين هاتيك السجون في أرض الوحشة، ولا أمل في النجاة، فيفاجئني
الهلع والجزع، بعد الهدوء والسكينة، وتعصف بي الهواجس، فأقرع
سن الندم، ثم أخرج من شيا على، وأنا أبكي بكاء دونه بكاء الخنساء^(١) وأتجنب
انتحابا دونه انتحاب يعقوب إذ استسلم للبكاء. وأحيانا تستولي على قلبي
الأحزان، فأكف عن العمل، وأتنفس الصعداء، وأطيل إلى الثرى
نظراتي ساعة أو ساعتين، دون أن أبدي حراكا. وهذا كان أشق على من
البكاء، لأن بكائي ينفس عني بعض ما أجد ثم ينتهي أمره. أما هذا فكان
يطول زمنه، ويصعب وقعه، وتألم أعصابي لشدته. ثم أصبحت وقد
ابتدأت أعتنق مذهبا جديدا، وأرى وأيا كنت عنه في ضلال مبين،
فقد كنت أقرأ كل يوم آيات الله وأتلوها، فيطمئن قلبي، ويثابج^(٢) صدري

(١) شاعرة من أشهر شواغر العرب وقد أكرت من المرائي والبكاء لكثرة

من قعدت (٢) بفتح اللام وضما يشفى ويسر

وقت غداة يوم إلى كتاب الله ، ففتحت ، ما بين دفتيه ، فوجدت معنى هذه الكلمات « وهو معكم أينما كنتم » فألقى في روعي ^(١) أننى المعنى بها ، وأنها إياى تقصد ، وإلا فلماذا وجدت هنا ؟ وهل يمكن أن يخاطب بها من هو فى حال أسوأ من حالى ، بعيدا عن الأنس ، مطرودا من رحمة الله ؟ إذن لا خوف علىّ فالعواقب مأمونة ، إذا لم يتركنى الله ، وإن تركنى الناس

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالحواف كلهن أمان واصطدبها العنقاء ^(٢) فهي حباثل ^(٣) واقتمدبها الجوزاء ^(٤) فهي عنان ^(٥) ومن هذا ابتدأت أشعر بأنى فى سعادة قد أفقدها فى مكان آخر ، فازددت لله شكرا على توفيقه لى ، ووصولى إلى هذه الدار ، ولكنى عند تمحيص الأشياء ، والتعمق فى البحث عنها ، كنت أجفل من موقفى وأتهم نفسى بالمرءاة والنفاق ، ولكنى لا أجروؤ فى الوقت نفسه على التلطف بالكلمات الآتية « كيف تكون من النفاق بالمنزلة التى أرى ، إذ أجـدك تشكر الله على حال ، وأنت تضرع إليه بكل جوارحك أن ينقذك منها »

تلك كانت حقيقى ، ولكنى إن لم أكن حمدت الله على وجودى هنا . فقد شكرت له على أن هـداني للإيمان ، فأصبحت مهديا بعد الضلالة مُنمّا على بعد الغواية ، نادما على ذنوبى آنامى التى أسلفت فى غابر

(١) روى أى قلبى (٢) العنقاء طائر معروف الاسم مجهول الجسم (٣) الحباثل جمع حبالة - وهى المصيدة (٤) برج فى السماء (٥) العنان سير اللجام الذى تمسك به الدابة

الحقبة . ولم أر كتاب الله المقدس ، إلا شكرت لصديقي الذي خلفته
بأنجلاها ، لأنه وضعه مع أمتعتي بدون أمر مني ، وحمدت الله إذ وفقني
لأنقاذه من السفينة حين غرقها .

وعلى هذه الحال ابتدأت سنتي الثالثة . وليعلم القارئ أني لم أعطه
كل التفاصيل لأعمالي التي قمت بها خلال هذه السنة الماضية ، لأن بعضها
لا تزدله قراءته ، وليتأكد أني لم أكن كسلا ، أو مقصرا في شيء من
نهجتي الذي رسمته لنفسى لأتبعه كل يوم ، فقد كان وفقى مرتبا ترتيبا
دقيقا بحسب ما يأتى .

« أولا » - أقوم للخلاق بما يجب من الصلاة ، ثم أقرأ جزءا من

كتابه المقدس ، وكان ذلك ثلاث مرات كل يوم

« ثانيا » - أخرج إلى القنص في الصباح متأبطا سبطاني ، وكان

ذلك يستغرق ثلاث ساعات

« ثالثا » - أرتب المسكن ، وأنظم أثاثه وأطهى الطعام الذي

حصلت عليه

ذلك النهج كان قانونا عندي واجب التنفيذ . ولا يفين عن ذهنك

أن وقت الهجير كان شديدا ، وحمارة القيظ تذيب دماغ الضب ، فكان

الخروج من سكني أثناء ذلك غير مرغوب فيه . ولذلك كانت ساعات

العمل في المساء لا تتجاوز أربعا . وكنت أحيانا أنسى القنص إلى المساء ،

وأقوم صباحا بشئون المنزل وتديره . وإنى أدع صعوبة العمل وبطأه

إلى تقدير القارئ فإن احتياجي إلى الآلات والمساعدة ، كان يستنفد مني

وقتا طويلا . ولتبين هذه الحقيقة أضرب لك مثلا ، لوح الخشب الذي

صنعتة رَقْرَقاً أضع عليه طرائفي ، فقد مكثت اثنين وأربعين يوماً في
تهيمئة . على أن رجلين بأدواتهما يقدران على إعداد ستة ألواح في نصف يوم
من الشجرة نفسها ، فقد كنت أقطع الشجرة العظيمة ، ثم أشذبها ، وأبتدى
في جانب منها فأعده ، ثم أعود إلى الجانب المقابل فأعمل به مثل ما عملت
بالأول ، حتى تصبح كثافته ^(١) موافقة ، ثم أبتدى في جعل ذلك اللوح
الخشن الملمس ناعماً . وتلك أعمال لا يمكن التغلب عليها إلا بالأسكند والصبر
وطول الزمن . وبتمسكي بتلك الخلال قدرت على صنع أشياء كثيرة كنت أراها
لازمة . وإني الآن في وقت انتظار ما تنتج الأرض ، مما غرسه يداي
من الشعير والأرز ، إذ كنت في شهر نوفمبر . ولعل القارئ يذكر أن
الأرض التي زرعناها لم تكن كبيرة ، لأنني كنت حذراً أن يذهب تعبى
سدى إذا أنكرت الأرض البذور . ولم أكد أسمر بحسن النبات حتى رأيت
خطراً يهددني في زرعى ، وذلك أن المعز والأرانب وجدت مرعى خصيباً
لأن سوق ^(٢) النبات كانت حلوة المذاق فراقها طعمها . وحينئذ وقعت
في حيرة من أمرى ، لأننى إن تركتها ذهب كل أملى في حاصلات أرضى .
فابتدأت أبتكرلى حيلة أبعدها تلك الحيوانات ، فلم أجد غير ما سأقصه عليك .
وذلك أن أعمل سياجا حول النبات من أوتاد ترد عاديات الشر عنه . وقد
فعلت ذلك في وقت لا يقل عن ثلاثة أسابيع . وكنت ليلاً آتى بكلبى ، وأربطه
بجانب الباب ، فكان ينبح طول الليل ، فتنفّر الحيوانات . واصطدت
قليلاً منها بيندقتى فهابت التردد ، وبذلك أمنت شرها ، ونما الزرع نمواً
حسناً ، واسكنى ما فرغت من شئ إلا وقعت فيما هو شر منه ، فلم آمن شر

(١) كثف كثافة غلظ (٢) السوق جمع ساق وهى جذع النبات

تلك الوحوش التي هددتني بالقضاء على رزقي ، حين كان النبات خضر الم
ينضج ، حتى وجدت الطيور ستأكله حين تم نضجه ، ونكاملت سنابله ،
فقد ذهبت يوما لأرى ما هنالك ، فوجدت حقلي محوطا بأنواع شتى من
طيور لا أعلم لي بحقيقتها ، وكانت تنظر إلي ، وترقبني حتى أعود كما أتيت ،
فتنقض على الثمار فتحاسكها . فألقيت بنفسى على الأرض واستويت فوقها ،
وأخذت بندقتى بيدي ، فما كدت أطلقها حتى تغطى الجو بسحابة كثيفة
من الطيور التي كانت في ثنايا النبات ، ثم ولت هاربة لا تلوى على شيء
حين ساءها صوت القذيفة . وقد كان حزني على ذلك عظيما ، لأنني تثبت
أن الحال إن دامت على ذلك قليلا ففسأفقد كل أمل لي ، وسأموت جوعا
حيث لا أقدر على الأنبات ثانية . وكنت في حيرة من أمري ، ولم أدر
ماذا أصنع ، غير أنني عولت على الدفاع عن حقى بقدر طاقتي ، ولو اقتضى
الأمر سهري بجانبه ليلا ، وقيامى عليه نهارا . وقد ترددت خلاله ، لأرى
ما حل به ، فوجدت الضرر عظيما ، ولكن إذا أمكن حفظ الباقي فسأحصل
منه على مقدار غير قليل . ولما ابتدأت في الخروج من الحقل ، نظرت
فوجدت عيون الطير تحديق إلى ، كأنها تريد أن أغادر المكان ، حتى ترى
رأيها في حاصلاتي . يا لله من هذه اللصوص التي تريد أن تسلبني حياتي ،
ولا طاقة لي بعقابها ، حتى تكف الأذى عني . وما كدت أغادر المكان ،
وأغيب عن نظرها حتى حلقت في الجو ، وانقضت على الحقل الواحدة تلو
الأخرى ، حتى كدت أطيش من شدة الهول ، ولم تتحمل نفسى رؤية
ذلك فسددت نحوها بندقتى ، فطار تلك اللصوص جزعة جادة في طيرها ،
ولكني جدلت منها ثلاثا هوت على الأرض ، فحمدت غيب رأيي ، وعاملتها

كما يعامل المجرمون الاثمون ، فعاقبتها في جبال لا خيف بها الأخرى ، فتَوَجَّلَ فلا تعود . وقد أتى عملي بالثمرة المرجوة إذ لم تعد تلك الطيور ثانية ، وغادرت ذلك الجزء من الجزيرة ولم أرها مادام هذا النطَّار^(١) . وقد امتلأ قلبي سرورا لذلك . وعند نهاية ديسمبر الذي كان وقت الحصاد الثاني من السنة ، حصدت غلاتي ، وكنت في حاجة الى منجِّل أحصد به . وقد فكرت في صنعه من سيف أو سكين مما أنقذته من السفينة ، ولكن غلتي هذه المرة كانت قليلة فلم أكن شديد الحاجة إلى المناجل . ولذلك قطفت السنابل بيدي ، وتركت السيقان في الأرض ، وحملت السنابل في سلة كبيرة ، ثم فصّلت منها الحبوب بيدي ، فوجدت الأرز والشعير نحو ستة وثلاثين قدحا . ولم يكن عندي مكيال أكيل به ، بل كان هذا التقدير مبنيا على الحدس والتخمين . ولسكني على قلة ما حصّلت عليه ، حمدت الله الذي وهب لي من الوسائل ما سأحصل منه على عيشي .

الآن وقد جمعت الحبوب فأنى لا أدري كيف أنظفها وأطحنها حتى تصير دقيقا؟ وكيف أعجنها وأخبزها حتى تكون خبزا؟ وجدت صعوبة في كل ذلك ، فصحت عزيمتي على عدم التفريط في الحبوب هذه المرة حتى أزرعها وأحصل منها على مقدار أوفى . وحينئذ يحق لي أن أكل بعضها ، وأحفظ جزءا للزراعة الآتية . وإني الآن يمكنني أن أعتبر نفسي ممن يعملون بنظام ، وينتظرون عاقبة عملهم للتمتع بشمراته الطيبة

حقاقت بتلك الأعمال التي رأيتها موصلة إلى غاية تفيدني ، وتحفظ على حياتي . وإن كانت شديدة الوقع في نفسي ، سيئة التأثير في

(١) النطَّار والناطور والناطر الخيال المنصوب بين الزرع

جسمي . نعم علمت أنها شاقة ، ولكن أني لم أغيرها ؛ فقد كنت بلا محراث
أفلح^(١) به الأرض ، وبلا فأس لا أحفر بها وأعزق^(٢) ، ولكن بحياتي
استبدلت بالفأس معولا من الخشب ، وإن كان يقتضى قوة أعظم . ولما
زرعت الحبوب لم أجد مسحاة^(٣) أسوى بها الأرض ، فاضطررت أن
أستعير بها قطعة ثقيلة من الخشب ، كنت أدحر بها على سطح الأرض
حتى تجعل عاليها سافلها .

وقبل أن يبلغ النبات أشده ، فكرت في أشياء كثيرة لأحفظه بها من
التلف ، وأحصده بها حين يأتي زمن الحصاد ، ثم أعزل منه الحبوب وأحملها
إلى مخزنها ، ثم فكرت أيضا في طاحونة لطحنه ، وغرابيل ومناخل لتخله ،
ثم في الخميرة والملح لعجنه ، وتحويله إلى خبز صالح للتغذية ، ثم أنون خبزه .
وسترى بعد أني استغنيت عن ذلك كله ، وأجهدت نفسي خلال الستة
الشهور التالية في تدبير الأدوات الضرورية التي كانت لازمة لتمتعى بالحبوب
بعد حصولي عليها

الفصل الثالث عشر

صنع روبنسن كروسو الخرف
واخترعه آلات لعمل الخبز



وقد رأيت قبل ذلك أن أهيب أرضا جديدة للزراعة ، لأن الحبوب
التي عندي كانت تكفي لزراع أكثر من فدان من الأرض . ولأقوم بهذا

(١) فلاح الأرض شقها (٢) عزق الأرض يعزقها شقها

(٣) المسحاة ما يسحق (يجرف) به كالجرافة إلا أنها من حديد

الواجب ابتدأت بعمل فأس من الخشب، استغرق صنعها أسبوعاً كاملاً، وكانت بعد الانتهاء منها ثقيلة تنطاب منى مجهوداً مضاعفاً. ولا أطيل عليك القول فقد زرعت قطعتين كبيرتين من الأرض المستوية وحطتهما بسياجين من الأوتاد التي قطعتهما من تلك الأشجار التي صنعت منها حياطى^(١) السابقة. وانتظرت أن يكون بعد عام واحد حول القطعتين سور متين لا يحتاج من آن لآخر إلا إلى إصلاح غير ذى بال. وقد استغرق هذا العمل نحو ثلاثة أشهر، لأن الأمطار أدركتنى، فكانت تازمنى البيت فى كثير من الأوقات.

ولما اضطررت للمكث فى منزلى كنت أقوم ببعض الأعمال، وأسر نفسى أثناء ذلك بتعليم البيغاء اسمه وهو « بول » حتى أتقنه، فكان ينطقه نطقاً محكماً. وكان اسم البيغاء أول كلمة سمعتها منذ وصولى هذه الجزيرة التي ليست مأهولة بأحد. وكنت فى خلوتى هذه فى أشد الحاجة لعمل بعض القصاع، ولكنى لم أدر كيف أصنعها؟ وبعد إعمال الفكر وطول التروى، وجدت من المتيسر تنعيم ذلك بحرارة الشمس، والحصول على أوعية لحفظ الأشياء فيها. ولما كنت مضطراً لبعضها ليملاً بالحبوب والدقيق، اجتهدت فى أن يكون بعض ما أعمل كبيراً، بحيث يصلح لهذه الغاية. وقد تأخذ القارىء الشفقة علىّ، أو يضحك منى، إذا أخبرته عن الطرق التي اتبعتها، وعن الأشكال القبيحة المنظر التي أحدثتها، وعن العدد الذى ماتكامل حتى أنهار، لعدم تحمل الأوعية ثقل المادة التي صنعت

(١) حياط جمع حائط

منها وكيف تشقق البعض لشدة الحرارة، ولوضعه فيها قبل أن يجف نواماً، ثم كيف تكسرت عند تحريكها من مكانها، ولا أطيل عليك فقد تعبت في البحث عن التربة المناسبة لهذا النوع من العمل، وبعد ذلك حفرتها، وحملت منها إلى المنزل ما أردت، ثم أعدتها. وبعد كل هذا العناء لم أحصل في شهرين إلا على جرتين كبيرتين. وعند جفافهما جفافاً تاماً، وضعتها في سلتين كبيرتين، صنعتهما لهذا الغرض، خشية أن تكونا معرضتين للكسر. وملاأت الفراغ الذي وجد بين السلتين والجرتين بطين الشعير والأرز، وأقت الجرتين معاً في مكان حريز حتى لا يتسرب إليهما البلل وليحفظا الحبوب والدقيق.

وإني وإن أخفقت في صنع الجرار الكبيرة، فقد نجحت نجاحاً عظيماً في عمل الأواني الصغيرة، لأنني أتممت كثيراً منها بسهولة، وكانت الشمس تجعلها غاية في الصلابة والمتانة، والى كنى كنت في أقصى الحاجات إلى أوان تتحمل النار لأضع فيها السوائل، لأن كل هذه التي صنعتها لم تكن تقوم بهذا الغرض. وفي يوم من الأيام أوريث ناراً عظيمة، وأشعلتها لأشوى لما كان عندي. ولما فرغت منها ذهبت لأطفئها، فوجدت فيها قطعة خزفية من الأواني التي صنعتها، وكانت احترقت حتى أصبحت كالجمود صلبة وقوة. وكانت حمراء كالآجر. فدهشت لذلك، واستنبطت طريقة أصل بها إلى غرضي، للحصول على جرار صالحة، لكل أنواع الاستعمال. فابتدأت أفكر كيف أوقد ناري، لأحرق بعض الأواني، لأنني لا أعرف الأفران التي يستعملها أرباب المصانع الخزفية، ولا الطريقة

التي يسايسكونها لذلك ، واسكنى جمعت ثلاث قدور ، ومثل هذا العدد من
 الأباريق ، ثم وضعتها في شكل كومة بعضها على بعض ، وحطتها بالنار من
 جميع جهاتها . وكان تحتها جرات شديدة الانقاد . وأمدت النار بقوة
 جديد حول الأواني الفخارية وفوقها ، حتى رأيتها تحترق احتراقا جعل
 كل ذرة منها محمرة . ولم أشاهد فيها صدعا من الحرارة ، فتركها على هذه
 الحال نحو خمس ساعات حتى أخذت إحداها تنوب وإن لم تتشقق ، وذلك
 أن ما كان قد اختلط بالطين من الرمل قد صهر من شدة الحرارة . وربما
 تحول إلى زجاج لو استمرت النار على هذه الشدة . ولهذا أضعفت قوة النار
 تدريجا حتى اضمحل اللون الأحمر . وبت طول الليل بجانبها حتى لا تحمد
 النار إلا تدريجا ، فوجدت القدور في الصباح كما كنت أبغى من الصلابة ،
 وإبريقين في حالة مرضية جدا ، وقد تحول أحدهما إلى مادة زجاجية بما
 ذاب من الرمل . وبعد هذه التجربة لم أفترق إلى أوان للاستعمال ، وإن لم
 يكن شكل ما صنعت منها حسنا . وربما لا يمكن الإنسان أن يتصور
 رجلا قد سر سرورا عظيما بالحصول على شيء حقير سرورى بوجود هذه
 الأواني التي تتحمل النار والماء . ولم أطق صبرا حتى تبرد تلك الأوعية ،
 فقد وضعت في قدر قليل من الماء ، ووضعتها على النار وفيها قطعة من اللحم
 فتم طهيها . وكانت طعاما راقى مذاقه ، وبقية قطعة أخرى من لحم جدى صنعت
 حساء ، فكانت كما أحببت ، وإن نقصت كثيرا من المواد التي توضع في
 الحساء عادة .

وبعد تذليل الصعوبة السابقة ، ابتدأت أفكر في الحصول على

هاون^(١) من الحجر ، لأدق فيه الجبوب ، لأن الحصول على طاحونة
كان من الأشياء التي لم أتعب نفسي كثيرا في التفكير فيها . وكيف أذلل
هذه العقبة عقبه الهاون ولم أعود قطع الأجزاء من الجبال ، وليس عندي
من الآلات ما يشجعني على قطعها . ولذلك أمضيت أياما عدة في البحث
عن حجر كبير صلب ، لأحفره من الوسط ، وأتخذ السحق الجبوب
فيه ، واسكني لم أوفق إلى ذلك ، فقد كانت حجارة التلال المجاورة رملية
لا تتحمل الدق ، ولا تنفي بفرضي ، لأن أجزاءها تتفكك بسرعة فيمختلط
ما يتناثر منها من الرمل بالدقيق فيفسده ، ويصبح غير صالح للاستعمال ،
وبعد جهد تحول فكري عن الحجارة إلى الخشب فقطعت شجرة ضخمة ،
استخلصت منها قطعة مناسبة شدتها من الخارج ، وحفرتها من الداخل
بالنار ، حتى أصبحت تقي بما أردت منها . وكذلك يفعل أهل البرازيل
في صنع زوارقهم ، وبعد الفراغ من الهاون صنعت لي مدقا من الشجر
الذي يدعى « بالحيدي » ، وحفظت الهاون ويده حتى يأتي وقتها ، وهو
وقت الحصاد الآتي ، فقد عوات على صنع خبز من غلة الأرض التي
قاسيت في زرعها الأهوال . حِيلَ مَسْأَلَةِ حَيْلٍ

وكانت أعقد العقد بعد ذلك الحصول على منخل ، لأنني الدقيق مما سألني
به من المواد التي لا تصلح للتغذية ، والتي إذا استمرت مع الدقيق يصبح
غير نافع لي . ولم يكن في حوزتي شيء من المنسوجات الدقيقة التي يمكن

(١) الهاون بفتح الواو وضمة الهاء والواو الذي يدق فيه الدواء وغيره . قيل هو

عربي وقيل هو معرب

استخدامها في هذا الغرض . ولا أنكر أنى أجد أوبار المعز، ولكنى لا علم
لى بغزلها، ولا بنسجها، وإن علمت ذلك فأنى لى بالآلات التى لا بد منها فى
تنفيذ ما أردت . وقد عجزت عن تدليل هذه العقبة السكود^(١) بضعة
شهور، حتى اهتديت آخر الأمر إلى تذكر قطعة من المنسوجات التى
أنقذتها من السفينة، كانت توافق هذا الغرض، فصنعت منها ثلاثة مناخل
صغيرة، قامت لى خير قيام بما أردت منها عدة سنين، وسأقص عليك بعد
ما فعلت حين بليت .

ولما انتقلت إلى التفكير فى الخبز، وجدت الحصول على الخيرة غير
متيسر، فعولت على مباشرة العمل بدونها، وحينئذ ابتدأت أفكر فى
تنور^(٢) لآخبز فيه رغفانى، فهدانى الفكر إلى الطريقة الآتية : وهى
أنى صنعت بضعة أوعية خزفية، جعلت قطرها ذراعا، وارتفاعها تسعة
قراريط، وأحرقها بالنار كما فعلت قبلا وحفظتها . وكلما أردت الخبز
أوقدت نارا فى الموقد الذى رصفت أرضه بأجر من صنعى، وانتظرت
حتى تنتهى قطع الخشب من الأحراق، وتحول إلى جمر متقد، فأعطى
به الموقد كله، وأتركه حتى يصير ساخنا جدا، ثم أنظف الموقد، وأجمع
الجر بعيدا عنه، وأضع أرغفتى فيه، ثم أعطيها بتلك الأوعية التى سبق
وصفها، وأحوطها بالجر المتقد، وأزيد عليه لتحفظ الحرارة داخل القدور .
وبهذه الطريقة كنت أحصل على خبز كأحسن ما يكون فى أى تنور،
وكنت أصنع لى كعكا من دقيق الأرز، وكان فى إمكان أن أخبز وأطهى
أشياء كثيرة لوتهيأت لى الوسائل الأولى لها .

عندى ، ولستكنى لم أفكر فى الصعوبة التى لا يمكننى التغلب عليها وهى إنزال الزورق إلى الماء بعد الفراغ من صنعه . ماذا تكون العاقبة حين أقطع الشجرة ، وأزيل عنها الأغصان ، ثم أجهد نفسى فتصيح زورقا ؟ أتركه هناك لقلة الأيدي المساعدة ، وقد تعبت فيه كل ذلك التعب ! إن العاقل ليدعش لقلة تفكيرى فى نتيجة عملى ، فقد كان من السهل عندى أن أقود هذا الزورق فى البحار مسافات بعيدة ، مع عجزى عن إيصاله إلى الماء . وجره بضع أقدام . ابتدأت العمل بقوة ونشاط . وكنت كلما اعتورتى فكرة نقله أبعدتها ، وأجبت هواجسى بهذا الجواب « على أن أصنعه أولا ، وحينئذ لا أعدم وسيلة للوصول إلى غرضى » . ولم يكن هذا المشروع صائبا ، ولكن ميلى إليه شغفى على إتمامه بشوق عظيم . فقطعت شجرة ضخمة كان قطرهما مما يلى الأرض يزيد على خمس أقدام ، ومن نهايتها الأخرى يزيد على أربع ، وكانت المسافة بين النهايتين اثنتين وعشرين قدما . وقد مكنت عشرين يوما لقطعها ، وأربعين لآ قطع عنها غصونها وفروعها ، وشهرا لأصيرها على شكل السفن ، وثلاثة أشهر أخرى لحفرها من الداخل حتى تكون زورقا متقنا . وقد كان عند انتهائه زورقا جميلا متينا ، يسع أكثر من عشرين رجلا ، ويحمل حمولة كبيرة . وكان سرورى عظيما لقدرتى على إنشائه ، وإخراجه على تلك الصورة البديعة التى صورته بها . وكان شغلى الشاغل بعد ذلك أن أحمله إلى الماء .

وقد ذهبت كل أعمالى التى تحماتها لأيصاله إلى الماء أدراج الرياح . وكان بعده عن الماء لا يزيد على مائة وخمس وثلاثين ذراعا . ومما جعل العمل شاقا وقوعه على التل ، ففكرت فى عمل منحدر من الأرض ، لأزاق

الزورق عليه . وأنفقت فيه ساعات شاقة ، ولكنى بعد الفراغ وجدته
عاجزا عن تحريكه .

رجعت لنفسى فقدرت المسافة بين الزورق والماء ، وعزمت على حفر
قناة تغمرها المياه حتى تصل إلى الزورق ، ولكنى ما ابتدأت العمل حتى
فكرت فيما أنا قادم عليه ، فإن القناة يجب أن تكون عميقة متسعة ، والمواد
المحفورة لا بد من إبعادها . فاستنبطت من ذلك أن العمل لا يتم إلا بعد
اثنى عشرة سنة ، لأن نهاية الشاطئ كانت مرتفعة ، بحيث لا يقل ارتفاعها
عن عشرين قدما . وبعد لأمى ماعدات عن هذا المشروع بعد أن استولى
على الجزع ، وابتدأت أرى حمقى فى عمل شئ لا أعرف له نهاية ، وفى وسط
هذا العمل انتهت السنة الرابعة من إقامتى فى هذه الجزيرة ، فاحتفلت
بإنهائها هادى البال مطمئنا ، لأن دوام قراءتى الكتاب المقدس أثار فى
نفسى أفكارا تضاد تلك التى ملأت قلبى ، واستولت على عواطفى من قبل ،
فقد أصبحت أنظر إلى الدنيا كأنها شئ لا تربطنى به أية رابطة ، ولا أنتظر
منه أى نفع . فقد عشت فيها ، ولكنى كنت خارجا عنها . وبعدت عن
شروطها وآثامها ، وحرمت لذة الحياة ، ولكنى كنت سيد نفسى ، ومالك
تلك الأرض الشاسعة الأطراف ، الممتدة الجوانب . كنت ملكا ، وإن
شئت فقل قيصرا ، لا يبارينى مبار ، ولا يزاخنى مزاحم . كنت أستطيع
أن أملا سفنا بالحنطة لتصديرها إلى الخارج ، ولكنى لم أكن فى حاجة
إلى ذلك ، فافتصرت على زراعة ما يكفينى . وكان عندى كثير من السلاحف ،
ولكن واحدة منها كانت تكفينى طويلا . وتحت يدى من الخشب ما يكفى

لبناء أسطول من السفن . وعندى من العنب ما يكفي لعمل الراح ، وإن جفف يكفي لملء سفن عدة . وكان عندى ما يكفي لأكلى وكل حاجى الأخرى . فلماذا أهتم بغير ذلك ؟ إذا قتلت حيوانا وزاد لحمه عن حاجتى تركته للكلب أو للدود ينشه ، وإذا زرعت حبوا بأكثر من طعامى لأبد أن أترك حتى يعيث فيها السوس فسادا ، وإذا قطعت شجرة تركتها تعطب لأنى لا آخذ منها إلا ما يدفئنى أو ينضج طعامى . ولا أسهب فى القول فقد أملت على تجارى ، ومعرفى بطبيعة الأشياء وحقيقتها ، أن الشئ الغافع لا يكون نافعا إلا بقدر احتياجنا إليه ، واستعماله . ومهما جمعنا وبالغنا فى الادخار لنترك لغيرنا لا نتمتع إلا بما نستعمل . ولو وجد أبخل الناس وأجشعهم ، وأحرصهم على الجمع والحفظ فى مكانى لشفى مما به . فقد كنت لا أرغب فى شئ مما يرغب فيه الناس عادة ، إلا أشياء قليلة كانت لو حصلت عليها عظيمة النفع لى ، وإن كانت حقيرة فى نفسها . وقد كان عندى كيس فيه نقود تقدر بستمائة وثلاثين جنيها من الذهب والفضة ، ولكن ماذا أصنع بها ؟ لقد تركتها تصدأ لعدم فائدها لى . وكثيرا كنت أفكر فى أنى أكون سعيدا لو حصلت على ريب للتدخين ، أو ربحى لسحق الجيوب ، أو قليل من بذور الخضر ، كاللوبيا والسلجم^(١) والفول والجزر ، أو زجاجة من الجبر نظير ملء اليد ذهبا . ولوملت خزائى بالماس لم أكن لأهتم به لأنه عديم النفع لى . ولقد تمكنت من تهدئة نفسى وإرضائها بعيشى . وكثيرا جلست إلى المائدة . وأنا مرتاح النفس ، منشراح

(١) السلجم : نبت يعرف باللفت

الصدر، شاكر ربى على أن هيا لى مثل هذا الطعام فى هذا التيه الذى يضل فيه العقل. وكنت أميل إلى تعداد نعم الله على منى إلى التفكير فيما حرمنى إياه، كما كنت فى هذا السكون أعجب من لا ينظرون إلى ما أسبغ الله عليهم من نعم، ويطالبون ما عند غيرهم مما حرمهم إياه، وربما كان سبب ذلك هو عدم شكر الله على ما أعطانا. وقد ملأت فكرة أخرى فؤادى، وانتفعت بها. وهى بلا ريب تساعد من هم فى حال كحالى، وتلك هى موازنة ما أنا فيه بما ظننت أنى سأكأبده حين وصولى إلى الجزيرة، بل بما كنت متبثبا منه. وما ظنك بى لو غرقت السفينة بعيدا عن الشاطئ، فلم أتمكن من الذهاب إليها، وإنقاذ كثير مما لا غنى لى عنه، كالألات التى ساعدتنى على تفريج الضيق الذى سد على مذاهبى حتى عميت على طريقى. والأساحة التى أحصن بها نفسى، وأصيد بها لغدائى. إنى صورت لنفسى حالى بدون ما أنقذت من السفينة، فوجدت الصورة التى مثلها لها صورة مظلمة تقشعر منها الأبدان، وتولى هربا من هولها الشجعان. فربما هلكت قبل أن أجد سمكا أو سلاحف لطعامى، لأن ذلك هو الغذاء الوحيد لو لم أجد سلاحا. ولو ساعدنى الحظ فاقتنصت ما عزا أو طائرا لم أجد سلاحا أبقره به، فكنت أمزقه بأنيابى ومخالبى، كما تفعل الوحوش. وكانت هذه التخيلات بردا وسلاما على نفسى، فحمدت الله على ما أنا فيه على الرغم من كل ضيق وشدة. وإنى أنصح كل زار^(١) على القدر، ومن يستعظم مصائبه، أن ينظر إلى أرزاء غيره، أو شدته التى

قد تكون شرا مما هو فيه . وقد وجدت مهدئا آخر لشجونى وأحزائى .
وهو ما أستحقه من العقاب على الحياة الأولى التى كانت ملأى بالشـر ، ولم
تخطر على بالى فيها عبادة الله ، أو التفكير فى شأنه عز وجل . حقا كان
لى أبوان رحيمان ، قد غرسا فى نفسى حب الله والخوف منه ، ولكن
شغفى بالملاحسة والملاحين فى أيامى الأولى ، قد أفسد على كل شىء ،
واجتث ما فى نفسى من نزعة إلى الدين ، لأن الملاحسة ومعاشرة أهلها فى
السفن شر على المرء من كل ما جنت يده . فالملاحون قوم لا يعرفون الله
ولا يذكرونه ، وإن كانت حياتهم تفيض بالأخطار والمهلك . وقد كنت
بعيدا من كل خير ، فلم أفكر قط أن أقوم لله بشكره على ما أولانى .
فقد فررت من سألنى ، وأخذنى رب السفينة البرتغالى ، وحسنت حالى فى
البرازيل ، ووصلنى من إنجلترا كل ما أرسلت فى طلبه ، ولم تحدثنى نفسى
أن أشكر الله ، بل كنت لا أذكر لفظ الجلالة إلا لليمين الفاجرة ، والقسم
الحائث الآثم . ولقد جزعت وفاضت عيني من الدمع حزنا على حالى التى كنت
فيها ، عاقلا والدى ، جاحدا نعمة الله عندى . وكنت كلما فكرت فى ذلك ، وفيما
كنت أستحقه من العقاب الأليم ، وأرى ما أنا فيه ، وما أغدق الله على من
الأيادى ، أشعر بأنه سبحانه قد قبل توبتى ، وأنه يغفر الذنوب جميعا ،
ويعفو عن كثير . وبعد أن استعرضت لنفسى كل هذه العواطف ، وعلمت
ما أنا رافع فيه من النعيم ، وما أنا مستحقه من العقاب على ما أسلفت ،
امتلا قلبى إيمانا وخشوعا ، وطفقت أعبد الله على آلائه التى لا تحصى .
فقد حصلت على الحبوب التى أغذى نفسى بها بطريق لا يخطر لأحد على
خاطر ، ووجدت فى جزيرة لا ظل للوحش فيها ، وقد كانت لحوم طيورها

غير ضارة . وقصارى القول أنى لم أجد أى جزء من العالم المهجور خيرا من هذا الجزء الذى أعيش فيه . وإذا نظرت إلى حياتى فوجدت جانبا منها ممتلئا بالأحزان ، فأن الآخر كان عامرا بالرحمة والشفقة ، وكان جل ما أصبو إليه أن أقوم لله بفرائضه ، شكرا على ما أولانيه فى هذا التيه المقطوع عن العالم .

وكان مكئى فى الجزيرة قد طال ، فابتدأت أشعر بنفاد ما عندى من ميرة ، إذ كان بعض ما أحضرت من السفينة لمساعدتى قد نفى ، وبعضه الآخر قد أوشك أن ينفى . فقد نفذ المداد الذى كنت أنتفع به ، وكنت أمزجه بالماء مرة بعد أخرى حتى بات لا يصلح للاستعمال ، ولا يترك أقل أثر من السواد على الورق . وكنت أيام وجود الخبر أكتب أيام الشهر وأثبت فى كل منها ما يحدث لى من الطورى . وقد حلت بى حوادث لو كنت من ذوى الوسوس أو ممن تجدد الخرافات إلى قلوبهم طريقا ، لألفيت فيها كثيرا من العبر ، ولقد اتنى إلى التبصر وحب البحث والتدبر . لأننى لاحظت أن اليوم الذى غادرت فيه أبى وأصدقائى ، وهربت إلى « هـل » لأكون بحارا ، كان بعد ذلك نفس اليوم الذى أسرتنى فيه بارجة سالى ، فأصبحت عباد رقيقا . وفى اليوم نفسه نجوت من الفرق فى طرق « يارمـث » ثم عدت فنجوت فيه بعد سنة من سالى فى الزورق . وفى اليوم عينه من السنة - وأعنى به ٣٠ سبتمبر - ولدت ، وفيه نجوت بأعجوبة بعد ست وعشرين سنة حين رمتنى المتعاقبات على هذه الجزيرة . وعلى هذا تكون حياتى الآتية ، وتلك التى عشتها طريدا وحيدا قد ابتدأت فى يوم واحد . وبعد نفاد المداد نفذ الخبر الذى كنت أنقذته من

السفينة، مع حسن تدبيرى، وجميل اقتصادى، إذ كنت أكل منه القليل. وبقيت سنة وأنا بلا زاد حتى وفقت للعثور على الجبوب. وقد نفعتى الزبيب الذى كنت أتغذى به.

أما ملابسى فقد ابتدأ بها البلى حتى أتى عليها، فأصبحت قليلة التماسك، شديدة التقاطع والتنافر. وقد أنقذت فيما حملت من السفينة بعض قصاصات كانت كبيرة النفع لى، لأننى لم ألبس غيرها فى أكثر أيامى لحرارة الجو، وكان عددها يبلغ الستة والثلاثين. وكان عندى معاطف ثقيلة أهملتها لنقلها، فما كنت أطيق لبسها. وإنى لم أرد أن أكون عارى الجسم، وإن كنت وحيدا فى جوشديد الحرارة، فكنت أعارض النزوع إلى ذلك بأرادة قوية.

ومن الأسباب التى منعتنى من خلع الثياب، والسير بدونها، شدة الحرارة، فقد كانت تحرق جسمى إذا سرت بلا ساتر له. وكنت أجد القميص إذا لبسته يلطف من حرارة الجو، إذا عبثت به الريح فركته. وكنت لا أجروء على السير فى الشمس بلا فلنسوة أعطى بها رأسى، لأن عظم الحرارة كان يسبب لى صداعا أعيا عن تحمله.

ابتدأت أجمع ما عندى من الخرق الباقية، وفكرت فى جمعها بعضها مع بعض، وعمل ثوب منها، فهدانى البحث، وقادتنى الحيل لخياطتها، فخصات على ما كنت أبغى، وإن لم يرق جمال الثوب فى نظرى. وقد كنت أحافظ على جلود الحيوانات التى ضحيت بها، فكنت أعلقها على عصي معرصة لحرارة الشمس، فحفف بعضها وأصبح لا يصلح لشيء، فى حين كان بعضها الآخر طيبا يمكن الانتفاع به، فعملت فلنسوة

جعلتها جُنَّةً^(١) لرأسى من ضربات الشمس ، ثم ثنيت بأعداد بذلة^(٢) لي من تلك الجلود ، نخطت سروالا ومعطفًا . واست في حاجة لأخبارك بأنها ملابس ضرورة ، ولولا الحاجة مالبستها ، ولكنها أفادتني ، وأى فائدة كهذه ، فقد وقيت بها جسمي ، وردت عني المطر وضرره ، حين كانت تأخذني السماء .

وبعد ذلك أضعت كثيرا من وقتي لأصنع مظلة^(٣) ، فقد كنت شديد الحاجة إليها ، وكان عزمي موجهًا للنجاح فيها . إني رأيت المظلات تصنع في البرازيل حيث الحرارة عظيمة ، وليست هنا بأقل منها هناك ، بل هي أعظم ، لقرب الجزيرة من خط الاستواء . وكانت من الضروريات عندي ، لأدفع بها الشمس ، وأتقي بها المطر . لأنني كنت مضطر للتغيب عن سكني ، وارتياذ الأمكنة . وقد تعبت وأضناني الجهد حتى نجحت في عمل واحدة . وكانت الصعوبة الجُلِّي في إقفالها بعد صنعها . وحين وفقت لتذليل هذه العقبة كسوتها بجلد جعلت شعره إلى الخارج ، فكان يرد المطر عني ، ويحميني منه ، ويقيني شر الهاجرة ، فكنت أسير معها كان الجو حارا . وعند الاستغناء عنها أفلها وأضعها تحت إبطي . وهكذا عشت مراتح الاطوار ، مطمئن الفؤاد متكلا على بارئ النسم ، فكانت حياتي أسعد من حياة الجماعات ، لاني كلما شعرت بحاجة إلى المحادثة أسأل نفسي قائلا « أليس حديثي مع نفسي ، ومناجاتي لله سبحانه ، أبقى لي وأمتع من أتم سرور لأي جماعة من الجماعات » وأعلها بالقول المأثور « إذا لم يكن ماتريد فأرد ما يكون » .

(١) الجُنَّة الوقاية (٢) البذلة من الثياب بالكسر ما يستعمل كل يوم (٣) شمسية

الفصل الخامس عشر

صنع روبنسن كروسو ركوة وما قاساه من الأخطار في البحر

لا يمكنني أن أحدثك بعجيب حدث لي بعد ذلك مدة خمس سنين، فقد عشت كما وصفت قبلا في المكان نفسه، وبالطريقة عينها. وكان وقتي مقسما بين أعمالى التى كنت أبشرها كل يوم، من الخروج والقنص وغيرهما، وأعمالى السنوية من زراعة وحصد وسواهما. وبجانب تلك الأعمال كنت أبني لى ركوة^(١) فأنمتها، وحفرت لها قناة يبلغ اتساعها ست أقدام، وعمقها أربعا. وقد غمرتها المياه فتمكنت بذلك من إيصال الركوة إلى النهر الذى كان على بعد نصف ميل منها. أما الزورق الأول فكان كبير الحجم، ولذلك أعجزنى عن توصيله إلى الماء، فقد صنعته قبل أن أفكر وأتدبر عاقبة أمره، ولكنه كان تذكارا يذكرنى أن أكون حكيما فى المستقبل.

ولما فرغت من صنع الركوة وجدت حجمها صغيرا لا يقوى على مساعدتى، لتنفيذ خطى التى كانت عندى حين صنعت الزورق الأول، تلك الخطة التى كانت الوصول إلى الأرض التى تراءت لى على بعد لا يقل عن أربعين ميلا. فعولت على تغيير خطى، وأردت الآن القيام بعمل جديد، ألا وهو الطواف حول هذه الجزيرة، لأن السياحة التى قت بها فى الداخل حببت لى كشف شواطئها بحرا. ولهذا ابتدأت أعدد ركوتى،

(١) الركوة الزورق الصغير



فتمكنت بذلك من إيصال الركوة إلى النهر

فصنعت لها دَقَلا ، ووضعت عليه شراعا أعدته من شُرْع السفينة التي أنقذتها .

ولما جربت الركوة فوجدتها تصالح لهذا الغرض ، وتطفو على وجه الماء سائرة سيرا حسنا ، صنعت بعض صناديق لأضع فيها ما أحمل من المتاع لأحفظه من الماء والمطر . وقد نصبت مظلي في مؤخر الركوة لأستظل بظلاها من حرارة الشمس . وعلى هذا كنت أقوم بسياحات صغيرة في البحر ، ولكنني لم أذهب بعيدا عن النهر الذي سبق ذكره . ولما امتلأت نفسي بحب كشف الجزيرة ، ومعرفة حالها ، شرعت في إعداد معدات السياحة ، فأخذت نحو أربعة وعشرين رغيفا ، وجرة ملأى بالأرز المجفف الذي كنت آكل منه كثيرا ، وزجاجة صغيرة ملأى بالشراب ، ونصف ماعز وبارودا ، وقذائف لأصيد عند الحاجة ، ومعطفين كبيرين من المعاطف التي أنقذتها من أمتعة البحارة ، فكنت أفرش واحدا وأندثر^(١) بالآخر

وكان خروجي لهذه السياحة في السادس من شهر نوفمبر ، في السنة السادسة من أسرى بهذه الجزيرة . وقد طالت سياحتي عما كنت مقدرا لها ، لأن الجزيرة وإن لم تكن كبيرة فقد وجدت عقبات في طريقي ، إذ وجدت حين اتجهت مشرقا ، صخورا عظيمة ممتدة في البحر نحو غلوتين ، وكان بعضها ظاهرا فوق الماء ، وبعضها تغمره اللجج . وكانت هناك مسافة

(١) تدثر بالثوب اشتعل به داخلا فيه ، والدثار الثوب الذي يلبس فوق الشعار ، وما يتغطى به النائم

رمالية تقدر بنصف ميل ، فكنت مضطرا أن أذهب في البحر مسافات بعيدة لأبمد عن هذه العوائق . وقد خطر لي أن أترك هذا المشروع خشية أن أخفق ^(١) فيه ، وأضطر للسير في البحر مسافات بعيدة ربما أكون عاجزا بعدها عن العودة ، فرسوت بروكوتى ، وألقيت بأنجر كنت أعدته من خطاف أنقذه من السفينة لضبطها . ولما أمنت على الركوة أخذت سبطانتي ، وتسلمت تلاحناك يشرف على تلك الجهة ، فرأيت امتداد الصخور وعولت على تنفيذ ما بداته . ولما كنت متجهًا نحو البحر رأيت تيارا شديدا قاصفا يجرى شرقا ، ويكاد يصل إلى هذه النقطة . وأمنت في تعرفه لأصل إلى حقيقته ، لأنني تخوفت أن يحمنى إذا وصلت إليه بعيدا عن طريقي ، فلا أقدر على الرجوع ثانية إلى الجزيرة . وقد كان حقا ما ظننت فأني لو لم أفق هنا عاليا مختبرا التيار لوقعت في هذا المحذور ، فقد كان التيار في الجانب الآخر من الجزيرة كما هو في هذه الجهة وإن امتد أكثر من هذا ، فلم أجد لي بدا من الخروج من هذا التيار . وكان الماء بجانب الشاطئ يتشكل بشكل دوائر شديدة الدوران ، فاضطرت للبقاء يومين حيث كنت لأن الرياح هبت شرقية جنوبية بانحراف كثير إلى الشرق ، مخالفة اتجاه التيار المتقدم الذكر ، فأحدثت هوة عظيمة ، وتكسرافى المياه ، فلم تكن الطريق آمنة لأن جانب الشاطئ مخيف لتكسر الماء فيه ، والذهاب بعيدا عنه أخوف لوجود التيار . وفي صباح اليوم الثالث ألقيت البحر هادئا ، لأن الرياح سكنت ليلا ، فابتدأت سياحتي ، فلم أكد أشرع فيها وأترك الشاطئ بضع

(١) أخفق الرجل طلب حاجة فلم يظفر بها

خطوات قليلة حتى وجدتني في مياه عظيمة العمق ، وأبصرت التيار قاصفا
كأنه فتحة خزان عظيم يغمرها الماء ، فحمتني المياه وبعدت بي فلم أقدر على
إرشاد الزورق أو ضبطه . وكل ما قدرت عليه من التجديف لم يثمر شيئا .
فأسأمت نفسي للخطر ، لأنني علمت أن بالجانب الآخر من الجزيرة تيارا ،
وأنهما سيتصلان بعد بضعة أميال ، وحينئذ لا أمل في النجاة . ولم يكن
البحر وحده منبع الخطر ، بل كان فقدان الطعام أخوف منه عندي ، فقد كان
مامعى من الغذاء لا يبقى بجأجى طويلا ، لأنه لم يكن من المحتمل أن أقابل
الشواطئ قبل قطع آلاف الأميال التى يستغرق قطعها أياما وليالى عدة .
كانت حالى على ما ترى بين السماء والماء ، ولا أمل لى في النجاة . فهل
يخلق الله مخلوقا أتمس منى حظا ؟ لم أكن قادرا على تصور حال أشق مما
ابتليت بها . فابتدأت الآن أنظر إلى الجزيرة الموحشة بعين مأوها الأسى .
وقلت لنفسى لو تمكنت من العودة إليها لقنعت بها ، وامتلا قلبى سرورا ،
وأفعم حبورا . وقد مددت يدي إليها ، ونار الشوق تضطرم في فؤادى ،
وناديت بأعلى صوتى « أيتها المهجورة السعيدة . قد فقدتك إلى الأبد .
ويأيتها المخلوق الشقى إلى أين أنت ذاهب ؟ » ابتداء ضميرى يوسفى لوما على
ججدى للنعمة ، وكفرى بالآلاء ، فقد كرهت مقامى بالجزيرة . والآن
لا أجد لى مقاما خيرا منه لو أتيح لى أن أصل إليه . وهكذا لا يعرف
المرء قدر الأشياء حتى يرى أضدادها ، ولا مقدار ما يتمتع به حتى يحتاج
إليه . ولا إخالك تقدر ما كنت فيه من القلق لطردى من جزيرتى المحبوبة .
لأنها كانت عندى فى تلك المنزلة العظيمة بعد أن فقدتها - إلى المحيط ،
وتوغلى فيه ، وليس أمامى طريق لعودتى إليها مرة ثانية . ولكنى كما دقت

اشتغلت بمجد لا يتسرب إليه الوهن حتى خارت قواى ، فقدت الر كوة إلى الشمال . وبعد الزوال أحسست نسيما يمر على وجهى منبعنا من الجنوب الشرقى ، فانتعش فؤادى لذلك . وبعد نصف ساعة هب نسيم رقيق أقوى من سابقه ، وكنت حينئذ على بعد شاسع من الجزيرة . ولوعر ضت سحابة فى الجو ، خالت بينى وبين رؤيتها ، لتضعف هبى ، واشتدت غير الدهر وصروفه على ، لاني أصبح غير قادر على توجيه ركوتى إلى الجهة التى أحبها حين تساعدنى الانواء ، إذ لم أحمل معى إبرة مغناطيسية لأعرف بها الجهات . ولا أطيل على القارئ القول فقد أقت الدقل ونشرت عليه الشراع ، واتجهت شمالا لا غادر التيار وأنجو منه . وما كدت أبدأ فى السير حتى علمت من صفاء الماء أن تغيرا فى التيار أصبح قريبا ، لأن التيار يشتد حين تتغير المياه ، ولكنى وجدت الماء صافيا فانتظرت أن تقل قوة التيار . وبعد قليل رأيت شرقا انكسارا للماء على بعض الصخور ، ووجدت هذه الصخور سببت انفصال التيار ثانية ، فاتجهت قوته العظيمة نحو الجنوب تاركة الصخور إلى الشمال الشرقى . وأحدث ما بقى منه برد فعل الصخور انكسارا ، ودورانا عظيما فى الماء ، جعله يعود ثانية إلى الشمال الغربى بتيار حاد . ولا يعرف مقدار فرحى وسرورى إلا أولئك الذين أمهلوا وهم فى فكى الموت بين النطع ^(١) والسيف ، أو أولئك الذين أنقذوا من اللصوص وهم يدون أيديهم لا غتيالهم ، أو أولئك الذين حكم عليهم فماسوا مثل ما أقاسى . سرت بر كوتى فساعدتنى الريح ، ولما وصلت قرب الجزيرة وجدتني نحو شاطئها الشمالى مقابل الجهة

(١) النطع والنطع والنطع وأفصحها الأخير بساط من الأديم وجمعه

التي خرجت منها . وفي هذه النقطة وجدت الماء ساكنا فعولت على التجديف نحو الشاطئ ، فلم أترك وقتا يضيع بلا ثمرة ، فأعملت كل قوتي حتى عدت بركوتي إلى الجزيرة .

وما كدت أضع قدمي فوق ثراها حتى سجدت لله شكرا على ما أولانيه من الخلاص والأمان . ثم طردت من نفسي كل فكرة ترمي لنجاتي بهذه الركوة . ولما تناولت بعض الطعام والمنعشات ، أخذت ركوتي إلى فرضة (١) بالشاطئ ، فأرسيتهما بها ، ثم اضطجعت لأنام بعد ذلك التعب المضني .

أصبحت وأنا في حيرة من أمري ، ولم أدر ماذا أصنع لأرجع إلى سكني بركوتي ، فقد تحملت كثيرا من الصعوبات ، وخاطرت بحياتي ، فلم أرد العودة من نفس الطريق الذي خبرت مابه من المتاعب والآلام . أما الطريق المقابل لذلك - وهو الجانب الغربي - فلم أدر طبيعته ، يئد أني لم أجدني ميالا للمخاطرة مرة أخرى ، فعولت على العودة إلى الجنوب من طريق الشاطئ الغربي ، فسرت مرتادا على أجد محلا أمينا أدع فيه ركوتي حتى أحتاج إليها . ولم يضع تعب هباء منثورا لأنني وجدت بعد قليل خليجا يصاح للفاية التي كنت أنشدها . ولما اقتدت ركوتي إليه ، ألفتيته يضيق كلما أوغل في الجزيرة إلى أن انتهى إلى جدول صغير ، وجدت به ميناء موافقا ، فأدخلت الركوة إليه ، فكانت بعيدة من كل خطر ، كأنها في مرفأ أعد لها . ولما اطمأن قلبي تركتها حيث قدتها ، وذهبت إلى الشاطئ ، لأرى أين كنت ، فوجدتني لم أتجاوز المكان

(١) الفضة من البحر محط السفن ، ومن النهر ثلثة ينحدر منها الماء وأصعد منها السفن ويستقي منها

الذى وصلت إليه عن طريق البر، حيث قمت بكشف ذلك الشاطئ
إلا قليلا، فأخذت سبطاتي من الركوة، ومظاتي، لأن الجو كان حارا،
وابتدأت سيرى الذى كان سارا بعد تلك الصعوبات والأهوال التى قاسيتها.
وفى المساء وصلت إلى بيتى الثانى الذى أقمته داخل الجزيرة، فنسلقت سورده،
واضطجعت فى الظل لأستريح من هذا الأعياء، ولم أستيقظ إلا على صوت
ينادى «روبين. روبين. روبنسن كروسو. مسكين روبنسن كروسو. أين أنت
روبنسن كروسو؟ أين أنت؟ أين كنت روبن؟» وسأدع قارىء هذه السطور
يقدر دهشتى عند سماع هذا الصوت. وقد كنت مستغرقا فى النوم، لأن
التعب لم يترك لى قوة، فقد جدفت كثيرا وسرت على قدمي حتى خارت
منى القوى، فلم أفق كل الأفاقة حين سماعى الصوت، بل كنت بين نائم
ويقظان، فظننت أنى أحلم بسماع صوت ينادبنى، ولكن الصوت استمر
يكرد «روبين كروسو. روبين كروسو» حتى اضطرت أن أقوم من نومي،
وقد كنت وجلا مذعورا من تلك الحال. ولم أكد أفتح عيني حتى رأيت
البيغاء على السور، فعلمت أنه هو الذى كان يدعونى لأنى علمته الكلام
فكان كثيرا يقف على إصبعي، ويقارب منقاره من في، ثم يصيح
«مسكين روبنسن كروسو أين أنت؟ وأين كنت؟ وكيف جئت هنا»
وغير هذا مما علمته.

ولا يفين عنك أنه مع معرفتى أن مصدر الصوت هو البيغاء وليس
شيئا آخر، قد احتجت إلى مدة طويلة لهدئة روعى، وامتلاك قوى.
وقد دهشت من هذا المخلوق العجيب الذى اهتدى إلى هذا المكان.
وكان من عادته أن يحول فى المواضع التى أسير فيها، ولا يغادرها إلى

غيرها . ولما تأكدت أن منبع الصوت هو الببغاء ، سرت نحوه وأشرت إليه بيدي ، وناديته باسمه ، أيها الببغاء الأمين ، فأتى مسرعاً ملياً ، ووقف على إبهامي ، ثم ابتداءً يعيد ما انتهى منه من الكلام ، كأنه سر لرؤيتي ، خملته معي ثانية إلى منزلي الأول بجانب البحر .

وكنيت أود أن أحضر الركوة حيث أنا مقيم ، ولكنني كنت غير قادر على ذلك ، لأن الجانب الشرقى الذى طفت حوله كان خفيفاً ، فلم أفكر فيه ، بل كنت إذا تذكرت الأهوال التى انتابتنى هناك تصيبنى رعدة خفيفة . وأما الجانب الآخر من الجزيرة فلم يكن لى علم بما هيته ، غير أنى بعد إعمال الفكرة استنبطت أنه غير موافق للجانب الشرقى ، ففقتعت أن أعيش بدون الركوة ، وإن كانت نتيجة شهور عدة صرفت فى صنعها وإيصالها إلى البحر ، وعلى هذا عدت إلى حياتى الأولى هادئاً مطمئناً لا أحتاج لشيء غير المعاشرة والمحادثة .

وفى خلال سنة من عودتى إلى مقرى حسنت كل الأعمال التى اضطرت إلى مباشرتها ، حتى أصبحت أعتقد أنى نجار متقن ، وخاصة إذا تصورت قلة الأدوات النجارية فى يدي . كذلك أجدت صنع الأوعية الفخارية ، فأصبحت نظيفة حسنة الشكل ، وقد كانت قبلاً لا تسر الناظرين

ولم أفرح لشيء فرحى عند ما اهتمت لصنع ريبب أدخن فيه ، وقد كان ذلك الريبب على الرغم من خشوته ، وقبح هيئته ، نافعا لى ، لأنى اعتدت التدخين ، وكنيت طول أيامى أحن إليه حينما زائدا . وقد كان بالسفينة كثير من تلك المداخن التبغية ، ولكنى أهملتها ، لعلمى

أن الجزيرة لا تنبت التبغ ، ولما وجدته بها عدت للبحث عنها ، فلم أقف لها على أثر ،

وكذلك أجدت صنع الأسفاط والسلالات ، وصنعت منها كثيرا لحاجي أحفظ فيه أمتعى . وأحمل به ما أحب حمله إلى منزلي ، فكنت إذا اصطدت جديا أو ماعزا أعلقه على شجرة ، وبعد سلخه أخرج^(١) بطنه ، ثم أنظفه ، وأضعه في السلالة ، ومثل هذا كنت أصنع بالسلاحف ، فأقدها وأخذ يبيضها ، وقطعة أو أكثر من لحمها ، ثم أضع ذلك في السلالة ، وأترك ما لا حاجة لي إليه . وكنت أحفظ الشعير والأرز في سلالات عميقة ، إذ كنت بعد الحصد أخرج الحبوب من سنابلها ، ثم أعدها لتوضع في السلالات لوقت الحاجة إليها

وقد لاحظت أن البارود قد نقص تقصا يحس ، وهذا صنف من الأصناف التي يستحيل أن أحصل عليها ، وأنا بهذه الجزيرة . فابتدأت أفكر فيما يجب عمله إزاء ذلك ، وكيف يمكنني اصطيد الماعز بدونه إذا خلت يدي منه . ولعلك تتذكر أنني في السنة الثالثة من وصولي إلى هذه الجزيرة ، كنت حصصت على عناق^(٢) من الماعز ، وتعهدها حتى نمت نموا حسنا ، وأصبحت ماعزة معدة للأنتاج ، وكنت أتحين الفرص لأشفعها بجدي ، ولسكني أخفقت في هذه السبيل ، ولم أورد قتل الماعزة ، بل تركتها ترعى وحدها حتى ماتت حتف أنفها .

(١) فُجِرَ الشيءُ فجْراً من باب قتل شقه وفجر بطن الشاة بقره

(٢) العناق - الأنثى من أولاد الماعز ، وقيد ذلك بعضهم بكونه في السنة الأولى ،

الفصل السادس عشر

تربية روبنسن كروسو قطيعا من المعز

وكيف عاش واطرد نجاحه

كنت في هذا الوقت في سنتي الحادية عشرة من إقامتي بهذه الجزيرة، ولما كان نقص البارود مخيفا لي ابتدأت أحتال للمعز، وأقيم لها المصايد والأشراك لاصطيادها. وقد كانت تلك الحبالات تقبض عليها، وتمسك بها، ولكن قوتها لم تكن كافية، فكانت المعز تأكل الطعم^(١) ثم تفر منها. ولسكني غيرت طريقة التحايل والخديعة، وعولت على طريقة النجع، فحفرت حفرا كثيرة في الأرض مكنة التي تكثر فيها، وغطيت كل حفرة بغطاء من أغصان الأشجار. وفي كثير من الأوقات كنت أضنع سنابل الشعير والأرز الجاف بدون نصب المصايد، فكانت المعز تأتي فتأكل كل الحبوب، ثم تخرج من حيث أتت، وكانت آثارها تهم عليها. وقد وضعت مرة ثلاث مصايد في ليلة واحدة، وفي الصباح رأيتهما كما نصبتهما، ولكن بعد أن أكل ما فيها من الطعام. فاضطرت لأحداث تغيير في المصيدة، فنجحت فيما أردت، إذ ذهبت صباح يوم، فوجدت في واحدة منها آيسا^(٢) كبير او في واحدة أخرى جديا وعناقين. أما التيس فلم أعرف كيف أقوده إلى حيث أحب،

(١) الطعم بالضم الطعام، وهو ما يوضع عادة للتغريز بالحيوان

(٢) التيس الذكر من الغنم والوعول والمعز، والجدي الذكر من أولاد المعز في السنة الأولى؛ والأثني عناق

لأنه كان قويا وحشيا. وقد كان في مقدرتي أن أقتله ، ولكن ذلك لم يكن تديري . ولما لم أجِدْ لي حيلة فيه أطلقت سراحه ، ولم أدر أن الجوع يهذب شرّة اللبث الضواري ، ويكسر من حدتها ، وأني لو تركته في حفرة ثلاثة أيام أو أربعة ، وقدمت إليه في نهايتها الماء ليشرب ، والحب لياً كل ، لأنس بي ، وأمن لجاني ، وانقاد إلى انقياد الصغار التي أخذتها ، ولكن جهلي بهذه الحقيقة إذ ذاك ، جعلني أفسح له في الطريق ، ففر من حفرة وانطلق يعدو عدو من يرى الخطر محققا به . وأما الثلاثة الصغيرة التي كانت في الحفرة الأخرى ، فقد ربطتها بحبل ، ووقتها إلى منزلي بعد يسير من التعب . وقد مضت عليها مدة طويلة قبل أن تأكل شيئا ، ولكني قدمت إليها قليلا من الحبوب فتناولتها ، ثم شجعته على الأكل من وقت لآخر فأكلت . وقد كان جل اهتمامي ، وما وجهت إليه عنايني ، أن أريها لتنتج ، ويكثر إنتاجها ، لأجده طعاما شهيا حاضرا حين ينتهي من البارود ، كما أنني أصبحت مقتنعا بأنني لأستفيد من تربيتها إلا إذا حفظتها من الاختلاط بما توحش من أبناء نوعها ، ولهذا فكرت في اختيار مكان أحوطه بسور قوي لحفظها فيه ، حتى لا يصل إليها من الخارج ما يفر بها ، أو ترى هي غيرها فيغيرها على الفرار .

وقد علمت أن العمل شاق متعب ليدين اثنين . ولكن كان حتما على تنفيذه . فكان أول ما قمت به أن اصطفيت مكانا يوافق هذه الغاية ، يكون فيه ما يكفي من العشب لأكلها ، ومن الماء لشربها ، ومن الظل لتستظل به .

وقد وفقت لمكان جامع لكل هذه المزايا بدون كبير عناء ، فقد

اخترت سهلا مغطى بالعشب ، فيه ثلاثة أخاديد ^(١) ملأى بالماء ، وكانت إحدى نهاياته مغطاة بالأشجار . وإن أولئك الذين يفهمون جيدا إقامة مثل تلك الأسوار سيمعجبون إذا علموا أن سور هذه القطعة سيكون نحو ميلين . ولم يكن العجب من كبر المحيط ، لأن وقتي كان يسمح بعمل مثله ولو امتد إلى عشرة أميال ، إنما العجب كل العجب أنني لم أفكر أن المعز ستكون طليقة وحشية في مثل هذا المكان ، كما لو كانت حرة تجرى في كل الجزيرة ، وأنني سأجهد نفسي للقبض عليها بلا طائل ، لأن اتساع المكان أما ماها سيمكنها من الفرار مني .

وبعد أن ابتدأت العمل ، وسورت نحو خمسين خطوة أوقفته ، وعولت على أن يكون المكان المسور لا يزيد طوله على مائة وخمسين خطوة ، وعرضه على مائة . وإن زاد قطيع المعز فيما بعد على هذا المكان ففي المقدرة أن أضيف إليه أمكنة أخرى . وقد استغرق هذا السور ثلاثة أشهر كنت في أثناءها رابطا ما عندي من المعز في أحسن بقعة من هذا السهل نباتا ، واجتهدت أن تكون بجوارى حتى لا تنفر مني عند رؤيتي : وكنت كثيرا أقدم إليها الآن . كل يدي ، أو أحمل إليها بعض سمنابل من الشعير ، أو حبوب الأرز . فلما أتممت السور وفككت عقالها كانت تأنس بي . وتسرع إلى إذا رأته وتنفو ^(٢) ، كأنها تطلب مني الطعام الذي اعتدت تقديمه إليها . وقد نجحت بهذه الطريقة نجاحا تاما ، فقد أصبح عندي من

(١) الأخدود حفرة في الأرض ، ويسمى الجدول أخدودا

(٢) نعت الشاة تنغو صاحت وصوتت . والثغاء صوت الشاة والمعز . والثاغية

الشاة . وأنغى شاته حملها على الثغاء

المعز بعد سنة ونصف قطيع لا يقل عن اثنتي عشرة عذرة، وبعد سنتين آخرين كان عندي ثلاث وأربعون، غير ما ذبحت لطعامي. وبعد ذلك سورت خمس قطع أخرى، وأنشأت في كل منها حظائر صغيرة لأسوقها إليها إذا أردت إمساكها، وأوصلت هذه القطع بعضها ببعض بأبواب بها ينتقل القطيع من واحدة إلى أخرى

وقد عادت تربية المعز على بالخير العميم، فإنه فضلا عن توفير اللحوم عندي، قد حصلت على لبن منها. وكنت قبلا غير قادر على التمتع بالدر^(١) وقد كان المقدار الذي أحصل عليه في كل يوم وفيرا إذا كان لا يقل عن غالونين^(٢). ولذا وجدني مضطرا للمعمل أستعين به على الانتفاع بخيرات هذا اللبن الكثير ومستخرجاته، من جبن وزبد، وقشدة. ومع أني لم أحاب في حياتي بقرة ولا عذرة، ولم أرا أحدا يصنع أمانى جينا أو زبدا أو قشدة، قد وصلت إلى نتائج باهرة، وإن كانت بعد تعب وتجارب كثيرة، وأصبحت لا أحتاج إلى الزبد والجبن لأنهما وفرا عندي. ولقد حمدت الله سبحانه إذ وفقني لفائدتي، وأسبغ على نعمه في هذا التمهيد للمل، والمكان السحيق. ولا عجب فهو الذي يحمد على كل حال، وهو القادر أن يجعل السجين والمغلول في غياهب الحب، وظلمات السجن، يشكرانه على ما هما عليه من ضيق المكان، وخرج القيود. نعم إنى أحمد الله على تلك الحال، وما هي إلا حال طيبة لم تكن في الحسبان، إذا قرنت بتلك التي كنت أتوقعها عند هبوطي إلى هذه الجزيرة، فأن مائدتي تهيأ، ويوضع عليها من ألوان

(١) الدر اللبن

(٢) الغالون مقياس انجليزي للسوائل سعته ٢٧٧ قيراطا مكعبا أو نحو عشر ليبرات

الطعام ما يعجب له الرائي، في مكان ظننت قبل وصولي إليه أني سأقضي^(١) فيه جوعاً. ولو تيسر لعا بدزاهد ينفذ يده من زخارف الدنيا، وينأى بنفسه عن غرورها وزينتها، أن يراني وأسرقي عند المائدة، ومن حولي حاشيتي وأتباعي، لأغرق في الضحك ولغبطنا على مانحن فيه من بلهنية^(٢) ورخاء. هناك يراني أمير الجزيرة، صاحب الجلالة فيها، ويبدى الأمر والنهي، وإلى تنهي مقاليد أمورها، وتصريف أحكامها، كما أهوى وأختار. كذلك كانت حياة رعيتي في قبضة يدي، أديرها كيف أشاء وأتصرف فيها كما أريد، أعطيها وأمنعها، وأحييها وأميتها، وأحررها وأستعبدوها، وفقاً لرغبتى، حيث لأشئ إلا الطاعة والخضوع، فلامقاومة ولا عصيان، ولا نبذ للأوامر، ولا مخالفة للقوانين تنتظر من مثل تلك الرعية الصالحة. وكما يأكل الملوك المساطون منفردين على موائدهم، كذلك كنت أكل وحدي، لا يراني غير خدمي، وبيغائي المخلص الذي امتاز عن غيره من حاشيتي بمنادمتي، والتحدث معي من حين إلى حين. وكان كلبى الذى أسن يقعى^(٣) عن يميني. وكان بين حاشيتي هرتان، تقوم إحداهما عن عين المائدة، والأخرى عن يسارها. تنتظر أن كسرة من يدي، علامة الرضا والقبول. ولم تكن هاتان الهرتان هما نفس الهرتين اللتين أحضرتهما معي، لأنهما لمسكتا بعد أن كثر نساها الذى حفظت منه اثنتين. وأما البافيات ففرت إلى الأجراس^(٤)، وأصبحت مصدر شقاء

(١) سأموت (٢) بلهنية العيش رخاؤه وسعته

(٣) ألقى الكلب جلس على مؤخر ذيله ورفع نخذه

(٤) جمع حرج وهو المكان الضيق الكثير الشجر

لى . وذلك لأنها طالما انتهزت الفرص المناسبة للأغارة على مخازنى ، فتهجم عليها ، ثم تفر بما تقدر على سلبه ، وكثيرا ما فعلت ذلك ، فاضطرت إلى قتلها وإبادة كثير منها . وقد قت بذلك فذعر الباقي ، ولم يجرؤ على الرجوع مرة ثانية . وكنت كثير التفكير فى الركوة والانتفاع بها ، وتدير الحيل لأحضرها ، ولكنى كنت أجفل^(١) من الخطر ، فأقنع بالعيش بدونها ، غير أن أفكارى عاودتنى ، وتغابت على ، وعزمت على العودة إلى الشاطئ حيث علوت الصخور ، لأرى حال البحر وما به من التيار والهدوء . وأردت أن يكون رجوعى برا محاذيا للساحل .

ولو رآنى أحد الأنجليز على هيئتى هذه لذعر ذعرا شديدا ، أو لاستلقى على ظهره ضحكا ، فقد كنت حين أنظر إلى نفسى لا أملك التبسم والضحك منها . ولو تيسر لى أن أجوب « يوركشير^(٢) » بهذه الملابس لأحدث ضجة فيها ، وأثرت عجباً يملأ كل من رآنى ، ولعل القارىء يحب أن رسم له صورتنى بوصفى :

كنت أعطى الرأس بقبعة من جلد المعز من صنع يدى ، ينسدل منها من الخلف عذبة^(٣) عريضة تغطى مؤخر الرأس مع الرقبة ، فتحفظ ذلك الجزء من الحرارة ، وتصد عنه عادية الأجواء المختلفة ، من مطر وغيره . وما أضر المطر بالجسم إذا توسطت قطراته بينه وبين الملابس فى جو كالذى

(١) جفل القوم يحفلون جفلا أسرعوا الهرب

(٢) قطعة « مقاطعة » بأنجلترا

(٣) العذبة ما سدل بين الكتفين من العمامة جمعه عذّب

كنت ألبس معطفاً^(١) قصيراً من جلود المعز، يصل إلى منتصف
 ، وسروالاً^(٢) قصيراً من الجلد ينتهي بنصف الساق. أما الجوارب^(٣)
 لا حذية فلم يكن لي شيء منها، غير أنني صنعت لنفسى شيئاً يشبه
 الخف من جلد المعز، وأطلته ليغطي ماظهر من الساقين، وربطته بنسج^(٤)
 لففته حوله، وكثيراً كنت أتنطق^(٥) بمنطقة عريضة أشدها على وسطى
 وأصل طرفيها، وأعلق بها فأسا ومنشاراً صغيرين بدل السيف والخنجر.
 وكان عندي حزام آخر وضعته فوق كتفي الأيمن، وعقدت طرفيه تحت
 ذراعى الأيسر، وعند العقدة علقت كيسين من الجلد، جمعت في أحدهما
 باروداً، وفي الآخر قطعاً صغيرة من الرصاص. وحملت على ظهري سائى،
 وعلى كتفى علقت سبطانتي، كما رفعت فوق رأسى مظاتي التي وإن كانت
 قبيحة الشكل فإنها أنفع شيء عندي بعد السبطانة. أما وجهي فلم يكن
 كما يظن القاريء مغبراً أشعث أسود، لقربي من خط الاستواء، بل كان
 على العكس من ذلك. وقد تركت لحيتي تنمو حتى بلغت ثلث ذراع،
 ولتوافر المقصات والمواسي عندي قصرتها، وتركت شاربي ينمو
 ويكبر، حتى صار كمثل الشوارب التي نرى الأتراك يطيلونها. ولأنني
 كنت وحيداً لا أجد من يراني لم أهتم بأمر بزيتي، ولم أعن بها كثيراً،

(١) جاك

(٢) بنطلون

(٣) جمع جوزب وهو لفافة الرجل التي نسميها الآن بالشراب. وهو فارسي معرب

(٤) النسج سير من جلد

(٥) تنطق الرجل شد وسطه بمنطقة

واستوى لدى حسنهما وقبحها . وعلى ذلك ابتدأت سياحتى الجديد
استغرقت منى نحو ستة أيام تتبعت فيها الشاطئ حتى وصلت إلى النهر
التي وصلت إليها في رحلتى الأولى .

ولما لم تكن الركوة معى ذهبت توا إلى تلك الصخور فعلمتها ، ثم
نظرت إلى البحر فوجدته هادئا ساكنا فدهشت لهذه الملاحظة ،
وعولت على المسكن لأدقق النظر عانى أصل إلى سر هذا الأمر ،
ولأرى أللموجة المدية والجزرية دخل في ذلك الاضطراب المائي
الذى شاهدته أولا ؟ وسرعان ما اهتديت إلى معرفة السبب ،
وهو أن حركة الجزر التي ابتدأت من الغرب ، واتصت بتيار مائي
ناشئ من نهر عظيم على الشاطئ ، كانت باعثة لحركة التيار المائية
التي رأيتها . وتبعها لهبوب الرياح الشديدة من الغرب أو الشمال ، يكون
التيار قريبا أو بعيدا عن الشاطئ . وقد انتظرت حتى المساء ، فصعدت
إلى الصخور ، ونظرت فوجدت حركة الجزر ابتدأت كما كانت قبلا ،
غير أنها كانت بعيدة عن الشاطئ بنصف فرسخ . أما في حالتى الأولى
فقد غمرته ، وحملت ركوتى معها ، ولو صادفت وقتا آخر لكان حظى غير
ما كان . وكانت هذه الملاحظة مقنعة لى بأن إحضار الركوة أصبح أمرا
سهلا ، وما على غير ملاحظة حركة المد والجزر . ولكن لما فكرت في
التنفيذ اضطرب لى ، وذهب شعاعا ، لتذكرى الأخطار والأهوال التي
حافت بى من كل فج ، فلم أستطع تنفيذ هذه الخطة ، وفكرت في أخرى
لا خطر فيها ، ولكنها شاقة ، وكانت هذه الخطة أن أعمل لى ركوة غير
الأولى ، فيكون لكل شاطئ من الجزيرة واحدة .

سدى كان عندى بالجزيرة مزرعتان ، أما الأولى منهما فكانت
 رى على الحصن ، وفيه الخيمة يكتنفها الحائط بجانب الصخرة ، وخلفها
 السكف الذى وسعته إلى محال كثيرة متدخل بعضها فى بعض . وقد
 كان أكبرها مخزنا لأوعيتى الفخارية ، والسلات المحتوية على الجبوب ،
 فقد وضعت فيها خمس عشرة سلة تسع كل منها نحو «أردب» من القمح ، كما
 وضعت فيها غائى الأخرى التى لاتزال فى سنا بلها . وكان السور الذى
 أقمته حول هذا السكن من غصون الأشجار قد نما وتحول إلى أشجار
 ضخمة حجبت خلفها مقامى عن كل عين ، وكان بالقرب منه ذاك
 الحقلان اللذان كنت أزرعهما حبوا تكفينى سنة كاملة

وأما المزرعة الثانية فكانت داخل الجزيرة عند سكنى الذى
 أقمته هناك وحطته بسور كالأول ، أشجاره عظيمة الطول والحجم ،
 وظلها ممتد إلى مسافات كبيرة . ومن داخل هذا السور خيمة . اتخذتها
 من شعاع ، وفى داخل الخيمة أريكة ^(١) منجدة بجلود الحيوانات التى
 قتلها . وحشوتها ببعض المواد التى تجمعها وثيرة ^(٢) لينة ، وغطيتها
 بربطة ^(٣) ، وكنت أتدثر عليها بعباءة طويلة . وبالقرب من هذا المكان
 كانت البقعة التى سورها لقطع المعز ، وطالما هجس فى نفسى أنها ستفر
 منها ، فلم يهدأ لى بال حتى أمنت شر فرارها بتقوية السور ، وحصنته
 بأقامة صف من الأوتاد خلفه بعضها بجانب بعض . فما جاء الشتاء وهطلت

(١) الأريكة سرير منجد مزين فى قبة أو بيت والجمع أرائك

(٢) الوثير اللين (٣) الربطة . الملاءة

الأقطار، فأصاب الأوتاد، ووصلت إلى جذورها، حتى أصبت
 قليل زمن شجيرات قوية، قامت حاجزا حصينا في وجه المعز، وجعلت
 من المستحيل عليها أن تقتحمه، فقد كانت أمتن من حائط

تلك الأعمال الجليلة التي قت بها تبرهن لك بوضوح وجلالة أني لم
 أكن كسلا، ولم أضع وقتي سدى، فقد عملت كل ما وجدته ضروريا لي
 ولحياتي الحاضرة التي وجدتها رهنا بما أقوم به من الأعمال، فرييت المعز
 ليكون عندي من اللحوم ما يكفي، وحصلت منها فوق ذلك على اللبن
 والجبن والزبد والقشدة، وأصبحت آمنا على قوتي، ولو امتدني زمني
 إلى أربعين عاما. وقد وجدت تلك الأوتاد عند نموها متلاصقة،
 فاضطرت إلى نزع بعضها كي يجد الباقي مجالا للنمو وزيادة الحجم، وفعلنا
 كان ذلك فقد نمت نمو احسنا، وزادت زيادة محسوسة. وفي هذه الجهة
 كانت الكروم التي أستهلها وأحصل منها على أحسن طعام لي في الشتاء،
 فقد كنت آكل منها في أوانها ما أنشاء، وأجفف الباقي وأحفظه زيبا
 أجده طعاما شهييا مفيدا في باقي أيام السنة

وقد كان سكني في منتصف الطريق للمرفأ الذي حبست فيه ركوتي،
 فكسفت في طريقي إلى المرفأ أستريح فيه. ومع حبي لتعهد الركوة، والميل
 الشديد إلى المحافظة على أمتعتها، قد كنت قليل الركوب فيها،
 والاستراضة بها، وإذا ركبتها فما كنت أتجاوز الشاطئ قيد رمح، خشية
 أن يحماني التيار أو تقذفني الرياح، أو أي حادث فجائي إلى حيث لا
 أبني ولا أحب. وصرت الآن إلى حياة جديدة

الفصل السابع عشر

خوف روبنسن كروسو من أثر قدم رآه على الرمل بغتة

وتحصينه قلعة

وبينا أنا في طريقي إلى ركوتي في بعض الأيام عند الزوال ، إذ وجدت أثر قدم عارية لأنسان على الساحل ، وقد كان ذلك الأثر واضحا على الرمل لا يَحْتَمِلُ شك ولا ريبا ، فوقفت مذعورا مسلوب الفؤاد أشدة ما استولى علي ، فنظرت حولى ، لأرى شيئا أو أسمع صوتا ، ولكنى لم أوفق لشيء قط ، فعلمت نجوة من الأرض لأبعد النظر ، ورحت على الشاطئ جبهة وذها با فلم أَرِ شيئا . ولما لم أهتد إلى كشف الأمر رجعت إلى الأثر ثانية لأفتش عنه ، خشية أن يكون الوهم قد أوجد أمامى ما ليس بموجود ، فوجدته ظاهرا للعيان بأصابعه وعقبه ، وكل جزء فيه . ولما لم أعرف كيف وجد ذلك الأثر فى مكانه ، وعجزت عن فهمه ومعرفة أصله ، وكثرت عندى الأفكار المضطربة ، والتخيلات المتنوعة ، عدت وأنا مضطرب الأعضاء غير ثابت الأعصاب إلى حصنى خائفا أترقب ، فأنظر خافى عقب كل خطوة ، وأتلفت يمنة ويسرة ، وأحسب كل جذع من جذوع الأشجار رجلا متربصا ، وكل شيء أمامى يستعد للوثوب على . ولما وصلت إلى حصنى هرولت إليه كمن يفر من مطاردة ، ولا أدري كيف كان دخولى إليه أبا لاسلم الذى كنت أعدده أم بالمر الذى حفرته فى الصخور بعد ذلك ؟ فقد كنت أخوف من أن رب رأت



فوقفت مذعورا مسلوب الفؤاد

مكروها ففرت لنختفي أو نعلب أحسن بخطر فعدا لينجوا منه ، ولم تكتحل
عيناي بالسكرى تلك الليلة ، لما اتابني من الهواجس والخواف التي انهالت
على من كل حذب حتى صرت

كريشة في مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق

فقد كان ذلك الأثر الذي كشفته يخيفني ، وإن بعدت الشقة بيني وبينه .
و كنت أعلل النفس بأن هذا الأثر قد يكون من عمل الشيطان . وقد
وجدت من نفسي ارتياحا لهذا الخطر ، لأنه كيف يمكن مخلوقا في زى
إنسان أن يكون هنا في هذه الجزيرة ؟ وإلا فأين السفينة التي أوصلته ؟ وأين
آثاره الأخرى على الشاطئ ؟ ولكن ما الذي يدعو الشيطان أن يتشكل
بزي إنسان ليترك أثره بتلك الجزيرة ، حيث لا إنسان بها ، وليس يعلم
أنى سأراه ؟ هذا مجلبة العجب . ولقد كنت أقول في نفسي : إن الشيطان
يمكنه أن يخيفني بطرق لانهاية لها ، أما هذا الأثر الوحيد فإنه قليل
الجدوى في الأخافة ، لأنى أعيش على الشاطئ ، الآخر من الجزيرة ، ولا
يبلغ ضعف الرأى ، وقلة الحيل والدهاء بالشيطان أن يترك أثرا لا يخطر
ببالى أن أراه ، فوق رمال معرضة لتأثير المياه . وأقل حركة للرياح تهيج
الجبج فتطمس معالم تلك القدم . كل هذه أشياء لا تتفق عادة مع ما نعتقد
من دهاء الشيطان ومكره . وكانت تلك الأفكار وما شابهها مقنعة لى
بأن الشيطان لا دخل له فيما رأيت . واهتديت بعد ذقة البحث والنظر إلى
أن محدث ذلك الأثر لا بد أن يكون مخلوقا أشد شرا من الشيطان ، ذلك
المخلوق هو أحد المتوحشين الذين يقطنون بتلك الأرض التي كنت أود

الذهاب إليها، وأنه اضطر بتيار أو ريح مضادة للرسو على هذه الجزيرة، ثم لم يلبث أن عاد أدراجه كالوها أن يقيم وحيداً بأرض لا أنيس بها ولا خليل.

وبينما أنا غارق في تأملاتي هذه إذ أفقت حامداً الله لأنني كنت بعيداً عن الشاطئ وقت مجيئهم، فلم يروني أنا ولا ركوتي، لأنهم لو شاهدوها لعلموا أن أناساً يقطنون بهذه الجزيرة، وقد يبحثون عنهم حتى يصلوا إلى فياً كلوني، لأنهم من آكلي لحوم البشر، وإن لم يجدوني فسيبعثون بمسكني فيدمرونه، ويعيثون بمخازني وحبوبي فساداً، ثم يحملون قطع المعز، فأعرض بعدئذٍ للهلاك جوعاً. وهكذا توافدت على الوسواس، واعترتني رعدة شديدة من هول الموقف، وأذهب عني الخوف كل رجاءٍ واعتقاد ديني، وكل ما قويت من آراء دينية بتجاربي العدة قد ذهب، كأن الله الذي أسبغ على نعمه في هذا التيه غير قادر على المحافظة عليها.

وقد أصبحت قلقاً، واعترفت بخملي في زراعة الحبوب، فقد قصرت زراعتي على ما يكفيني منها حتى ظهور الحصاد التالي، فلم أحسب حساباً بالآلات والطواريء، ولذلك غيرت نهجتي، وعولت على أن أزرع ما يكفيني ثلاث سنين، حتى إذا خاب جدتي في الزراعة لسبب ما، وجدت عندي ما أقيم به صلي وأدراجه غائلة الموت جوعاً عني.

ما أغرب حياة الأنسان. إنك إن فكرت فيها وجدتها ينبوعاً لمعجائب كثيرة، ومظاهر متناقضة، لتناقض أسبابها وعللها. فقد تعشق اليوم ما تبغض غداً، وتهجر الآن ما كنت تبحث عنه قبلاً، وترغب الساعة فيما تخافه في المستقبل، بل ما تضطرب منه عند خطوره بخاطرك.

ولقد كانت حالى مثالا لهذه المتناقضات ، فقد كنت أعدنى شقيا
لبعدى عن الأنسان ، وعيشى فريدا يكتنفنى البحر الذى لا ساحل له من
كل جانب ، وكنت أرى أن السعادة فى رؤية فرد من بنى الأنسان ، وأعدها
سعادة لا تفوقها إلا سعادة الخلاص من هذا التيه المنعزل عن العالم ، وكأن
الله رآنى غير أهل للاختلاط ببنى نوعى أو غير مدنى بطبعى ، فقضى على
بالعزلة وحرمنى الاتئناس بهم ، فأصبحت أرتعد فرقا حين أفكر فى رؤية
رجل ، وصرت كأنى سيقضى على لرؤية أثر قدمه الصامت على رمال الشاطئ .
وهكذا تكون حال الأنسان المتقلبة لا تستقر على لون واحد

ولما أفقت من سكرة الخوف وحدثه ، وأمعنت فيما أنا فيه ، وجدتني
مستحقا لكل المكاره عقابا على ما فرطت فى جنب الله ، فقد أوجدنى
من العدم بمحض إرادته ، وأنعم على بما لا أقدر على حصره ، حتى أصبحت
عبد آلائه ، فلما قويت واستحصدت مرقى ، عصيته وأنكرت يده
عندى ، فاستحققت عذابه ونقمته . ومن قدر أن يعذبني هذا المذاب
فهو قادر أن يخلصني منه . ولهذا توجهت إليه وتضرعت بكل الوسائل
ليرشدني إلى طريق الأمن والنجاة .

وكنتم أقضى الساعات تفكيرا وتديرا ، لأن خوفا من المتوحشين
ملأنى ذعرا وهلعا ، وأذكر أنى كنت مضطجعا فى سريرى غداة يوم ،
فذكرت مما أحفظ من الكتب المقدسة « ادعنى فى يوم تعبك أخاصك
فتحمدنى » فقامت قرير العين . مرتاح الفؤاد ، وسجدت ضارعا لربى أن
ينقذنى من هذا الضيق ، ولما فرغت تناولت الكتاب المقدس ، وقلبت

صفحاته ، فكان أول ما رأيت « اعبد الله ، وأبعد عنك الحزن ، وانتظر منه ثباتاً في الجنان » فارتاحت نفسي وسكن ما بي من الألم .

وبينما كنت أفكر يوماً ما خطر لي أن كل تلك الضجة ربما كانت من عمل مخيالي ، وأن ذلك الاثر ربما كان لقدي حين رجعت من مرفأ ركوتي ، فداخلى شيء من السرور والراحة ، إذ أي مانع يمنع صدق هذا الحدس ^(١) وأنا لا أعرف كل مكان سرت فيه فأجزم بكذب هذا الخاطر . ولو صدق حدسي ، وكان الأمر كما ظننت ، لكنت من أولئك الحمقى الذين يضعون قصصاً مخيفة ، ثم يصبحون وهم أول من تضطرب أعصابهم لها . ثم ابتدأت أجرو بعد ذلك على الخروج من مكنتي بعد أن مكنت ثلاثة أيام لا أقدر فيها على الظهور ، ولا أستطيع مغادرة حصني ، حتى نفد غذائي ، وأصبحت المعز في حاجة شديدة إلى حليب ابنها الذي آلمها تركه في ضروعها ^(٢) وصرت أخشى أن يحف . وب تلك الفكرة وذاك الظن تشجعت على الخروج ، وذهبت لأحلب القطيع . ولتعرف مقدار خوفي ، وكيف كنت وجلاً ، أحدثك بأنني لم أزل كيوم رأيت الاثر أول مرة ، أنظر خلفي كلما خطوت خطوة ، وأتلفت من عن يميني تارة وشمالاً أثناء مسيري . وكثيراً حدثتني النفس بألقاء ساتي والفرار طلباً لنجاتي . ولو رأي إنسان على تلك الحال لظن بي مساً من الجن

وقد درجت على ذلك ثلاثة أيام لم أر فيها أثراً لأحد ، فهدأ روعي

(١) الحدس الظن والتخمين

(٢) جمع ضرع وهو مَدَر اللبن

وسكن جأشى ، ولكنى لم أقتنع بأن ذلك الأثر من صنع قدمى ، فعولت على الذهاب إلى الشاطئ لأراه وأقيسه ، على يكون مشابها لقدمى . ولما وصلت وجدت موضع الأثر بعيدا عن كل مكان مررت به ، وعند تقديره بقدمى وجدته أكبر منها كثيرا ، فعادت لى الهواجس واضطربت اضطراب المحموم ، وأيقنت أن القدم لأحد المتوحشين لامحالة ، وأنهم قد أتوا إلى هنا ، أو أن الجزيرة مسكونة ، ولا بد أن أفاجبهم . ولم أدر ما حيلتى لمثل تلك الصدمة الهائلة إن حالت .

حقا إن الخوف يجتث من الرجال عقابهم وتديبرهم ، ويحملهم على أن يسلكوا طرقا غير مأمونة السلوك ، فقد كان أول ما عزمت عليه أن أهدم ماشيدت ييدى من مساكن وأسوار ، وأطلق المعز تسرح حيث تشاء ، وأخفى كل أثر لحقول الشعير والأرز ، لئلا يهتدى بها أحد إلى . أما طعامى فسأتركه للفرص ، وأحصل عليه من الجزيرة كيفما اتفق ، وكان من بين تديبرى أن أطوف بالجزيرة باحثا عن ساكنيها . وهذه كانت خطى تلك الليلة بعد عودتى إلى مقرى ، وامتلاء نفسى بالهلع ، فأن الخوف المتوقع أشد تأثيرا ، وأقوى عملا من الخوف نفسه إذا كان واقعا .

وفى وسط تلك المخاوف والشكوك لم أتذكر أن ألجأ إلى الرحمن الرحيم ، ليصرف عنى شر ما جنته يداى ، ولم أتوجه إليه ليرفع عنى عبئا لا قبل لى بحمله . وقد مضى الليل وأنا سابج فى بحار فكرى ، وما وضع النهار حتى احتكم فى السكرى ، فتمت نوما عميقا . ولما أفقت وجدتنى مستريحا ، فاترن فكرى ، ونضج رأى ، واعتدلت حجتى ، وعرفت أن

هذا المكان خير من غيره ، لو غير خيراته ، وقربه من ممر الجوارى .
ولا بد يوماً أن تمر بى سفينة ، إن قصدا وإن عرضا

ولم أكن أتو جس خيفة إلا من وصول زوارق المتوحشين إلى
الجزيرة . وقد كانوا يصلون إليها أحياناً ، ولسكنهم يرحلون عنها بسرعة ،
وقاموا يقضون بها الليل ، بل يسرعون بالعودة إلى أرضهم يوم مجيئهم ،
لينتفعوا بتيار الماء وضوء النهار . فلم يكن يلزمنى حينئذ إلا البحث عن
وَرْد^(١) أُلْجَأ إليه إذا اشتد الخطر ، ووصل أحد المتوحشين إلى مكانى

وقد أيقنت الآن بخطئى فى تكبير الكهف ، وتوصيله إلى الخارج
بالباب الذى حفرتة ، فعوات على إقامة تحصين ثان على شكل نصف
دائرة ، كما عمات فى الأول . فاخترت المكان الذى غرست حوله خطاين
من الأشجار منذ اثنتى عشرة سنة ، وقد كانت تلك الأشجار متقاربة
بعضها من بعض حتى أنها لم تحتج إلا إلى قليل من الأوتاد تغرس بينها ،
فتصبح حائطا قويا لا يمكن اجتيازه . وبعد الانتهاء من سد الثغرة^(٢) وإحكام
العمل ، تركت سبعة ثقوب صغيرة تسمح لليد فقط بالخروج منها . وفى
داخل هذا الحائط بنيت حائطا من الطين الذى حملته من الكهف يبلغ ارتفاعه
سبع أقدام . وكنت أضع الطين تحت قدمى وأطؤه بهما حتى يقوى .
وفى تلك الثقوب عزمت على أن أضع بنادق السبع التى كانت فى جملة
ما أنقذت من السفينة . وقد وضعتها بهيئة تمكنى أن أطلقها فى مدة لا تتجاوز

(١) ملجأ (٢) جمع ثغرة وهى الثلمة فى الحائط يخاف هجوم السارق منها

دقيقتين . واستغرق هذا الحائط شهورا عدة ، كنت أعتقد أثناءها أنى غير آمن حتى يتم هذا العمل .

ولما انتهيت منه زرعت الأرض التى حول الحائط بنوع من الشجر ينمو سريعا ، فوضعت فى الأرض نحو عشرين ألفا من الأغصان التى نمت فكونت شبه غابة متلاصقة الأشجار ، لا تسمح بمرور شئ بينها ، وتركت بين تلك الغابة وحائطى مسافة لا تمكن من رؤية من يكون هناك حتى لا يحتجبى فى الأشجار . وقد أصبحت هذه الأشجار منيعة بعد مضى خمس سنين . فلا يتيسر اجتيازها ، ولا يمكن مخلوقا أن يدرك أن وراءها أى شئ ، بله^(١) سكن لأنسان حى . وقد صنعت سلمين لا تمكن بهما من الدخول والخروج ، فكنت أضعهما على جانب التل القليل الارتفاع . وبعد إنزالهما لا يمكن أحدا أن يصل إلى إلا إذا أضر بنفسه .

وهكذا قت بكل ما يمكن الأنسان أن يفكر فى اتخاذه . وسيرى القارى أنى لم أكن مخطئا فى اتخاذ الحيلة لنفسى ، وإن لم أر حتى الآن شيئا يبرر كل ذلك الحذر

ولم أكن خلال قيامى بهذا العمل مهمل شئونى الأخرى ، فقد وجهت شيئا من عنايتى وتفكيرى إلى قطع المعز الذى أصبح ثروتى ، وأغنانى عن الجرى وراء جدى أو معزى شاردة ، ووفر لى البارود . وقد كنت أخشى عاديات الدهر على هذا القطيع المجتمع ، ففكرت فى طريقة لوقايتة ، فلم أجد غير اثنتين ، الأولى أن أبحث عن مكان

(١) بله سكن أى ترك سكن

موافق أحفر فيه كهفا تحت الأرض، وأسوقه إليه ليلا، والثانية أن أجد مكانا بعيدا مستورا عن الأعين، وأسور فيه قطعتين أو ثلاثا بعيدا بمضها عن بعض، وأضع في كل منهما قليلا من المعز حتى إذا حل بقطيعي ما أخاف عليه منه. وجدت عندي خلفا له. ولم أجد أنجح من هذه الخطة وبهذا العزم ذهبت في الجزيرة لأبحث عن أحسن الأماكن. وبعد لأي ما عثرت على بقعة صالحة لا أرغب في أحسن منها، فقد وجدت مكانا يبلغ اتساعه نحو ثلاثة أفدنة محوطا بغابة كثيفة، ولم يكن من السهل الاهتداء فيه.

ولم أحتج لعمل كثير في جعل الغابة حول تلك البقعة متلاصقة متماسكة كحائط متين. وبعد الفراغ من هذا التحصين الذي لم يطل وقته سقت إليه عشرة من الأعز واثنتين من ذكورها.

الفصل الثامن عشر

تدبير روبنسن كروسو

واطلاعه على أن المتوحشين كانوا يترددون إلى الجزيرة

تجشمت كل الأعمال من جراء رؤية قدم على رمال الشاطئ، لأنني لم أر هناك حتى الآن آدميا واحدا. وقد عشت ثمة سنتين تحت تأثير الخوف، فساء عيشي. ولا يعرف كنهه حالي إلا أولئك الذين يعيشون متأثرين بالرهبة من سطوة الرجال. ولقد كان خوفي وشكوكي الكثيرة سببا في إهمال واجباتي الدينية، لأنني قلما كنت أجدني في حال يسمح لي بأداء تلك الفرائض، وأنا ثبت الجنان، مرتاح النفس، بل كنت إذا قت

بشيء من ذلك أوديه وقلبي مفعم بكل أنواع المخوفات . ولا تكون العبادة إلا عند هدوء النفس وسكونها .

ولا أطيل عليك فقد فرغت من هذه البقعة ، وذهبت لأبحث عن أخرى عانى أصيب بغيتي ، فأوغلت في الجزيرة حتى وصلت إلى شاطئها الغربي . وعند ذلك علوت ربوة من الأرض ، ونظرت إلى البحر ، فرأيت عن بعد شيئاً ظننته زورقا ، ولسكني لم أتمكن من تمييزه لبعده الشقة بيني وبينه . وقد أسفت لترك المرقب ^(١) في الكهف : ولو علمت بما سيكون ، وأنى سأرى هذا الشبح لأحضرتة معي . وقد حدّقت ^(٢) إليه ، وأطلت تحديقى حتى مللت ، وأصبحت عيناى لا تريان شيئاً من طول إحداقهما وإجهادهما فى النظر ، فتركت المنظر ، ونويت أن أحمل معى المرقب بعد الآن ، فربما احتجت إليه .

ولما تركت التل وذهبت قريبا من الشاطئ ، وجدت أن ذلك الأثر الذى رأيتُه وحررت فى تعبيره ^(٣) ومعرفة كنهه ^(٤) لم يكن عجيبا وجوده كما ظننت ، فحمدت الله على أنى لم أسكن هذه الجزيرة من الجهة التى أخافها ، بل أقمت فى مكان لا يصل إليه المتوحشون ، وقد كانوا يأتون إلى هذا الشاطئ بزوارقهم من عرض البحر للاحتماء به إن خافوا العواصف . وقد يتقابلون فى زوارقهم ، ومن حقت عليه كلمة الهزيمة وقع أسيرا فى

(١) تلسكوب

(٢) حدّقت إليه : شدد النظر إليه وأدار الحدقة

(٣) تفسيره (٤) حقيقته

قبضة المنتصرين ، وأتوا به إلى هذا الشاطئ ليأكلوه كما جرت بذلك عاداتهم المردولة .

لقد رأيت الشاطئ (الجنوبي الغربي) ، ويا لهول ما رأيت ، رأيت أنه وقد امتلأ بعظام إنسانية من جماجم وأيد وأقدام وغيرها . وقد وجدت مكان النار واضحا ، كما وجدت أثر جالوس المتوحشين حولها ظاهرا على الأرض ، فقد كانوا يجلسون بشكل دائرة حول النار ، ليأكلوا لحم أخيهم الانسان ، وقد امتلئوا غبطة وسرورا .

وقفت مفكرا في هذه الوحشية القاسية التي لارحمة فيها ولاشفقة ، وقابلي يكاد يتميز من الغيظ . وقد سمعت من قبل أن هناك طوائف تأكل لحم الآدمي ، ولكنني لم أر منظرًا مفرعا كهذا . وقد أسرعت في ترك المكان ، لأن معدتي قد اضطربت وآلمتني ، وكدت أخرج مغشيا على ، ولكن غثيان نفسي انتهى بقاء شديداً راحني ، فبرولت بعده لأفر من هذا المنظر المفزع الذي تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، وأعود إلى مقرى . وبعد أن سرت قليلا وقفت مفكرا في كل ما رأيت ، فامتلا قلبى شكرا لله على أن كانت إقامتى في جزء من الجزيرة آمنا شرًّا أولئك الوحوش . وأصبحت أرى أنى وإن كنت في شقاء ، فأنى أمنت شر كثير من الأشياء ، وأنى مدين بالشكر في هذه الحال التي لا تدعو إلى كثير من التبرم أو الشكوى . وهكذا رجعت إلى قلعتى وأصبحت مستريحا آمنا ، لأننى علمت بعد البحث والتفكير أن أولئك القوم الضالين لا يذهبون إلى الجزيرة للبحث عن شئ هناك ، وإنى لأشك أنهم جاسوا واخلأها من قبل ، ولكن لرجوعهم في كل مرة بخفى حنين أصبحوا لا يهتمون بدخل الجزيرة ، وقصروا وجودهم على ذلك الشاطئ الذى

مروصفه . وقد مضى على وأنا بهذه الجزيرة ثمانى عشرة سنة لم أرها أثرا
لآدمى . ولو بقيت فيها مثل تلك المدة لسكنت آمنا مادمت مختبئا في
أحراجها وأجها . ولم يخطر ببالى أن أظهر إلا إذا وجدت أفرادا تمدينين
من نوعى . ومع ذلك كرهت أولئك الشياطين كرها لا يحد ، وأبغضت
عاداتهم حتى أصبحت غارقا في بحار التأملات والحزن ، ولم أخرج من
منازلى سنتين متتاليتين ، لأن بغضى لملك الطائفة الجهنمية لم يجعل عندى
فرقا بين رؤيتهم ورؤية الشياطين أنفسهم . ولم أفكر أثناء تلك المدة في
الخروج لرؤية ركوتى ، لأنى خفت إن ذهبته إليها وأحضرتها أن أقع في
أيديهم ، فيكون مصيرى إلى النار التى بوقدونها ، فعوت على صنع ركوة
أخرى . وقد كان طول الزمن كفيلا برد الوسواس عنى ، فشعرت براحة
وطمأنينة كما كنت قبل أن أكشف أثر المتوحشين . غير أنى أصبحت
حذرا ، وامتنعت عن إطلاق سبطائى لئلا يسمع صوتها أحدهم إذا كان
بالجزيرة ، وأحمد ربى إذ كنت فى غنى عن استعمالها بترية ذلك القطيع
الذى أغنانى عن السعى وراء رزقى ، فلم أطلق طلقا واحدا مدة سنتين ،
وإن كنت دائما أسير ومعى سلاحى

فقد كنت أحمل مع سبطائى غدارتين ، وسكيننا أعلقه فى حزامى ،
وسيفا عريضا بلا غمد . وعدت الآن إلى حياتى الأولى ، ومما زادنى
راحة ودعة أنى وازنت بين حالى وما عساه أن يكون لو شاءت المقادير
فأوقعتنى فى شرأعمالى . ولو أن الناس جميعا ينظرون إلى من هم أقل منهم
ثروة وجاها لسعدوا ، لأن الرجل يشقى نفسه بتطلعه إلى منزلة يتوق
إليها ولا يستطيع بلوغها . وقد أضعف الخوف منى قوة الاختراع ،

فأصبحت لأنهم بما كنت أنوى الحصول عليه ، فقد فكرت في استخراج
الرجعة ^(١) من الشعير ، ولكنني أهملت ذلك ، وكنت أظنه سهل التدبير
غافلا عما يحتاج إليه من الأدوات والمواد التي يتمذر على الحصول عليها ،
كنوا جيد ^(٢) لحفظها ، وخميرة لمزجها ، ووعاء لأغلأها فيه ، ولكنني لو
لم أهدد بذلك الخوف لاجتهدت في إنفاذ مشروعي ، لأنني قليلا ما أدع
شيئا بعد أن أفكر فيه .

ولكن قوة الاختراع عندي تحولت إلى طريق آخر ، وهو طريق
القصاص من أولئك الظالمين الذين يأكلون لحم أخيهم الإنسان ، فقد
ابتدأت أدبر الأمر لقتلهم وإنقاذ تلك الفريسة التي يأتون لأكلها . وقد
وضعت كثيرا من الخطط والتدابير لذلك ، ولكنني خشيت تنفيذها ،
لأن فردا واحدا يصعب عليه أن يقا تل ثلاثين رجلا برماحهم وسهامهم
التي يقذفون بها من قسيهم وأوتارهم ، كأمر رام مدرب على الرماية .
وأردت مرة أن أحفر مطمورة ^(٣) تحت موقد ، وأضع فيها بارودا
فإذا أوردوا نارا للهب البارود فأصابهم ، ولكنني أحجمت عن تنفيذ
هذه الخطة ، لأنها ستفقدني كثيرا من ذخرتي التي قلت قلة محسوسة ،
ولأن نتيجتها غير محققة ، إذ كل ما كنت أنتظره منها أن تنفجرا حفرة
فتطير منها أجزاء تخيفهم ، ولا تودي بحياتهم . عدلت عن ذلك وابتدأت

(١) نبيذ الشعير وهي المسماة البيرة (٢) مفردة ناجود وهو وعاء الخمر ؛ وكل
أناء يجعل فيه الشراب

(٣) الحفيرة تحت الأرض يوسع أسفلها تخبأ فيها الحبوب عادة

أفكر في حيلة أخرى لهلاكهم ، وهي أن أختبئ في مكان يشرف عليهم بحيث أراهم ولا يرونني ، وأخذ معي بنادقي الثلاث المزدوجة بعد أن أملأها جيداً ، فإذا ابتدءوا لهوهم ولعبهم حول فريستهم أطلق عليهم تلك البنادق . وكنت واثقاً أنني أقتل بعضهم وأجرح بعضاً بكل طاق ناري ، فإذا انتهيت من تلك العملية أهاجم عليهم بخنجرى وسيفي فأقضى على من به منهم بقية من الحياة . وقد امتلأت نفسي بهذه الفكرة حتى كنت أحلم بها في منامي ، وأراني في الحلم منقضا عليهم فاتكاهم . وقد ذهبت مرات عدة لأبحث عن مكان يمكنني الاختفاء فيه ، وإنفاذ مشروعي منه ، ولكني لما ترددت على المحل ، ورأيت أثر وحشيتهم وهمجيتهم وأكل بعضهم بعضاً ، سكن بعض ما كنت أجده من الحقد والضغينة . وبعد لأي وجدت مكاناً يناسب غرضي إذ يمكنني من رؤيتهم جميعاً ، وهم عند فريستهم . وفي هذا المكان عزمت على تنفيذ خطتي ، فلأت بنادقي باروداً ورصاصاً ، وأخذت معي ذخيرة تكفي لملئها مرتين أو أكثر إذا احتجت لذلك . وقد ذهبت كثيراً إلى المكان الذي اخترته ، على أرى أحداً فلم أوفق لشيء مما كنت أبغي . وقد كان ذلك الشاطئ يبعد عن سكني بنحو ثلاثة أميال . فابتدأت بعد ثلاثة أشهر أشعر بالتعب من كثرة الذهاب والأياب ، إذ كنت أنظر بعيني المجردة ومرفقي ، فما كنت أرى شيئاً قط من آثارهم . وكنت في جميع تلك المدة التي ذهبت فيها إلى الرُّبِّي المشرفة على ذلك الشاطئ مصراً على تنفيذ نيتي ، ومستعداً لقتل عشرين أو ثلاثين من أولئك الزوج الوحشيين العراة لذنب لم أفكر

فيه حق التفكير ، بل امتلاً رأسي ضدهم عند ما رأيت أثر وحشيتهم التي تخالف الطبيعة . وقد أراد الله بحكمة تدبيره تركهم بلا مرشد ولا هاد ، إلا شهواتهم الدنيئة التي أغرقوا فيها وأهملوا . واستمروا على تلك الحال يأتون أعمالاً قبيحة ، ويتمسكون بعبادات شيطانية تأصلت في نفوسهم وألفتها طبائعهم الخبيثة . ولما مللت الذهاب والعودة بلا ثمرة ترجى ، ابتدأت في تغيير خطي ، والتفكير فيما كنت قادم عليه ، وأى حق لى في تنفيذ ما عزمت عليه من قتلهم وتشتيتهم ؟ هل أنا قاض حق أحد في ذلك ؟ لقد اقتضت إرادة الله أن يكونوا كذلك منفذين قضاءه فيهم . فهل أصابني منهم ضرر حتى أدرا عن نفسى شرهم ؟ وما هو حكم الله في ذلك ؟ إنهم لم يأتوا هذا العمل ، وهم يعتقدون أنه جريمة تخالفها ضمائرهم ، ويعذبهم عليها وجدانهم . إنهم لا يعتبرون أعمالهم جرائم تخالف شريعة الله ، كما نفترف جل ذنوبنا ، ونحن موقنون بذلك . إنهم لا ينظرون إلى قتل أحدهم إلا كما ننظر إلى ذبح ثور ، ولا يرون أكلهم لحمه إلا كما نرى أكل اللحوم التي أحل لنا أكلها .

ولما أمعنت في مثل تلك الأسئلة بحثنا ظاهر لى أنى كنت مخطئاً ، وأن أولئك الزنوج ليسوا قتلوا بالمعنى الذى فهمته أولاً ، أكثر مما أرى باقى الشعوب الذين يقتلون أسراهم ، أو يعملون السيف فى جماهير من الناس ، وإن ألقوا سلاحهم وساموا . وقد ظهر لى أنهم وإن أجرم بعضهم مع بعض لم يصلى أذاهم . ولهذا لم يكن من العدل فى شئ أن أضرهم ، بل يجب أن أدعهم حتى يبدؤوا ، فإن فعلوا علمت كيف أدافع عن نفسى وأوقع بهم شروقيعة . ولو جاز لى قتلهم بلا داع لما أيم أهل إسبانيا

على أعمالهم الوحشية في أمريكا حيث أهلـكوا ملايين عدة من أولئك القوم الذين نراهم أبرياء إذا قرنوا بهم ، وإن كانوا وثنيتين متوحشين ، وكانت لهم عادات وطقوس دينية وحشية ، كتضحية الناس لأصنامهم . وإن تلك الأعمال الجائرة التي ارتكبتها الأسبانيون لا تزال تذكر بين الأوربيين والأسبانيين أنفسهم في هذه الأيام ببغض وكرهية ، ويعتبرونها أعمالا وحشية دموية ، وقساوة بشرية لا تبررها الشرائع ، وأصبح اسم الأسبانيين بسببها مخيفا كريها عند كل من به ذرة من الشفقة في العالم . وكأن الله قد اختص إسبانيا بقوم قد عريت نفوسهم من مكارم الأخلاق ، ومبادئ الرأفة والحنان نحو الفقراء والمساكين .

وكانت هذه الأفكار سببا في توقي عن المضي في تنفيذ خطتي ، والابتعاد عن طريقها ، والاعتراف بأنني أخطأت التقدير ، إذ عزمت على مهاجمة أولئك المتوحشين ، ولم يكن لي حق في أن أتدخل^(١) في شئونهم إلا إذا ابتدءوني بشرهم . وحينئذ أعرف كيف أرد كيدهم في نحورهم . ومن جهة أخرى علمت أن خير سبيل لي هو أن أبتعد عنهم ، وأتوارى عن عيونهم ، ولا أنفذ ما عزمت عليه إلا إذا قدرت على إهلاك كل من يأتي إلى هذه الجزيرة في كل مرة ، إذ لو فر أحدهم راجعا إلى قومه لأخبرهم بما حل بصحبه ، فيأتون ألوفاً للآخذ بثأرهم . وحينئذ أكون قد سمعت إلى حثي بظاني . فلم يكن من حسن السياسة والتدبير ولا من مكارم الأخلاق أن أعارضهم في أمورهم التي لاتعنيني ، فعولت

(١) أتدخل مثل أدخل

على أن أختبئ عن أنظارهم ، ولا أترك أثرا يدل على أن بالمكان مخلوقا إنسانيا . وقد ساعدنى الدين فى خطى الجديدة ، وأصبحت مقنعة بخطئى حين كنت أضع الخطط والتدابير لأهلك أولئك الرهط الذين لم يأتوا ولم يجرموا بالتعدى على . أما جرائمهم التى يرتكبونها بينهم فلا دخل لى فيها ، والله يتولى عقابهم عليها كما تولى خلقهم وتوزيعهم فى الأرض وقد وضحت لى الآن أنى تجنبت أمرا لو أتيته لكنت كمن ارتكب القتل عمدا وعد قاتلا آثما .

فسجدت شكرا لله على ما وفقنى إليه من اتباع طريق الحق ، وعصمنى من الزلل وضرعت إليه أن يقينى شر الوقوع فى أيدى المتوحشين ، وألا يسول لى الشيطان الأيقاع بهم ، إلا إذا وجد المبرر لذلك .

الفصل التاسع عشر

وجود روبنسن كروسو مغارة يستتر فيها من المتوحشين

وقد مكثت سنة كاملة لأذهب إلى مكانهم من الجزيرة لأراهم أو أرى أثرهم ، خشية أن تسول لى النفس — والنفس أمارة بالسوء — أن أغتحم الفرصة فى غفلتهم ، فأمزقهم شر ممزق . وذهبت إلى ركوتى وقعتها إلى الطرف الشرقى من الجزيرة ، حيث أدخلتها مغارة تشرف عليها الصخور . وقد علمت أن من كنت أخشاهم لا يمكن أن يكونوا هناك لأن التيار لا يساعدهم . ونقلت معها كل ممتلكته هناك من أدواتها ،

وهى الصارى والشمراع ، وأنجرها الذى اتخذته لها ، لأخفى كل أثر حتى لا يتجه فكر أحد إلى أن بالجزيرة إنسانا يسكنها ، وقبعت فى مُعْتَكِفِي متواريا عن كل عين ، ولم أغادره إلا لحلب المعز وتعهده القطيع الذى أبعدته فى الجزيرة بين الأدغال ^(١) والأجم . وكان بعيدا عن كل خطر لأن القوم بعد أن جاسوا خلالها ولم يجدوا بها شيئا ، اطمأنوا إليها ، وقصروا وجودهم على شاطئها . ولم يختلجنى أقل شك فى أنهم أتوا إلى الشاطئ كثيرا ، بعد أن حذرتهم ، كما كانوا يفعلون قبلا . وكنت اضطرب حين أنظر إلى الحالة التى كانت لا محالة تنتظرنى لو صادفونى عند جولانى فى الجزيرة ، عاريا غير مسلح إلا بسبطانة واحدة مملوءة فى الغالب بقطع رصاصية صغيرة . وماذا كنت أعمل لو كنت عند عنورى على أثر تلك القدم قد صادفت خمسة عشر رجلا أو عشرين منهم ، ورأيتهم يجدون ركضا فى أثرى طالبين قتلى ، وليس لى إلى الخلاص سبيل ، لأنهم يعدون كالريح طائرة . وكان مجرد التفكير فى تلك الحالة يزعجنى إزعاجا لا يدرك غوره . وكان من الصعب أن أتخلص من وساوسه ، إذ بربك ماذا كنت أعمل لو أخذت على غرة ولم يترك لى وقت كاف للتفكير ؟ بل ماذا أصنع لو ذهمنى خطرهم بعد طول الأناة والبحث ؟ إن الأمر شاق والموقف حرج ، غير أنى حولت كل ذلك لشكر العناية الإلهية ، لأنها حاطتنى من شرور كثيرة غير منظورة ، وأقذتني من مهالك هائلة لم تكن لى قدرة على الخلاص منها . فذكرنى موقفى هذا بشعور كنت أجده

(١) الأدغال جمع مفردة دَغَل وهو الشجر الكثير الملتف

في الماضي، عند ما فكرت في آلاء الله ورحمته التي وسعت كل شيء، وعنايته التي أنقذتنا من الوقوع في مخاطر هذه الحياة، حيث لا علم لنا بشيء منها. وذلك الشعور هو كيف نسلك طريق النجاة في حال الشك والتردد؟ إننا في ذلك الوقت، حين لا ندرى أى طريق نسلك، نشعر بأيعاز باطنى ينبعث من نفوسنا فيرشدنا إلى سلوك هذه الطريق في حين كنا نميل إلى سلوك طريق أخرى، فأن عواطفنا وميولنا وطورا أشغالنا تدعونا إلى طريق معين، ثم يعن لنا بدافع باطنى لا ندرى كنهه حاله، ولا من أين يصدر، أن نعدل إلى طريق آخر، فيحدث ذلك الباعث في عقولنا تأثيرا عجيبا. ويظهر لنا في النهاية أننا لو خالفنا ذلك الباعث الخفى إلى ميلنا الأول لهلكنا. وقد اتبعت في أعمالي قاعدة لم أحد عنها قيد أنملة، وهى أنى إذا عزمتم على مباشرة أمر أو تركه، ووجدت ذلك السر الخفى يوجهنى ناحية معلومة، أسير خلفه، ولو لم أعرف السبب. وقد نجحت بهذه الخطة، وخاصة أثناء إقامتى الأخيرة بهذه الجزيرة. وسيتضح لك ذلك من سياق قصتى.

وإن القارىء ليعرف أن المخاوف المتواصلة، والهموم التي تراكمت على، حالت دون كل اختراع وتدير لراحتى، لأنى اهتممت بالدفاع عن حياتى، والمحافظة عليها، أكثر من توفير قوتى، فلم أجروء على دق مسمار، أو قطع عصا من الأشجار، أو إطلاق رصاصة لئلا يسمع الصوت، فأدل على نفسى، وأنا أحرص ما أكون على إخفائها. ومن أجل هذا كنت أنجز أعمالى التي تحتاج إلى نار، كحرق القدور، ومداخن التبغ في منزلى الجديد وسط الأحرار والأدغال، حيث وجدت بعد أن أمت مدة مغارة

طبيعية في الأرض ممتدة إلى مسافات طويلة . فأذا وصل إليها أحد الزوج لايجزؤ على ولوجها ، ولا يودأى إنسان آخر ذلك ، إلا إذا كان مثلى حريصا على طلب ملجأ أمين . ومهما أطنبت في وصف فرحى لوجود هذا المكان فإن أفى بما أريد . وكان فم المغارة مستورا تحت صخرة كبيرة ، وقد رأيته مصادفة وأنا أقطع خطبا لأصنع فخا . وقبل أن أستمع في قصتي ينبغي أن أخبرك بما حماني على اتخاذ الفخم وقودا . إنى خفت أن أحدث دخانا لثلاثينم عن وجودى ، كما حدثتك بذلك ، ولكنى لايمكننى الاستغناء عن الخبز والطبخ ، فأعملت فكرى للتخلص من هذه الشدة ، فأدى بى الفكر الناقب إلى اتخاذ خم من الخشب ، أحرقه وهو مغطى بالطين ، ثم أطفئه بعد أن أتأكد أنه تحول إلى خم ، وأحمله إلى سكنى ، فأستعمله في شئونى المنزلية ، وأنا آمن من كل خطر

والآن أعود لما كنت فيه . فبينما كنت مشغلا بقطع الخشب ، رأيت وراء تلك الأشجار الظليلة مكانا مجوفا ، فرعبت أن أعرفه ، فوالت بابه بصعوبة ، فرأيت فيه كبيرا يكفى أن أقف فيه منتصبا ، وربما وسع إنسانا آخر معى ، ولكنى عجات بخروجى منه أكثر مما أسرعت في دخولى إليه ، وذلك لأننى نظرت إلى الداخل المظلم ، فرأيت عينين كبيرتين تبرقان . وكنت في حيرة من أمرهما ، إذ لم أدر أعينى إنسانا كانتا أم عيني شيطان ؟ وكانتا تامعان كأنهما نجمان ، لأن النور الضئيل المنبعث من فم المغارة كان يمتد إلى الداخل مستقيما ثم ينعكس راجعا إلى الخارج ، وبعد توقف قليل رجعت لنفسى فاتهمتها بالجنون ، وقام بنفسى أن من



ولسكنى عجائب بخروجى منه أكثر مما أسرع فى دخولى إليه

يُخَافُ مِنَ الشَّيْطَانِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ عَشْرِينَ عَامًا فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ
الْوَحِيدَةِ مُنْفَرِدًا . وَكَيْفَ أَخَافُ وَلَيْسَ فِي الْجَزِيرَةِ مِنْ يُخَافُ مِنْهُ غَيْرِي ،
فَتَشَجِمْتُ وَأَخَذْتُ مَشْعَلًا ^(١) ، وَانْطَلَقْتُ دَاخِلَ الْمَغَارَةِ ، وَالْمَشْعَلُ يَلْتَهَبُ
فِي يَدِي ، وَلَمْ أَخْطِ خُطَوَاتٍ ثَلَاثَةَ حَتَّى اكْتَنَفَنِي رَعْبٌ شَدِيدٌ ، إِذْ سَمِعْتُ
أُنِينًا قَوِيًّا كَأَنَّ إِنْسَانًا بِهِ أَلَمٌ شَدِيدٌ . وَكَانَ يَتَّبِعُ الْأُنِينَ صَوْتٌ مُتَقَطِعٌ كَأَنَّهُ
كَلِمَاتٌ يُنْطَقُ بِنُصْفِهَا ، ثُمَّ يَعُودُ ذَلِكَ الصَّوْتُ أُنِينًا عَمِيقًا ، فَأَجْفَلْتُ رَاجِعًا
إِلَى الْوَرَاءِ . وَقَدْ انْتَابَتْنِي رَعْدَةٌ شَدِيدَةٌ حَتَّى تَبَالَلَ جِسْمِي بِعَرَقٍ بَارِدٍ ،
وَلَوْ كَانَ عَلَى رَأْسِي قُبْعَةٌ لَسَقَطَتْ لِأَنَّ شَعْرِي قَدْ تَصَلَّبَ مِنَ الْخَوْفِ ،
وَلَكِنِّي عُدْتُ إِلَى النَّفْسِ فَقَوِّمْتُ اعْوَجَاجَهَا . وَسَكَنْتُ اضْطِرَابَهَا ،
وَحَمَلْتُهَا عَلَى التَّجَلُّدِ وَالْأَنَانَةِ . وَبِذَلِكَ عُدْتُ إِلَى الْمَغَارَةِ وَبِيَدِي مَشْعَلًا ، فَرَأَيْتُ
أُمَامِي تَيْسًا مَخِيفًا عَظِيمَ الْجَنَّةِ ، يَعَالِجُ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ ، يَنْزَاعُ الْمَوْتَ وَالْمَوْتَ
يَنْزَاعُهُ ، بَعْدَ أَنْ أُسْنِ وَعُمُرٌ طَوِيلًا . وَقَدْ رَفَعْتُهُ قَلِيلًا لَا أَرَى إِذَا كَانَ فِي
مَقْدَرِي إِخْرَاجَهُ مِنَ الْمَغَارَةِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى الْقِيَامِ ، فَتَرَكْتُهُ
مَكَانَهُ ، وَقَالَتْ لِنَفْسِي إِنَّهُ أَخَافُنِي ذَلِكَ الْخَوْفُ الشَّدِيدُ ، فَسَوْفَ يَخْجِفُ
غَيْرِي مِمَّنْ يَدْفَعُهُمْ طَائِعُهُمْ إِلَى ذَلِكَ الْوَكْرِ الْوَعْرِ . وَلَمَّا سَكَنَ مَا كُنْتُ أَجِدُ
مِنَ الدَّهْشَةِ ، نَظَرْتُ فَوَجَدْتُ الْمَغَارَةَ صَغِيرَةً لَا تَتَجَاوَزُ اثْنَيْ عَشَرَ قَدَمًا ،
وَكُنْتُ غَيْرَ مُنْتَظِمَةٍ الشَّكْلِ ، فَلَا هِيَ بِالْمَرْبُوعَةِ وَلَا بِالْمُسْتَدِيرَةِ ، وَلَمْ تَنْظُمْهَا غَيْرُ
أَيْدِي الطَّبِيعَةِ . وَلَمَّا أَحْكَمْتُ النَّظَرَ وَجَدْتُ فِي نَهَايَةِ الْمَغَارَةِ مَكَانًا مَوْصَلًا إِلَى جِهَةٍ
أُخْرَى لَا أَعْلَمُ لِي بِهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ قَلِيلَ الارتفاع ، بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ اجْتِيَازُهُ

(١) المِشْعَلُ - الْقَنْدِيلُ

إلحجوا على الأيدي والرؤس. ولما كنت غير مزود بشيء من الشمع تركت كشفه إلى الغد، لأرجع ومعى ما يلزم لذلك. وفي الغد عدت ومعى ست شمعات كبيرة من صنع يدي، لأنني كنت أتخذ الشمع من شحم المعز، واتجهت نحو المغارة وزحفت على الأيدي والأرجل نحو عشر خطوات. وكان هذا العمل مملوءاً بالخطار لأنني لم أعرف مقدار امتداد ذلك السرب، ولا النهاية التي يؤدي إليها. ولما قطعت المدخل الضيق ارتفع السقف نحو عشرين قدماً. ولم أرف في الجزيرة كلها مثل منظر هذه المغارة الجميلة، فقد رأيت بنور الشمعتين المتقدتين في يدي مئات الألوف من الأشعة المنعكسة من الجوانب والسقف. ولم أدر مم تركبت الصخور؟ أم من الماس والأحجار الكريمة، أم من الذهب؟ وقد ترجح لدى أنها صخور ذهبية. وكان هذا المكان أبهج مغارة رأيتها، وإن كانت مظلمة. وكانت أرضها جافة مطمئنة، مغطاة بحصى ومرو^(١)، فلم يكن بها هوام ضارة، ولا رطوبة في صخورها، ولم يكن فيها صعوبة غير ضيق مدخلها. ولسكني أردت أن أتخذها مهرباً لي، ففرحت برؤيتها فرحاً لا يوصف، وعزمت على أن أحضر إليها من متاعى ما كنت أشد خوفاً عليه من غيره كبارودي، وما استغنيت عنه من الأساحة.

وبينما كنت مشغلاً بنقل ذخيرتي فتحت صندوق البارود المبال، ولسكني وجدت الماء لم يصل فيه إلى أكثر من ثلاثة قراريط، فحمد

(١) الحجارة البيض الرقاق التي تقدح منها النار أو حجارة صلبة يتخذ منها

ما يشبه السكاكين وهي تعرف بالصوان

البارود في شبه دائرة حفظت مابداخلها من البلب ، كما يحفظ النوى في غلافه . وبذلك حصلت علي نحو ٦٠ رطلا من البارود الجيد ، فكان سرورى به عظيما جداً . نقلت جميع ذلك إلى مغارتى ، ولم أبق في قلعتى من البارود أكثر من أقة ، خشية أن يدهنى خطب فيودى به . وكذلك نقلت صفائح الرصاص لعمل كرات صغيرة منه لبنادق . وأصبحت أرى نفسى كأجد الجبابة البائدين الذين كانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين فكانوا يسكنون الكهوف في الصخور حيث لا قدرة لأحد على الوصول إليهم ، لأننى أيقنت أنه لو اتفق وبحث على خمسمائة رجل من المتوحشين فإن يمكنهم العثور على ، وإن فعلوا فسيجبون عن الهجوم على ذلك المكان . وفى اليوم التالى لكشف المغارة وجدت التيس ميتا ، ففضلت حفر لحد له في مكانه على أن أجره إلى الخارج . وبعد تهيئة ذلك الاخدود دفنته فيه ، ثم هلت عليه التراب حتى أريح نفسى من رائحته الكريهة . وكنت حينئذ في السنة الثالثة والعشرين من إقامتى بهذه الجزيرة . وقد تعودت المعيشة فيها ، وأصبح الجو ملائما بعد تلك المدة الطويلة . ولوأنمت شبر المخاوف والمتوحشين لقنعت بحياتى ، وارتضيت أن أصرف مابقى لى من الأيام هنا ، حتى ألفظ النفس الأخير بتلك المغارة ، كذلك الوعل^(١) المسنّ وابتدأت ألهو ببعض أشياء لأتسلى بها ، فكنت أقضى الوقت فى سرور ولذة لم أشعر بهما من قبل ، لأننى علّمت ببنغائى « بول » التكلم ، فأجاده حتى بات يتكلم بوضوح تام ، ويحيد إخراج الألفاظ ، فكنت

أعجب من قدرته، وأسلى النفس بسماعه، وأظنه أول طائر أوضح المخارج
وجود النطق . وقد عاش معي ستا وعشرين سنة ، والله أعلم كم سنة عاش
بعدها ، لأنني سمعت أهل البرازيل يقولون إن الببغاء يعمر مائة عام، وربما
لا يزال «بول» حيا يرزق إلى هذه الساعة ينادي « روبن كروسو » . وأرجو
ألا يحمل نكد الطالع أحدا من الناس على سماع صوته . وكان كلبى رفيقا
لى فى الغربية ، أنيسا فى الوحدة ، صديقا صادق الود مخلصا لى نحو ست
عشرة سنة ، حتى أضنته الشيوخوخة فمات من الكبر . أما قطأتى (١) فقد
تسكّوت جدا حتى اضطررت أن أقتل منها عددا كبيرا ، وأطرد بعضها
لثلاثا كل ما عندى ، فوأت هاربة إلى الأدغال والأحراج ، إلا اثنتين
أو ثلاثا كانت عزيزة لى فأبقيتها بجوارى ، وأغرقت ما ولدته فى كل بطن .
وكذلك أبقيت معي جديين أو ثلاثة كنت أطعمها يمدى ، ويبغاوين آخري
يحسنان التكلم ، ويصيحان مناديين « روبن كروسو » . ولم يكونا عندى
فى المنزلة كببغائى الأول « بول » ولم أعتن بتعليمهما وتدريبهما ، كما فعلت
به . وكذلك كان فى حوزتى من طيور البحر عدد كبير لم أعرف أسماءها .
وقد كنت أمسكت بها عند الشاطئ وقصصت أجنحتها ، فكانت
تسكن فى الغابة التى غرستها يمدى ، وتبيض وتفرخ هناك ، فكنت أسر
كثيرا لذلك .

وهكذا ابتدأت أعيش قنعا راضيا مسرورا لولا ما كان
يعتربنى من خوف المتوحشين ، كما أخبرتك من قبل ، ولكن

(١) القطأت جمع مفردة قطأة وهى الهرة

لأراد اقتضاء الله ولا معقب لحكمه . وقد يفيد الذين يقرءون قصتي أن
يعتبروا بهذه النتيجة ، وهي أنه قد يحدث كثيرا أن يكون الشيء الذي
نبذل قصارى جهدنا في تجنبه والتوقي منه ، والذي إذا وقعنا فيه نجده
خفيفا مفرغا ، الوسيلة لنجابتنا ونهو ضنا من الكارثة التي نخشاها ، ويسهل على
إيراد الأمثلة لذلك من هذه القصة المدهشة ، وخاصة المدة الأخيرة من
إقامتي في تلك الجزيرة .

الفصل العشرون

مجيء المتوحشين ثانية إلى الجزيرة ، ورقصهم هناك

وانكسار سفينة بالقرب من شاطئها

وكنيت في شهر ديسمبر من سنتي الثالثة والعشرين ، وكانت هذه
أيام الحصاد ، فكنت مضطرا لتضيق كثير من وقتي خارجا أعمل في
حقل . وبينما كنت ذات يوم منطلقا إليه مبكرا عند طلوع الفجر ، وابتداء
تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، إذ رأيت بغتة ضوء نار توقد^(١)
نحو الشاطئ ، على بعد ميلين مني في تلك الجهة التي لاحظت فيها قوما
من المتوحشين ، ولكنهم لم يكونوا في هذه المرة في المكان الذي رأيتهم
فيه أولا ، بل كانوا على الجانب الذي كنت مقبلا فيه . فدهشت من هول
الموقف ، ووقفت في غابتي لا أجرو على الخروج لئلا أرى فأدوم . وظلمت
هناك غير مطمئن ، خوفا من أولئك القتلة ، لأنهم إذا طافوا بالجزيرة

(١) أصله تنوقد حذف إحدى التاءين تخفيفا

ووجدوا زرعى قائماً أو حصيداً^(١)، أو شيئاً آخر من أعمال الأصلاح التى باشرتھا، فسيستدلون منها على وجود سكان بالمكان، فلا يستريحون حتى يجدوني. فهرولت قافلاً وقابى يكاد ينفطر خشية. فدخلت قلعتى، وأنزلت سامى، وجعلت منظر ما كان خارجاً وحشاً طبعياً، كأن لم اتصل إليه يد الإنسان

وابتدأت أرتب حصنى لأكون فى موقف المستعد للدفاع عن دماره^(٢)، فثألت بنادق التى أقمته على أسوار تلك القلعة كأنها مدافع حصون، عازماً على المقاومة إلى آخر رمق فى الحياة. وقد سامت نفسى خالقى، وارتيمت فى أحضان عنايته، ودعوته بأيمان صادق أن ينقذنى من أيدي أولئك القوم الظالمين. بقيت على تلك الحال ساعتين كنت أرغب فيهما أن أقف على أخبارهم، ولكن لم تكن عندي عيون لتأتيني بها.

وبعد أن أقت زمناً أفكر فيما ينبغي عمله فقد تجلدى، ولم أطق صبراً على الجهل بأمورهم، فنصبت سامى إلى جانب التل، وعلوته صاعداً حتى وصلت إلى مكان مستو هناك، ثم رفعتة ووضعتة على ذلك المكان، وصعدت طامعاً على رأس ذلك التل، ثم أخذت مرقبى، واضطجعت على بطنى، وابتدأت أفتش عن موضعهم، فلم يطل بحى إذ رأيت ما لا يقل عن تسعة من أولئك الزنوج العراة، وهم جلوس حول نار صغيرة موقدة لا يصطلوا بها — لأن الجو كان حاراً جداً — بل ايشووا عليها طعامهم من لحم الضحايا الذين أتوا بهم. ولم أدر أأحياء كانوا أم أمواتا؟

(١) محصودا (٢) الدمار كل ما يلزمك حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه

وكان معهم زورقان قد جروهما إلى الشاطئ، إذ كان الماء منجسراً عنه بسبب الجزر. وقد لاح لى أنهم ينتظرون عودة الماء ليرجعوا إلى ديارهم. وليس من السهل أن تتخيل اضطرابي لرؤيتهم بذلك الجانب من الجزيرة قريبين منى، وليكني حين لاحظت أنهم لا يأتون إلا مع حركة الجزر، ابتدأت أملك قوتي، وأريج عقلى من ذلك العناء، فقد اقتنعت بأن لا خطر على من الخروج، مادام تيار الماء مرتفعاً، إن لم يكونوا هناك من قبل. وعلى ذلك خرجت لحصادى، وأنا ساكن البال مطمئن الخاطر. ولقد تحقق ظنى لأنهم مارأوا الماء يعاو متجها غربا حتى رأيتهم قد اعتلوا زوارقهم، وجدوا في التجديف. وقد لبثوا ساعة يرقصون قبل انصرافهم، ورأيت بمرقبى حرركاتهم وإشاراتهم فى الرقص. وقد كانوا عراة كما خلقوا ولم أميز أرجالا كانوا أم نساء؟

ولما رأيتهم لولا الأدبار أخذت معى ما يكفى من الأسلحة، واتجهت نحو المكان الذى رأيت منه أثرهم فى أول الأمر، فوصلته بعد ساعتين لأنى كنت منقلا بالأسلحة فلم أسرع السير. وما كدت أطؤه حتى رأيت أثر ثلاثة زوارق أخرى كانت هناك، فوجهت وجهى شطر المحيط، فرأيتها متجمعة تجدد كلها نحو القارة. (١)

وكان المنظر من عجايبها، وخاصة رؤيتى آثارهم على الشاطئ، فقد تركوا ما يدل على وحشيتهم وغلظة أكيادهم من عظام مهشمة، وجماجم

(١) لأنه كان أحيانا يسمى الأرض التى يراها قارة



وقد لبثوا ساعة يرقصون قبل انصرافهم

مفلقة وأشلاء^(١) مبعثرة، ودماء تجري، وبقية لحم مما تركوا بعد أكلهم في
طرب وانسراح.

فامتلات غيظا وحنقا، وابتدأت أفكر بجدي إهلاك من يأتي منهم
ثانية غير آل جهدا في ذلك مهما كان عددهم. وقد لاح لي أن ترددهم على
هذا المسكن لم يكن كثيرا. لأنه قد مضى نحو خمسة عشر شهرا لم أر
لهم أثرا في الجزيرة أثناءها، لأنهم في الفصول الممطرة لا يودون الوصول
إليها. وقد كنت في تلك المدة مضطربا خائفا من شرهم، متوقعا أخذى
على غيرة مني، فأيقنت أن توقع البلاء شر من الوقوع فيه، وخاصة إذا
لم يكن هناك أمل للتخلص من ذلك الانتظار وتلك المخاوف.

وكنيت في تلك الفترة على استعداد لأن أرتكب القتل. صارفا
أكثر ساعاتي في تدبير الحيل للايقاع بهم متى وجدتهم. وحبذا حسن
طالعي إذا رأيته منقسمين قسمين كما كانوا أولا. ولا أدري لم لم اعتبر
نفسى سفاكا أكثر منهم، لأنني إن قتلت اليوم منهم عشرة رجال فسأقتل
غدا أو بعد غد منهم مثل ذلك العدد، كلما أتى إلى الجزيرة منهم آت

وقد أنفقت ساعاتي والقلق مستحوذ على، إذ علمت أنني لا بد واقع
في أيدي أولئك المردة القساة، فذرت شرهم، وخفت كيدهم. وتبين لي
حينئذ سعادة جدي بذلك القطيع من المعز، إذ أصبحت غير قادر على
إطلاق سبطاتي. وخاصة عند ذلك الجزء الذي اعتادوا النزول فيه لأنهم

(١) أشلاء جمع مفردة شلو وهو العضو من أعضاء اللحم

إذا سمعوا صوتها فسيذهبون مواين هارين ، ولكنهم لا بد أن يعودوا ثانية بعد أمد قليل ومعهم مائة قارب أو ثلثائة . وعلمت مآل أمرى إن فعلوا ذلك . بيد أنى بقيت خمسة عشر شهرا لا أرى لهم أثرا فى الجزيرة ، وإثرها صادفتهم كما سيأتى بيانه بعد قليل . وليس من المتعذر أن يكونوا قد ترددوا إليها على غير علم منى . غير أنى فى شهر مايو من سننى الرابعة والعشرين بالجزيرة صادفتهم مصادفة مدهشة سأقص عليك نبأها بعد حين .

وكنيت غارقا أثناء تلك الفترة فى بحر من الشك والارتباك ، غير مرتاح فى نوم أو يقظة ، فكنت أرى ليلا أحلاما مزعجة مروعة تُقْضُ (١) مضجعى ، وأرانى آخذا فى قتلهم ، مفكرا فى الدواعى التى تبرئ لى ذلك . وفى اليقظة تغشانى الأفكار المتعبة . ولكن لنذع ذلك الآن جانبا لا أخبرك أنى فى اليوم السادس عشر من شهر مايو ، كما تبين لى ذلك من النظر فى عمود الحساب الخشبى الذى كنت إلى ذلك الوقت أستخذه لهذه الغاية ، وأعتمد عليه فى ميقاتى ، أحسست ريحا زعزعا نائرة ذلك النهار كله ، مصحوبة ببروق وعود شديدة ، ثم أعقب ذلك ليلة حالكة الجلباب غدافية الأهاب ، (٢) ولم أدر سببا لذلك كله . وبينما كنت أقرأ فى كتابى المقدس إذ سمعت صوتا ظننته طلق مدفع أطلق بحرا ، فامتلات دهشة تختلف فى حقيقتها عما اعترانى قبلا ، فبادرت بأقامة سلمى على التل ، وبعد الصعود رفعتة ووضعته مكاني ، ثم صعدت فيه ثانية . وماصرت

(١) أَقْضَى اللهُ مضجع فلان جعله خشنا متربا

(٢) ليلة حالكة الجلباب غدافية الاهاب أى شديدة الظلام

فوق القمة حتى رأيت وميض نار مدفع ينبهني أن أصغى إلى صوت طلاق آخر . ولم يمت أ أكثر من نصف دقيقة حتى سمعت الصوت المنتظر ، وتبين لي منه أنه من مدفع بحرى تجاه المكان الذى أرفأت^(١) ركوتى به ، وأنه فى سفينة قد اكتنفتها الأهوال من كل جانب ، فهى تطلق مدافعها طلبا للنجدة من سفينة أخرى ربما كانت قريبة العهد برؤيتها فى تلك الأصقاع^(٢) . وكنت أرجو أن أساعد ركبها ، أو يساعدونى على هذا الضيق ، فاحتطبت^(٣) خطبا كثيرا جمعته فى مكان واحد ، وأشعلت به النار ، فاتقد انقادا شديدا لجفافه . وكانت الريح تهب قوية فزادت النار اشتعالا ، ولم أشك فى رؤية القوم لها ، لأنها ما ابتدأت تملوح حتى سمعت صوت مدفع تبعته طلقات عدة . وهكذا بقيت الليل كله أحتطب وأضع ما أجمع على النار حتى وضع الصباح ، وفرت فلول الظلام . فلما أشرقت الشمس بنورها ، وصفا الجو ، رأيت عن بعد شبحا قاصيا فى البحر ، شرق الجزيرة ، لم أميزه بمرقبى ، لبعده الشقة بينى وبينه ، ولتبلد الجو بشيء من السحب . وخاصة ما يلى الماء منه ، فلم أتمكن من تمييز الشبح أمركب هو أم قلع ؟ ولما بقيت أنظر إليه مرات كثيرة تبينته لا يتحرك ، فعلمت أنه مركب قد أتى مراسيه . ولما كنت راغبا أن أتحقق ذلك أخذت سبطاتى ، وركضت إلى الجنوب من الجزيرة ، حيث تلك الصخور التى حملنى التيار

(١) أرفأت السفينة قربها من الشط

(٢) جمع صقع وهو الناحية

(٣) احتطب الرجل جمع الحطب

إليها ذاهبا إلى البحر . فلما وصلت إليها كان الجو قد ازداد صفاء فرأيت
أثر سفينة قد قذفت ليلا على تلك الصخور التي كشفتها عند ما سافرت
بركوتى ، وكانت سببا لنجاتى من أعظم خطر انتابنى فى حياتى . وكذلك
تختلف الحظوظ ، فقد يكون الشئ مهلكا لفرد ونجاة لآخر ، لأن أولئك
القوم كانوا يجهلون المكان ، وتلك الصخور المغطاة بالماء ، فدفعوا إليها ليلا
لهبوب الريح وكانت صَبَإِيَّة^(١) . ولو رأوا الجزيرة لاجتهدوا فى الوصول
إليها فى قواربهم . وكان إطلاقهم المدافع طلبا للنجدة ، ورؤيتهم لهيب النار
اللى أوقدتها ، سببا لكثرة أفكارى . فتارة كنت أرى أنهم لما رأوا لهيب
نارى ركبوا زورقهم ليصلوا إليها ، ولكن التيار دفعهم بشدة فلم يقدرُوا
على الوصول إلى الشاطئ . وطوَّأ أرى أنهم أضاعوا قاربهم بهجوم الأمواج
على السفينة واكتساحها له ، أو بالقائه إلى البحر بأيديهم . ومرة أرى أن
مركبا كان يرافقهم فأنجدهم وانصرف بهم متوغلا فى المحيط ، وليس بعيد
أن يكونوا قد نزلوا إلى قاربهم فغلبهم التيار على رغم أنفهم إلى لجج
الأقيانوس العظيم ، حيث الشقاء والهلاك الذى لا مرد له . وقد يكونون
الآن فى خطر عظيم قد أشرفوا معه على الموت جوعا ، وصاروا يفكرون
فى أن يأكل بعضهم بعضا .

(١) الصبائية نكباء الصَّبَا والشَّال وهى الشرقية الشمالية

(أ) النكباء ريح تهب بين ريحين كالتي تهب بين الشمال والشرق

(ب) الشَّال ريح تهب من الشَّال

(ج) الصبا ريح تهب من الشرق

وكانت كل تلك الأفكار والفروض مبنية على الظن والحدس ،
فوقفت مفكراً في شقاوة جد أولئك القوم البائسين ، وأرثي لهم . وقد
أفادتني الحادثة عبرة وعظة ، فحمدت الله أن نجاني من الشر ، وأنقذني من
الموت الذي وقع فيه بحارة سفينتين في تلك الجهة . وإن الله سبحانه قد
أوجب علينا الشكر في السراء والضراء ، لأن نوابئنا مهما جلت هيمنة إذا
قرنت بغيرها مما هو أسوأ منها .

وقد قضى ركب السفينة نجبه ، ولم يعد ثمّ مجال للتفكير في نجاتهم ،
إلا إذا كان معهم مركب آخر حملهم بعد أن حلت بهم تلك الكارثة .
ولكني لا أرى أثراً لسفن أخرى . وكان احتمال ذلك ضئيلاً عندي

وإني لعاجز عن التعبير عما اعتراني في تلك اللحظة من الرغبة في
عشرة الأنسان ، وكنت أراني صائحاً من وقت لآخر « ليت اثنين أو
واحداً من رجال تلك السفينة قد نجا ، وأتى إلى ليكون رفيقي ومؤنسي ،
يكلمني وأكلمه » ولم أشعر منذ انفرادي بهذه الجزيرة برغبة صادقة وميل
شديد لمعاشرة الناس ، أو أسف لفقدائها كما شعرت هذه المرة .

الفصل الحادي والعشرون

إخراج روبنسن كرويسو أشياء كثيرة من السفينة المهشمة

واهتمامه بمفارقة الجزيرة ، وحلمه

قد تحرك عواطف الأنسان ببعض دوافع باطنية ، من شأنها إذا
تحركت لطلب مقصد يطمع فيه ، أن تدفع قوة النفس بعزم قوى نحو
تلك الغاية ، فيكون الأخفاق أمراً صعباً لا يطاق له احتمال . وهكذا

كانت رغبتي القوية في نجاة فرد واحد . وأظنني كررت ألف مرة هذه العبارة « ياليت واحداً سلم لي » وكانت رغبتي تشدد في ذلك حتى إذا ما تلفظت بتلك الكلمات كانت كفاي تنقبضان ، وقد تقلصتا معاً ، وأصابعي تتشنج ضاغطة راحتي ، حتى لو كان بهما شيء سهل الكسر لسحق على رغم إرادتي ، وكانت أسناني تصطك صارّة^(١) وتنقبض^(٢) بقوة شديدة وتستمر على ذلك وقتاً لا أستطيع أن أفرق بينهما .

دع الطبيعيين يشرحون هذه الظواهر ، ويعلمون أسبابها ويبينون طرقها . وكل ما يمكنني أن أقوله عن هذه الحالة التي أدهشني أنها كانت نتيجة لازمة لرغباتي الشديدة ، وأفكارى القوية التي تحكممت في عقلي ، لأنني توقعت الراحة والطمأنينة ، إذا قدرت لي محادثة إنسان متمدين أيا كان بلده . ولسكن شيئاً من ذلك لم يكن ، لأن حفظنا السيء حال دون ذلك إذ لم أقف لركاب تلك السمينة على أثر حتى أيامي الأخيرة بتلك الجزيرة ، غير أن آلامي تضاعفت لرؤيتي جثة غلام ميت طافية على الماء قرب الشاطئ . ولم يكن عليه ثياب غير صدرّة^(٣) وسروال قصير ، وقميص أزرق ، فلم أجد ما يرشدني إلى جنسه . وكانت جيوبه خالية إلا من قطعتين من النقود ، وييب للتبغ كان أعظم فائدة لي من الدراهم .

وفي هذا الوقت هداً الجو واطمأنت الريح فأحسست ميلاً شديداً

(١) صَرَ يَصْرُ صَرّاً وصرياً صوت فهو صارٌّ وهي صارّة

(٢) تنقبض الشيء انزوى وتجمع

(٣) ثوب يلبس فيغطي الصدر وهو مانسميه « بالصديري »

للاصولى إلى السفينة المهشمة لعلى أجد بها شيئاً يفيدنى، واسكن أفسكارى
لم تكن متجهة إلى الأمتعة اتجأها إلى لقاء أحد الركاب، رجاء تخليصه
من شدته، ليكون عوناً لى على الحياة، ومفرجاً لهمومى وأحزاني. وقد
تماسكتنى هذه الفكرة ليل نهار حتى سدت على مسالكى، فلم أربدا من
ركوب ركوتى إلى مكان الحادثة. وتحت تلك المؤثرات أسرع إلى قلعتى،
وجهزت كل شىء لرحلتى فأخذت مقداراً وفيراً من الخبز، وجرة عظيمة
من الماء العذب، وإبرة الملاح لأسترشد بها، وزجاجة من الشراب،
وسلة ملأى بالزبيب. وحمّلت جميع تلك الأصناف إلى ركوتى التى أفرغتها
من الماء، وأعددتها للسفر، وعدت إلى سكّنى لأحمل ما أنا فى حاجة إليه
فأحضرت هذه المرة حقيبة ممتلئة أرزاً، ومظلة لاستظل بها، وجرة
أخرى من الماء الفرات ^(١) وأربعة وعشرين رغيفاً، ولبناً، وجبناً. وبعد
أن دعوت الله أن يرشدنى فى رحلتى. ويكون عونى على عملى، ابتدأت
السير مجدفاً حذاء الشاطئ حتى كدت أصل نهاية الجزيرة من هذا الجانب
أعنى الشمال الشرقى. وهنا يجب أن أفصل فى الأمر، فأما المخاطرة والذهاب
إلى المحيط لبغيتى، وإما الخور والرجوع من حيث أتيت. فنظرت من
بعد إلى التيارات السريعة التى تجرى بلا انقطاع على جانبي الجزيرة،
فتذكرت هول الموقف الذى وقفته من قبل، فابتدأ قلبى يخوننى، لأننى
رأيت أن المقادير إن دفعتنى إلى أحد هذين التيارين فسأذهب بعيداً عن
الشاطئ، وأوغل فى المحيط بعدما عن الجزيرة حيث تتمقطع بى الأسباب

(١) الماء الفرات العذب جداً؛ ويقال للمفرد والجمع فيقال ماء فرات ومياه فرات

فلا أقدر على العودة ثانية ، وإذا هبت الريح شديدة فستذهب ركوتي
 ضحيتها لصغرها ، وأفقد حياتي ، وكانت هذه الأفكار شديدة الوقع في
 نفسي حتى ابتدأت أفكر في ترك ما عزم عليه ، فنزلت من ركوتي ،
 وبعد أن أمنت عليها جالست على مرتفع من الأرض مفكرا حائرا في
 أمرى ، وبينما أنا كذلك رأيت حركة الماء قد تغيرت ، وأن المد ابتداء
 فعلمت أن ابتداء الرحلة متعذر ساعات عدة ، فخطر لي أن أنساق المرتفعات
 حتى أصل إلى أعلى قممها ، لأرى التيارات المائية واتجاهها ، وهل من
 المسكن إذا توغلت في البحر مع أحد التيارات أن أعود ثانية مع تيار
 آخر بالسرعة نفسها ؟ وما طرأت هذه الفكرة على حتى وجدت تلا
 عاليا فصعدته ، فتمكنت من مشاهدة حركة المد والجزر والتيارات
 المائية . شاهدت أنه إذا ابتداء تيار الجزر عند النقطة الجنوبية من
 الجزيرة ، ابتداء تيار المد بجانب الشاطئ الشمالى منها ، فاستنبطت من
 ذلك أنه يسهل على العودة ثانية إلى الجزيرة إذا توجهت نحو الشمال ، وهذا
 سهل التنفيذ ، وشجعتنى هذه الملاحظة ، فنويت بدء الرحلة في الصباح مع
 ابتداء التيار ، وقد تم ما أردت فابتدأت اليوم ذاهبا إلى الشمال حتى وجدت
 الركوة في وسط التيار الذى حماني إلى الشرق . وقد كان هذا التيار سريعا ، ولكنه لم
 يُخلّ بقيادتي للركوة ، كما فعل معي التيار الجنوبي من قبل . وقد ساعدت التيار
 بالتجذيف ، فوصلت بعد ساعتين إلى السفينة المفرقة . فوجدت منظرا
 تهايع له القلوب ، وتجزع من هوله النفوس ، وجدت السفينة ، فعرفت
 من تركيبها وشكلها أنها إسبانية ، ورأيتها محصورة بين الصخور وقد
 تهشم مؤخرها ، وجزء آخر منها ، وذهبت أدغالها ، ولكن مقدها كان

سليماً ، فلما قربت منها ظهر عليها كلب ينبج بشدة حين رآني ، فناديت به
فألقى بنفسه في البحر ليصل إلى ركوتي ، فوجدته يكاد يهلك جوعاً وعطشاً
فألقمته رغيفاً من رغفاتي فالتهمه كذب مضى عليه أسبوعان في أرض
ثلجية بلا طعام ، ثم ناولته ماء عذبا فشرب منه حتى كادت أحشاؤه تنفصم .
ثم دخلت السفينة فوجدت رجلين ميتين في حجرة من حجرتها ، وقد
تعانقا بأذرعهما تعانقا شديداً ، فعلمت أن البحر طغى على السفينة وملاها
بالماء . ولم أربها علامة تدل على الحياة . وكان كل ما بها من الأمتعة قد فسد
بالماء ، فلم يكن لي فيها مغنم . حقاً رأيت بها بعض نواجيد ^(١) ممتلئة شراباً ،
واسكنها كانت أكبر مما يمكنني حمله ، ورأيت صناديق عدة ، مما يملك
البجارة ، فحملت اثنين إلى ركوتي بدون أن أعالج فتحهما أو أختبر ما فيهما .
ولو انعكس الأمر فنجاً مؤخر السفينة ، وغرق مقدمها ، لأمكنني
أن أحمل معي أشياء ثمينة ، لأنني إذا قسمت الأشياء بنظائرها ، وجاز لي أن
أستنبط مما رأيت في الصندوقين ، حكمت حكماً لا مجال للطعن فيه ، أن
السفينة كانت محملة بأثمن الأشياء وأعزها . ومن الطريق التي كانت تأخذه
في سيرها يمكنني الحكم بأنها ابتدأت رحلتها من يُونِسَ أَيْرِس ، أو مما يقرب
منها في جنوب أمريكا ، قاصدة هفانا في خليج مكسيكو . وربما كانت
متجهة إلى إسبانيا . ولم أعرف إذ ذاك ما حل بركبها . ووجدت ناجوداً
صغيراً من الشراب حماته إلى ركوتي بعد عناء شديد . وكذلك عثرت

(١) نواجيد جمع ناجود وقد مر شرحه والمراد بها هنا براميل

على بعض البنادق والبارود، وإسكني كنت في غنى عن الأولى، فتركتهما وأخذت البارود الذي كان نحو أربعة أرتال. وأخذت من السفينة مسحاة^(١) للنار، وملقطا، لأنني كنت في أشد الحاجة إليهما. وحملت معي قدرين^(٢) صغيرتين من النحاس الأصفر، وإبريقا نحاسيا لعمل القهوة، ومشواة للحم. وأخذت الكلب معي، وابتدأت قافلا إلى الجزيرة، لأن التيار اتجه نحوها. وبعد ساعة من غروب الشمس وصلت وأنا مضى من التعب والأجهد، فارتحت ذلك الليل في الركوة. وفي الصباح صحت عزيمتي على نقل أمتعتي الجديدة إلى المغارة، لا إلى القلعة، فقامت مبكراً فأفطرت، ثم نقلت ما في الركوة إلى الشاطئ، وابتدأت أخبثه لأعرف محتوياته، فلما فتحت ناجود الشراب وجدت نوعه أقل مما تعودنا شربه في البرازيل، ثم فتحت الصناديق فوجدت أشياء كثيرة مفيدة لي، لأنني وجدت في صندوق منها علبة كبيرة مملأة بزجاجات الشراب النقي الذي يعز وجوده. وقد ختمت كل زجاجة منها بغطائها، فلم يصل إليها الماء، ووجدت وعاءين قد ملئا بالدبس^(٣) وأحكم عليهما الغطاء، فلم يتسرب إليهما الماء، أما باقي الأوعية فقد فسد ما فيها. ووجدت بعض قصاصات جيدة، فسررت من عنودي عليها، ووجدت نحو ثمانية عشر منديلا^(٤) كانت نافعة لي لتجفيف العرق في الأيام التي اشتد حرها

(١) يقال سحا الطين والجر يسحوده ويسحيه ويسحاه جرفه بالمسحاة وهي الحجرة

(٢) القدر أناء يطبخ فيه وهو مؤنث وقيل يذكر ويؤنث

(٣) الدبس عسل الفواكه وهو المربي

(٤) المنديل والمنديل بالكسر والفتح نسيج يتمسح به من العرق ونحوه

ولما وصلت إلى قرارة الصندوق أقيت به نحو ثلاث صرد ، فيها قطع نقدية من ذوات الثماني ، بلغ مجموعها مائة وألف قطعة . وفي إحدى هذه الصرد وجدت عملة ذهبية ، ضروبة تبلغ قيمتها أربعة وعشرين جنيتها ، وبعض أشياء من الذهب المصنوع يبلغ وزنها نحو رطل . ووجدت في الصندوق الآخر قليلا من الملابس ، ولكنها كانت قليلة الفائدة لي ، ولم أكتسب في هذه الرحلة كثيرا ، لأن النقود التي عثرت عليها لم يكن فيها غناء لي ، إذ ماذا أصنع بها وقد أفردت هذا الأفراد المروع ؟ وكنت دائما أفضل عليها بعض أحذية وجوارب ، لأنني حرمتها سنين عدة . وقد ساعدني المقادير فوجدت نعلين في بعض حجر السفينة ، كما وجدت على أقدام الرجلين الميتين نعالا أخذتهما معي ، ولكنها كانت من النوع الذي يدعى خفا . ووجدت في هذا الصندوق أيضا بعض قطع فضية تبلغ الثمانين عددا . وقد حملت هذه الدراهم والدنانير إلى المغارة ، كما فعلت بتلك التي أنقذتها من سفينتنا . ولو أسعدني الحظ فنجالى الجزء الآخر من السفينة ، لوجدت فيه كثيرا من النقدين ، ولاؤقرت ^(١) ركوتي بهما مرات عدة ، حتى إذا أمكنتني النجاة إلى إنجلترا ، قدرت على إخفاء تلك الثروة بالجزيرة ، فأمن عليها حتى أعود ثانية لأخذها .

ولما انتهيت من تفريغ الركوة ، وحمل ما كان فيها إلى الشاطئ ، أخذتها إلى مخبئها القديم ، ثم أخذت طريقا إلى مسكني ، فوجدت كل شيء كما تركته . فاسترحمت من نصبي ، وعشت كما كنت أفعل قبلا .

ومكنت على ذلك مدة بدون أن يتغير شيء ، غير أنى كنت أكثر تيقظا لما حولى ، ولم أغادر دائرتى التى حددتها لنفسى إلا قليلا ، ولم أتجول فى أى مكان من الجزيرة بشيء من الراحة والعطالة ، إلا فى وجهتها الشرقية ، حيث كنت أذهب غير موقر بالأسلحة والبارود ، كما كنت أذهب إلى الجانب الآخر ، لأن عيني لم تر للمتوحشين أثرا فى الشرق . وقد حييت سنتين وأنا على تلك الحال ، ولكن نفسى التى خلقت لشقاء جسمى كانت دائما تحدثنى عن إمكان النجاة ، فكنت أرسم خططا لا أقدر على القيام بها . وحدثت نفسى بالعودة إلى السفينة المهشمة ، ولكن فكرى كان يعترضنى فى ذلك حذر صعبة المسلك ، وخالو السفينة مما يفيدنى . وامتلات نفسى بأن أذهب فى البحر إلى أى جهة تقودنى إليها المقادير ، ولكنى توقعت الخطر . ولو ملكت ذلك الزورق الذى نجوت به من سالى ، لخاطرت به فى أى طريق .

إن تاريخ حياتى ، وكل ما حوى من حوادث ، لمبرة بالغة لآ ولئك الذين يجدون أنفسهم غرضا لمثل تلك الغير والأرزاء التى اعتورتنى . ولو رجعت إلى البحث عن أصل الشر والشقاء ، لوجدته عدم الرضا بما قسم لى من الحياة . فقد كان أول ذنوبى عصيانى أمر والدى ، ثم تركى ما أملاك من نَسَب^(١) فى البرازيل . ولو بقيت فى ضيعتى^(٢) هناك لكانت الآن من أكبر الملاك ، وأمهر الفلاحين . وقياسا على ما نلت من نجاح فى

(١) النَّسَبُ العقار

(٢) الضيعة الأرض المغلة ، ونسبها العزبة

تلك الفترة التي أقمته هناك ، يمكنني أن أقدر الثروة التي كنت أجمعها لو بقيت ، بمائة ألف جنيه برتغالي^(١) . وإني لأعجب شدة العجب من تركي حقولا خصيبة ، وحياة سعيدة ، لأذهب إلى غينا لأحضر العبيد ، مع أن الصبر والوقت كانا كفيلين بزيادة ثروتنا . وحينئذ نقدر على شراء ما نريد من الأرقاء على أبواب دورنا ، ممن نهمهم هذه التجارة . حقا إن الثمن الذي ندفعه في بلادنا يكون أغلى ، ولكن الفرق بين الثمنين لا يستحق كل هذا العناء . وذلك الخطأ الذي انتابني هو نصيب ذوى العقول الصغيرة والسنين القليلة . أما الحكم على تلك الأعمال بالضلال ، فهو عمل المجربين الذين اشتروا تجارتهم بأثمان عظيمة . والتجارب خير أستاذ ، وقد صرت الآن من أولئك المفكرين الذين لم يكسبوا قليلا إلا ببذل الكثير . وقد مكنت مفكرا دغم كل الصعوبات في طريق للنجاة . وربما يكون من أعظم المسلمات للقارىء أن أخبره فيما بقى من حكايتي بأول ترتيب عملته لذلك الخلاص .

لعل القارىء يتذكر أنى الآن في قلعتى بعد تلك الرحلة ، وأن ركوتى في محبتها تحت الماء كماداتها ، وأن معيشتى كما كانت قبلا ، فلم أصبح غنيا ، وإن ما سكت ثروة طائلة ، إذ لا فائدة أرجوها من ذلك الرّكاز^(٢) فأنى أنظر إليه بالعين التي كان ينظر بها هنود أمريكا إلى مثله قبل أن يدركهم الأسبانيون .

وفي ليلة ممطرة من ليالى شهر مارس ، من السنة الرابعة

(١) الجنيه البرتغالي يساوى جنيها مصرية وقرشا صحيحا

(٢) الرّكاز المال المدفون تحت الأرض

والعشرين من قدومي لهذه الجزيرة الموحشة ، كنت مستلقيا في فراشي ، وصحني كما أحب ، لا يكدر صفوى شيء غير عادى ، ولكني ما أغمضت الجفن فيها ، ولا ذقت طعم السكرى ، وليس من السهل أن أقص عليك بالتفصيل كل ما جال بخاطري في ذلك الليل البهيم ، لأنى استذكرت تاريخ حياتي من بدء تعقلي حتى وصلت هذه الجزيرة ، ثم انتقلت مفكرا في إقامتي بهذه الأرجاء النائية ، فوازنيت بين حياتي الأولى في هذه الجزيرة قبل أن أرى أثر تلك القدم على الرمال ، وبين حياتي بعد ذلك ، وما شعرت به من الخوف والذعر ، وعدم الطمأنينة . ولا تظن أيها القارىء أنى اعتقدت خلو الجزيرة من المتوحشين قبل رؤية الأثر ، ولكني قبل العثور عليهم كنت جاهلا حالهم ، فلم أجد مجالا للتفكير فيهم ، فكنت سعيدا بجهل الخطر المحدق بي ، كما لو علمت حق العلم أنى بنجوة منه . وقد قادنى تلك الحال إلى التفكير في أمور عدة ، أهمها أن عناية الله بالإنسان لم تكشف له إلا دائرة ضيقة من العلم ، ومشاهدة الأشياء ، فهو يسير بين أخطار كثيرة إذا رآها ذهل عقله ، واضطرب لبه ، ولكنه هادئ مطمئن لأنها لم تنكشف لناظره ولم يعلم شيئا عنها .

وبعد أن تملكنتى هذه الأفكار زمنا ابتدأت أفكر بحدق في الهلاك المحدق بي منذ جئت إلى هذه الجزيرة ، وفي سيرى خلالها متبعا آمن طرقها بكل ما أستطيع من هدوء وخفة ، حيث لا يفصانى إلا تل أو شجرة ضخمة ، أو تخيم الظلام ليلا عن أشنع ما رأت عين إنسان ، وهو الوقوع في قبضة المتوحشين آكلى لحوم البشر ، فهم لا يعتبرون

ذبحى وأكل جريئة ، كما لا اعتبر ذلك إنما إن فعلته بما عز أو حمامة . وإني شكرت لله هذه النعم التي تجل عن العمد ، فلقد رتته وحدها أعترف بنجاني من الوقوع في أيدي أولئك القتلة السفاكين .

فلما انتهت هذه الأفكار ابتدأت أفكر في طبيعة هذه المخلوقات ، أعني هؤلاء السفاحين ، وكيف أراد اللطيف الحكيم الذي أنشأ هذه الدنيا ، ودبرها أحسن تدبير ، أن يسلب بعض الأنس كل معنى الأنسانية ، بل كيف تأتى أن يكونوا أخط في التوحش من غيرهم من أنواع الحيوان حتى يفرسوا بني نوعهم . ولكن هذه الأفكار انتهت كما ابتدأت ، فلم أظفر بنتيجة تطمئن إليها النفس ، فانتقلت من ذلك إلى التفكير في الأرض التي يسكنونها ، وفي نسبتها إلى المعمور من الدنيا . فقلت لنفسي ما بعد الشاطئ الذي أتوا منه ؟ ولأى شئ أتوا هنا ، وقطعوا ذلك الطريق الطويل ؟ وما نوع سفنهم التي يأتون بها ؟ ولماذا لا أعد نفسي لأقدر على الذهاب إلى أرضهم ، كما يفعلون في مجيئهم هنا ؟ ولم أنهتم كثيراً لما يصل إليه أمرى بعد وصولي إلى الأرض التي يجيئون منها ، ولم أعرف ماذا أصنع إذا وقعت في أيديهم ، وكيف أنجو من غائلتهم إذا أرادوا أكلى ، وإذا قدر لى النجاة منهم فألى أين أذهب ؟ وكيف يمكن الحصول على الطعام هناك ؟ إني لم أفكر في ذلك . وكل ما اهتمت به كان تدبير أمرى للوصول إلى ما سميت القارة .

وحينئذ نظرت إلى معيشتى التي عشتها ، وفكرت في أنى إذا وصلت القارة فقد أجد سبيلاً للنجاة بأن أسير تجاه الشاطئ ، كما فعلت في إفريقيا حتى أجد مملكة أهلة يسكنها ، حيث يمكنى النجاة ، أو أقابل سفينة من الديار

الأوربية، فيحملني عليها أربابها، وإذا وقع الشر، وحل بي النحس المستمر، فسمعت إلى حنفي بظاني، ولاقيت ريب المنون، فأني أستريح من حال أحلك من ليل، وأشق على النفس من ويل. ولعل القارىء يعرف أن جميع ذلك كان نتيجة عقل مضطرب، وطبع ملول، فأصبحت لا أبالي بالموت، لطول شقائي وخيبة آمالي، لأنني بعد أن صرت قريبا مما أبغى، وهو العنور على من يكلمني ويخبرني بطبيعة الأرض التي كنت بها، وموقعها من الدنيا، وكيف يمكن الخلاص من هذه الشدة؛ فقدت الأمل، إذ لم أجد بالسفينة أحدا يجيب النداء من ركبها

وليست حياة المرء إلا أمانيا إذا هي ضاعت فالحياة على الأثر وهكذا استولت على المصائب، وأصبحت غير قادر على التفكير في شيء آخر غير الذهاب إلى القارة. وقد اضطربت لذلك اضطرابا شديدا دام ساعتين، ففلى^(١) دمي في عروقي، واشتد خفقان قلبي، فأحسست المأعميةا ذهب بشموري فاستغرقت في النوم. وربما تظن أنني شغلت بهذا الرأي في نومي، ولكن شيئا من ذلك لم يكن، إذ لم أحلم به، ولم يخطر على خاطره، لأنني رأيت رؤيا سأقص عليك نبأها. رأيت أنني كنت خارجا من قلعتي ذات صباح، كما أفعل كل يوم، فرأيت زورقين عند الشاطئ، وأحسد عشر رجلا من المتوحشين مقبلين إلى الجزيرة، وقد أحضروا معهم متوحشا يريدون قتله ليأكلوه، فتغفاهم^(٢) ذلك

(١) غلت القدر تغلى من باب ضرب غليا وغليانا وفي لغة غليت تغلى من

باب تعب

(٢) تغفلت الرجل ترقبت غفلته

الأسير المتوحش ، وفر هارباً لينجو من الهلاك . وقد رأيتُهُ وهو
يعدو كالظليم ^(١) نحو قلعتي . ولما لم أر أحداً يتبعه أظهرت نفسي له ،
وتبسمت لأشجعه ، وأذهب عنه ما قد يعتريه من الرعب مني ، فسجد
أمامي حيث رأيته ، متوسلاً أن أساعده ، فأقمت السلم وتسلقناه ، ودخلنا
معا إلى المغارة . ومنذ هذا الوقت صار خادمي . وحينئذ قلت لنفسي
يمكنني الذهاب إلى القارة لأن هذا الأسير سيساعدني ويرشدني ، ويخبرني
عن الأماكن التي أكون فيها آمناً ، وعن تلك التي أكون فيها عرضة للهلاك .
وقد استيقظت تحت تأثير هذه الفكرة السارة ولكنني ما كدت أملك
حواسي حتى علمت أنني كنت في حلم لذيد ، وأن لشيء مما رأيت أمامي ،
فحزنت حزناً تغلغل إلى جاذبان قلبي وقرارة نفسي . ومن هذه الساعة
تيقنت أن لا سبيل لي إلى النجاة ، إلا بأخذ رجل من أولئك القوم الذين
يأسرهم المتوحشون ، ويأتون بهم إلى الجزيرة ليأكلوهم ، ولكن هذه
الفكرة كانت مصحوبة بهذه الصعوبة ، وهي أنه يتعذر عليّ تنفيذها إلا إذا
هاجمت جمعهم كله وأفنيته . وفي ذلك من الخطر على حياتي ما لا يخفى على
بصير ، على أن فكرة قتل هؤلاء القوم ، وإراقة كثير من الدماء لم تطب
لي ، وإن كانت سلامتي متوقفة عليها . وقد انما بتني الأفكار من كل جانب
فمرة أتم بالتنفيذ ، ومرة أشعر بخشونة المسلك ، مع أن قتل هؤلاء
الشياطين ما هو إلا دفاع عن النفس ، لأنهم إذا رأوني لا يتركونني .
ولذلك فأسيت عناء عظيماً في حمل نفسي على الرضا بالخطئة التي ذكرتها .

(١) الظليم ذكر النعام

وقد شجعتني على ذلك عدم رؤية أية وسيلة أخرى للخلاص مما كنت فيه من الضيق، فصحت عزيمتي على أخذ أسير من القوم، وأصبحت مستعداً لتنفيذ خطتي هذه متى سنحت الفرصة، لأنني شرعت أربهم، وأبحث عنهم بكل وسيلة ممكنة. فكنت أقوم بالمراقبة والبحث كل يوم بقدر ما سمحت به قوتي، حتى ضقت ذرعاً بالأمر، لأنني كنت أذهب إلى الغرب والجنوب الغربي من الجزيرة لأقتفى آثارهم، وأضيع قسماً كبيراً من وقتي، فمضت سنة ونصف قبل حضورهم. ولا تتوهن أيها القارئ الكريم أن مضى الزمن قليل من اهتمامي، أو أضعاف قوتي. كلا، بل كان مرور الساعات مشجعاً لي على العمل. وبقدر خوفي أولاً من رؤيتهم لي أصبحت الآن أنوق إلى لقاءهم، والأيقاع بهم.

الفصل الثاني والعشرون

إنقاذ روبنسن كروسو أسير من المتوحشين، وتسميته جمعة، واتخاذ خادماً له وبعد انتظار دام سنة ونصف، رأيت صباح يوم على الشاطئ الذي كنت أقطن به من الجزيرة خمسة زوارق، ورأيت عدد القوم زائداً على كل تقدير قدرته، لأنني لم أعرف كيف أهاجم عشرين أو ثلاثين وحدي. ولذلك مكثت في قلعتي ساكناً أنتظر ما تأتي به المقادير بعد أن رتبت حصني حتى صار مستعداً للحرب كما وصفت قبلاً. ولما مكثت على ذلك مدة لم أسمع خلالها صوتاً، ولم أر لهم أثراً، تآقت نفسي للخروج، فصعدت على السلم حتى صار رأسي مساوياً لأعلى التل حتى لا يروني. ونظرت نحوهم بالمرقب، فرأيت جمعا لا يقل عن العشرين عداً، ورأيت ناراً موقدة،

ولما ناضجنا لم أعرف كيف طبخ؟ ولا من أى نوع كان؟ ورأيت القوم
يرقصون حول النار في لهو وطرب. وبينما كنت أرقبهم رأيت أسيرين
تسعين يخرجان من زورق، وقد أتوا بهما لقتلهما، استعدادا لأكلهما.
ولما وصلا حيث يجتمع القوم سقط أحدهما على الأرض ميتا لأنه ضرب
بسيف ثقيل من الخشب، ولم يكده يسقط حتى أسرع إليه ثلاثة منهم،
فبقروا بطنه لأعداده للطبخ. وقد وقف الأسير الآخر بجانبهم منتظرا
نوبته. وفي تلك اللحظة رأى ذلك المسكين نفسه حرا، ومنته نفسه بالخلاص
ففر هاربا، فكان يسابق الريح عدوا، واتخذ طريقه نحوى

ولا أخفى عليك ما أحسسته حينئذ، فقد استولى على الرعب، وخاصة
عند ما ظننت أن جميع القوم طاردوه ليقبضوا عليه، لأننى تيقنت أن
الأسير سيختفى فى مساكنى، وأن المتوحشين سيدخلونها، وليكن
سرّى عني ما كنت أجد حين رأيت الجادين فى أثره ثلاثة فقط، ورأيت
أن الأسير يسبقهم كثيرا فى العدو، واعتقدت أنه إن استمر على ذلك
نصف ساعة فسيفر منهم، وينجو لا محالة. وكان بينهم وبين قلعتى ذلك
الجدول الذى ذكرته فى أول هذه القصة حين أحضرت من السفينة
ما قدرت عليه. وكان على الأسير إذا أراد النجاة أن يعبره سباحة
وإلا هلك. فلما وصل إلى شاطئه ألقى بنفسه فيه، ومع شدة التيار عبره
بمهارة عظيمة، وواصل عدوه بخفة مدهشة. أما الثلاثة المطاردون فوقف
أحدهم عند الشاطئ، لأنه لا يحسن السباحة. وبعد قليل رجع أدراجهم،
فكان ذلك خيرا له وإن كره. وأما الاثنان الآخران فقد أقيلا بنفسهما
إلى الجدول، وعبراه بخفة أدهشتنى، فقد كانا فى السباحة أمهر من الأسير

الفار . أما أنا فشعرت بأن قد حان الوقت لأحصل على خادم أو مساعد ،
أو رفيق إن شئت أن تسميه ، وبأن العناية الإلهية قد نادتنى لأنقذ
حياة ذلك المسكين ، فأسرعت إلى الخروج من حصنى ، وأخذت معى
بندقيتين وهروايت نحو المطارِ دِين من أقرب طريق ، فصرت بين الأسير
الآبق ^(١) ، وبين الوحشين الكاسرين ، وناديت الأسير فنظر خلفه ،
فلما رآنى ذعر منى ، ولسكنى أشرت إليه ييدى لياثى
وفى الوقت نفسه انجهدت نحو الرجلين الآخرين ، فأسرعت إلى السابق
منهما ، وضربتة فى رأسه بيد البندقية ، وحذرت إطلاقها ، لئلا يسمع
الآخرون أو يروا دخانها ، وإن كانت المسافة التى بينى وبينهم لا تسمح بذلك ،
على أنهم لو سمعوا صوتنا أو رأوا دخانا لا يمكنهم أن يعرفوا حقيقة الأمر .
أما الرجل الآخر فتقدمت نحوه ، ولما أبصرنى جمد فى مكانه ، ولسكنى
رأيت فى يده قوسا وسهما أسرع إليهما ليسد النشأب ^(٢) نحوى ، فاضطرت
لمعاجلته قبل أن يصينى ، فرميته بطالق قضى على حياته . ولما رأى الأسير
الفار سقوط عدويه زال عنه بعض ما كان يجد من الخوف ، ولكنه جمد
فى مكانه مذعورا من صوت القذيفة ، لأنه لم يعرف لها حقيقة ، وكان
إلى الفرار أقرب منه إلى الحضور إلى ، ولسكنى أشرت إليه بالتقدم ،
فكان يتقدم قليلا ، ويقف ، كأنه ظن أنه ما نجا من أسر إلا يقع فى آخره ،
فأفهمته بكل ما أملك من الوسائل أن حياته فى أمن ، فتقدم نحوى ثم
سجد شكرا على نجاته ، وكان كلما تقدم نحو عشر خطوات ، سجد مرة ،

(١) العبد الآبق الهارب من سيده (٢) النشأب الثبل الواحدة مُشَابَة

فابتسمت له ابتسامة سرور، وأشرت إليه أن يتقدم بلا خوف ولا وجل، فتقدم حتى إذا كان بين يدي سجد سجد الشكر، ثم وضع رأسه على الأرض وأخذ قدمي فوضعهما على رأسه، إشارة إلى أنه سيصير أسير إحساني إليه أبد الدهر، فأخذت بيده، وساعدته على النهوض، وشجعتة على الحياة. وفي هذا الوقت رأيت الرجل الذي ضربته على رأسه بالبندقية قد زال عنه أثر الصدمة، وابتدأ يقوم فأشرت إلى الأسير الذي أنقذته، ووجهت نظره إليه، فتكلم بكلام لم أفهم له معنى، ولكنني اطمأنت إليه لأنه أول صوت إنساني سمعته منذ وصولي إلى هذه الجزيرة التي مضى على فيها خمس وعشرون سنة. ولكن الوقت لم يكن مناسباً لهذه الأفكار لأن الرجل تحرك للقيام، فخاف الأسير المُنقذ من ذلك، فوجهت بندقي نحوه لأقضي عليه، ولكن رجلي أشار إلى أن أكف، وأن أعطيه السيف الذي كنت أحمله، ففعلت. وما قبض على مقبضه حتى أسرع نحو الرجل، وبضربة واحدة أزال رأسه عن عنقه، فدهشت لما رأيت لأن أمهر السيفيين في ألمانيا لا يقدرّون على أحسن مما فعل، وخاصة إذا علمنا أنه لم ير في حياته قط سيفاً، إلا ما اتخذوه من الخشب، لأنني علمت فيما بعد أن سيوفهم تتخذ من خشب ثقيل، وأنهم يرهفون حدها حتى إنهم ليقطعون بها الرؤوس والأذرع بضربة واحدة. وبعد أن انتهى من عمله عاد إلى صاحبه لا تنصّاره، وألقى بين يدي السيف ورأس ذلك القتيل. ولكن الذي أدهش هذا الرجل المتوحش، واستولى على لبه، هو كيف قتلت أحد الرجلين، وأنا بعيد عنه، فأشرت إلى البندقية، ولكنه لم يفهم وطلب مني أن أسمح له بالذهاب إلى القتيل. فسمحت له فلما وصل إليه قلبه على



فتقدم حتى إذا كان بين يدي سجد سجدة الشكر

جوانبه ليرى ما حل به ، فلم ير غير جرح في صدره ، عليه قليل من الدم . وكان الرجل ميتاً فأخذ قوسه ونشأ به ، ورجع إلى ، فأشرت إليه بالأسراع لئلا يعود القوم إلى طلبه ، ولكنه سألني دفن القتيلين ، لئلا يعثرواعليهما إذا جاءوا ، فوافقته على رأيه . وبسرعة عجيبة شق في الأرض لحدين دفن فيهما الرجلين ، وواراهما التراب . ولم يستغرق في عمله أكثر من ربع ساعة . ولما انتهى من ذلك أخذته مسرعاً إلى مغارتي في الجانب الآخر من الجزيرة لا إلى قلعتي كما رأيت في رؤيائي

وكان الجوع قد ذهب بقوته كل مذهب ، فأعطيته خبزاً وعنقوداً من الزبيب فأكل حتى شبع ، ثم ناولته ماء عذبا فشرب حتى امتلأ . ولما رأيت التعب باديا على محياها لطول ما جرى أمرته بالنوم ، وأشرت إلى مكان مهيباً لذلك فنام فيه . وكان هذا الرجل ظريفاً ، جميل الخلق ، قوى الأعضاء ، طويلاً ، يبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً ، كما كان حلو المحيا ، لا تظهر عليه خشونة المتوحشين . وفي وجهه علامات الرجولة الحقة ، وكل ما يجد المرء في سحنة الأوروبي وخاصة إذا افتر ثغره حين يبسم . وكان شعره أسود اللون طويلاً ، لا ترى فيه ذلك التجميد الذي يجعل الشعر كالإهين^(١) المنفوش . أما جبهته فكانت كبيرة مرتفعة جداً ، وأما عيناه فكانتا كبيرتين تتوقدان حياة واحدة . وكان أسمر اللون لا أسود البشرة ، وكانت سمرته لطيفة مقبولة لا تحاكي لون البرازيليين ، ذلك اللون الأصفر الذي لا جمال فيه . وكان وجهه مستديراً ممتازاً ، وأنفه صغيراً غير مغطوس ، وفه جميلاً ، وشفته رقيقةتين ، وأسنانه جميلة التنسيق ، بيضاء كالعاج .

وبعد أن استراح نحو نصف ساعة استيقظ، وخرج من المغارة، ثم نظر
 فرآنى أحلب المعز في حظيرتها فجاء مسرعاً إلىّ. وما كاد يمثل بين يدي حتى خر
 ساجداً على الأرض بكل ما أوتي من خشوع وتضرع، ليظهر أنه شاكر لى
 على إنقاذه من الموت، ثم تقدم وألقى برأسه على الأرض بجانب قدمي،
 وأخذ الأخرى بيده، ووضعها على رأسه دلالة العبودية والخضوع لمنقذة أبد
 الحياة. وقد فهمت ما يريد في كثير من الأوقات، وأفهمته أنى به سرور.
 وبعد قليل ابتدأت أن أكله وأعلمه الكلام، فعلمته أن اسمه جمعة، ليكون اسمه
 تذكراً لليوم الذى رأيت فيه، كما علمته أن يدعوني «سيدى» وأفهمته
 أن ذلك اسمى. ثم علمته أن يقول نعم، ولا، وأفهمته معناهما. وعلمته كيف
 يأكل الخبز باللبن فكان يفعل مثل ما أريد. وبقينا مما فى هذا المكان
 الليل كله، ولما أصبح الصباح أشرت إليه أن يتبعنى وأفهمته أنى أريد أن
 أستر جسمه ببعض الملابس، لأنه كان لا يزال عارياً، ففهم إشارتى،
 وأظهر ارتياحه لذلك. ولما مررنا حيث دفنا القتيلين أشار بالضبط إلى
 مكانهما، وأرأى علامات تدل عليه، وأفهمنى أنه يريد أن يخرج الجنتين
 لنا كاهما، فأظهرت له بغضى وكراهتى لهذا العمل، وتظاهرت بالغثيان
 لمجرد الفكرة، وأمأت إليه أن يتبعنى على عجل لنغادر المكان، ففعل خاضعاً.
 ولما وصلنا إلى التل. تسلقناه، ونظرت بالمرقب فلم أر أثراً للقوم ولا
 لزوارقهم، فعلمت أنهم غادروا الجزيرة وتركوا رفيقهم دون أن
 يبحثوا عنها.

وأصبحت الآن غير مقتنع بما وصلت إليه من كشف، بل تأقت

نفسى إلى حب الاطلاع ، مشجعة بوجود جمعة ، فأعطيته سيفاً لحمله فى يده ، وتنكب القوس والسهام ، وحملته بندقية لى ، وحملت أنا اثنتين ، وسرنا قاصدين المكان الذى نزل به المتوحشون ، لأننى قصدت أن أعرف عنهم أكثر مما عرفت . ولما وصلت إلى المكان كاد الدم يجمد فى عروقى وأوشك قلبى أن يتصدع من هول ما رأيت ، فقد كان المنظر مذهلاً للشعور ، وإن كان جمعة لم يتأثر به ، لأننى رأيت المكان مغطى بمعظام أجسام بشرية ، والثرى مصبوغاً بدمائها . وكنت أرى قطعاً من اللحم منتورة هنا وهناك ، وقد أكل بعضها . وقصارى القول أنى وجدت بالمكان آثار ذلك العيد الذى كان نتيجة انتصار القوم على أعدائهم . وقد أبصرت ثلاث جاجم ، وخمس أيد ، وعظام أربع أقدام ، وأجزاء كثيرة من أعضاء مختلفة من الجسم . وأفهمنى جمعة بأشاراته أنهم أحضروا أربعة من الأسرى ، ليضحوا بهم فى عيدهم هذا . وقد أكلوا ثلاثة منهم ، أما الضحية الرابعة وهو جمعة ، فقد نجاه الله من كيدهم وشرهم . وفهمت من جمعة أنه كانت بين أولئك المتوحشين وبين من يجاورهم حرب شديدة ، أسروا فيها كثيراً من رعايا الملك المجاور لهم ، وقد ذهبوا بهم كل مذهب للتضحية ، كما فعل من أتى هنا من المتوحشين بمن أتوا بهم من الأسرى .

وقد كلفت جمعة أن يجمع ما بقى من المعظام واللحم فى كومة ^(١) ففعل ما أمر به ، ثم أوقدت ناراً كبيرة حولها لحرقها حتى تصير رماداً . وقد

(١) كوم التراب نكويما جعله كومة كومة بالضم أى قطعة قطعة ورفع رأسها



من

رأيت عند جمعة استعداداً لأكل بعض تلك اللحوم ، ولكنى أظهرت له بشاعة الفعل ، وأفهمته أنى أقتله إن أتى تلك المخالفة . ولما انتهينا من ذلك عدت وجمعة إلى قلعتى ، وشرعت أجهز له ملابس ، فأعطيته سروالاً كنت أنقذته من السفينة . وبعد إصلاح قليل أصبح مناسباً له ، ثم معطفاً صنعتة من جلد المعز ، ثم قلنسوة من جلد أرنب . ولما رأى نفسه لا لبساً ملابس كالتى يرتديها سيده فرح وطرب . حقاً إنه تعب ابتداء من لبس السروال ، فكان لا يجيد ارتدائه ، ثم تألم من أكام المعطف . ولكنى بعد أن أوسعتها له وتعودها ، أصبح لا يطيق صبراً على المعيشة بدونها .

وفى اليوم التالى لعودتنا إلى سكنى ابتدأت أفكر فى المكان الذى ينبغى أن أعده لجمعة لينام فيه ، فرجعت أحسن ما أقدر عليه أن أضرب له خيمة فى الفضاء الذى بين المسكنين اللذين حصنتهما ، بحيث تكون الخيمة خارجة من الحصن الثانى ، وداخله فى الأول . وقد اتخذت من الاحتياطات ما يكفى لأيقاضى ليلاً إن حاول جمعة الوصول إلى فى الداخل ، لأنى بهذه الاحتياطات ، أصبحت منعزلاً عنه ليلاً كل الانعزال . وكنت دائماً أضع سلاحى بجانبى أثناء نومي ، ولكنى لم أكن بحاجة إلى هذه المخاوف ، لأن جمعة كان أميناً مخلصاً محباً لى ، وكان قلبه مشغوفاً بى ، تابعا لأرادتى ، كما ترى الطفل وأباه . وقد تأكد لى أن جمعة لا يحجم عن تضحيته بنفسه فى سبيل إنقاذى مهما كانت الأمور والأحوال ، وإن الأدلة التى قدمها لى على إخلاصه وتعلقه بى لما لا يحتمل الشك . ولذلك لم أجدنى فى حاجة إلى الحذر منه .

وقد قادنى ما رأيت فى جمعة من كريم الخصال ، أن أفكر كثيراً

في تقدير العزيز الحكيم ؛ كيف جرد عدداً كبيراً من خلقه من ثمرة استعدادهم ؛ لأن أولئك المتوحشين قد أبعدوا عن كل خير ، مع أنهم خلقوا ، وفيهم نفس القوى التي تتمتع بها عند دخول الدنيا ، إذ فيهم قوة الحكم والتعميل ، وعاطفة الحب والشفقة ، والقيام بالواجب ، وبغض الذنوب والآثام ، وحب الشكر والأخلاص ، وكل قوة لعمل الخير . وإن هؤلاء القوم إذا سنحت لهم الفرصة أظهروا مقدرة عجيبة على القيام بهذه الأشياء . ولشد ما كنت أحزن حين أفكر في ذلك ، وأننا لا نعطي كريم الخصال ما تستحقه من العناية ، لأن الله قد أثار لنا الطريق بدينه الحنيف ، ومع ذلك نضل سواء السبيل . ولو كان لي أن أحكم على ما رأيت من جمعة لقلت إن تلك الملايين التي حرمت هداية الله لو تسنى لها أن تسلك سبيل الهداية لكانت أرقى منا وأعلى قدراً . ولذلك كان الشك يعتريني وكنت لا أرى عدلاً في القوانين التي لا أفهمها ، إذ كيف يحرم بعض القبائل من النور الألهي ، ويكلفون أن يأتوا بنفس العمل الذي يقوم به غيرهم ممن باغتهم الدعوة ، ولكني كنت أزجر نفسي بهذا الاعتقاد ، وهو أن الله الذي هدانا للنجدتين ، وبين لنا الطريقين ، يعاقبنا بهذه القوانين التي بينها ، وأما أولئك المتوحشون فلا يعاملون معاملةنا ، بل لهم عاداتهم وأخلاقهم ، فلا يكلفون شيئاً لا يعرفونه . وكثيراً ما كنت أقول « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » إن صانع الفخار يخرج أشكالا جمّة ، وأواني كثيرة ، فلا ترى آنية تقول له لماذا صنعتني هكذا ؟ ولكني أعود إلى موضوع حديثي ، وهو جمعة الذي كنت مسروراً بلقائه ، وقد جعلته شغلي الشاغل لأعلمه كل ما يجعله نافعا مساعداً ، وخاصة

ما يساعده على فهم الكلام وتفهيمة. وكان أقدر تلميذ رأته مع مزاج سار، فكان يرتاح أشد الارتياح إذا فهمنى وأفهمنى حديثه، حتى شعرت نحوه بميل عظيم. وابتدأت أحس نعيم الحياة ولذتها حتى أصبحت لا أبالى إذا بقيت ما بقى لى من الحياة فى هذه الجزيرة. ولم يكن هناك ما أخافه غير رؤية المتوحشين

الفصل الثالث والعشرون

اجتهاد روبنسن كروسو فى تهذيب جمعة وتعليمه

وبعد ثلاثة أيام من عودتى إلى قلعتى جال بخاطرى أن أذيق جمعة لما حلّالاً، ليبعد عن ذهنه وذاكرته لحم الأدمى، فأخذته معى صباح يوم، وذهبت به إلى الأجرّاج والأجّهم، ناوياً الوصول إلى حظيرتى، لأذبح ماعزاً من القطيع. وبينما نحن نسير إذ رأيت ماعزة مضطجعة، وبجانبها جديهاها، فأومأت إلى جمعة ألا يتحرك فجمد فى مكانه، ثم أخذت البندقية وصوبتها نحو جدى فصرخته. وما سمع جمعة الصوت حتى كاد يصعق من الذعر وظن أنى أريد قتله، كما قتلت المتوحشين من قبل، لأنه لم ير الجدى الذى رميته، فخلع معطفه ليرى جراحه، ثم خر ساجداً بين يدى، متوسلاً إلى ألا أقتله. وقد أقنعت به بأنى لا أريد به ضيراً، وأخذت بيده فقام، وأشرت إلى الجدى الذى قتلت، وسألته أن يحضره ففعل، ثم وقف يفكر كيف قتل؟ فلأت بندقى أثناء وقوفه وحيرته، ولما انتهيت رأيت طائراً على شجرة ظننته صقراً، فأذا هو بيّماء، فأردت

أن أفهم جمعة قليلا ، فأشرت إليه بالتقدم نحوى فجاء ، فأومأت إلى البينفاء على الشجرة ، وإلى البندقة التى سأصوبها نحوه ، ثم إلى الأرض التى تحت الشجرة ، وأفهمته أن الطلق سيرمى بالبينفاء إلى الأرض . ثم رميت بالبندقة وهو ينظر فرأى الطائر يسقط مجدا لا فتجدد خوفه ، لأنه لم يفهم كل ما قالت له ، ولم يرنى وضعت شيئا فى البندقة فظنها آلة مدهشة محيرة ، واعتقد أنها مستودع للمنايا والهلاك ، وفيها ما يقتل الأنس ، والوحش ، والطائر ، والقريب والبعيد . وكانت دهشته عظيمة حتى أنه لم يس البندقة أياما عدة ، ولو وافقته على هواه لعبدنى وبندقتى .

وقد علمت منه بعد أنه كان يكلم تلك الآلة السماء كأنها تفهم الخطاب ، ويضرع إليها ألا تقتله . ولما خفت دهشته أشرت إليه أن يذهب فيحضر الطائر ، فذهب ، ولكنه غاب قليلا ، لأن الطائر سقط حيا ، فابتعد عن المكان الذى سقط فيه ، فكث يبحث عنه حتى رآه وأحضره . وانتهزت غيبته وجهله حقيقة البندقة فلأشأ مرة أخرى لأستعد للطواريء ، ولكن لم أجدنى فى حاجة لأطلافها فى ذلك الوقت . ولما حضر بالطائر ذهبنا بالجدى إلى المسكن ، وساخته ، وقطعت اللحم ، وأعدته للطبخ ، فوضعت بعضه فى قدر أعدتها لذلك ، ثم شويت بعضه على النار ، ومن مرقاة اللحم صنعت حساء ، ثم ابتدأنا الأكل ، فأكلت وأعطيت جمعة لحما ليا كل فاستلذ طعمه واستمتع به ، ولكنه كان يأكل اللحم ، ويشرب الحساء بلا ملح ، لأنه وضع قليلا منه فى فيه ، فلم يرقه طعمه فتقله ، وغسل فاه بالماء العذب بعده لشدة استنكاره لذلك . ولأأمله على حب الملح وضعت قطعة من اللحم فى بلا ملح ثم أظهرت اسمئزازا من ذلك وألقيت باللحم إلى الأرض ، وغسلت

فى بالماء القراح، ثم عدت إلى أكل اللحم بالملح، وأظهرت السرور واللذة
ولكن لم يجد ذلك نفعا.

واستمر جمعة يأكل بلا ملح مدة طويلة، وبعد استعماله له كان يأخذ
منه مقدارا قليلا جدا. وفى هذا اليوم اقتصرت على تغذيته باللحم المسلوقة
والحساء، ناويا أن أشوى له قطعة من لحم الجدى فى اليوم التالى. فلما
دنا وقت الطهام أوقدت نارا، وأقمت على جانبها عمودين وضعت فوقهما
ثالثا، ثم عاقت اللحم بحبل على هذا الثالث، وقت بتحريكه على جميع
جهاتة فسر جمعة من هذه الطريقة، ولما ذاق اللحم أعجب به، ووعدنى
ألا يذوق لحم الأنس مرة ثانية، فكان لتصريحه هذا رنة فرح فى نفسى.
وفى اليوم التالى أمرته أن يدق سنابل الحبوب ويغربلها، كما كنت أفعل ذلك
فقام بهذا العمل بهمة ونشاط. وخاصة حين علم أن الغاية منه الحصول
على الخبز. ثم عامته كيف يصنع من الدقيق خبزا، واهتممت بهذيبه وتعليمه
فكان يقوم بكل ما أحتاج إليه من الأعمال مع إجادة وإتقان.

والآن أخذت أفكر فى إكثار الحبوب، لأن المقدار المستهلك قد زاد
فأخذ ما خزنته فى النقصان، فابتدأت أحدد قطعة من الأرض لأعدها
للزراع، ثم كلفت جمعة أن يحوطها بحائط كما فعلت قبلا، ففعل ذلك بعزم لا يفتتر
ولا سيما بعد أن علم السبب الممجنىء لذلك. وقد أظهر جمعة نحوى لهذه
المناسبة عواطف نبيلة، فأخبرنى أنه كان سببا فى زيادة عملى، وأنه مستعد
لأنتم أى عمل أشير به عليه، وكانت هذه السنة أسعد وقت قضيتته فى هذه
الجزيرة التى دعوتها جزيرة اليأس، لأن جمعة قدر فيها على الكلام معى،
وحفظ أسماء الأشياء التى كان عليه أن يتعلمها، ثم عرف الأماكن التى

كنت مضطرا أن أرسله إليها. ووجدت رفيقا أحادثه ، فاستعملت مقولي فيما خلق له ، لأني منذ طرحت على هذه الجزيرة لم أجد من أخاطبه . وكان جمعه رفيقا لا يفضلُه رفيق ، وتجلت لي فيه صفتا الأمانة والشرف فأحسست أني مجذوب إليه ، أما هو فكان حبه لي يعدو كل وصف ، وأعتقد أنه لم يحب شيئا في حياته حبه لصاحب هذه القصة . وقد خطر لي أن أجره في الحديث لأعرف إذا كان عنده ميل لبلاده . ولما كان يعرف الإنجليزية ، ويمكنه إجابة أى سؤال ، وجهت إليه ذات يوم ما يأتى : - هل تذكر أن قومك تغلبوا يوما على أعدائهم ؟ فتبسم مجيبا نعم . إن قومي يجنون دائما ربح الوقائع ، وتكون لهم الغلبة على عدوهم . فقلت له إذا كان الأمر كما تدعى فكيف هزموكم وأخذوا منكم الأسرى ؟

جمعة إن قومي يقتلون منهم كثيرا .

السيد كيف ذلك ؟ إذا كان قومك يوقعون بهم الهزيمة فلم أخذت أسيرا ؟

جمعة إن عدوهم كان أكثر من عشيرتي حيث كنت أقيم ، فأخذوا منا أربعة . وأما في المواطن الأخرى التي لا أقيم فيها من بلادى فقد غلبهم قومي وأخذوا منهم ألوف الأسرى

السيد ولماذا لم يُعذك قومك إلى بلادك وينقذك من مخالبتهم ؟

جمعة إنهم أخذوا أربعة منا وجروا بهم إلى الزورق ، ولم يكن مع قومي زوارقهم

السيد وماذا يصنع قومك بالأسرى الذين يأخذونهم؟ أيذهبون إلى

حيث يضحون بهم كما فعل العدو بك؟

جمعة نعم إن قومي يأكلون لحوم البشر

السيد أين يذهبون بهم؟

جمعة يذهبون بهم حيث يريدون

السيد هل يحضرون هنا؟

جمعة نعم إنهم يحضرون هنا ويذهبون إلى أمكنة أخرى

السيد هل أتيت إلى هذه الجزيرة معهم؟

جمعة نعم. قد حضرت هنا. وأشار إلى الشمال الغربي من الجزيرة،

فاستنبطت من حديثه أنه جانبهم. وبهذه المحاورة علمت أن جمعة كان

يحضر مع قومه إلى هذه الجزيرة ليأكلوا أسراهم. وقد ذهبت به مرة

إلى ذلك الجانب منها فعرفه وأخبرني أنهم أتوا مرة فأكلوا بهذا المكان

عشرين رجلا وامرأتين وطفلا. ولم يقدر على نطق عشرين بالإنجليزية

فصف صفا من صغار الحصى على الرمل وأشار إلى أن أعدها. وقد حماني

الحديث المتقدم على الرغبة في إيضاح ما يأتي، فقد سألته عن بُعد شواطئ

بلادهم عن هذه الجزيرة، وعن أمن الطريق من العواصف، فأجابني بأن

لا خطر، وأنه لم يسمع قط عن زورق فقد في الطريق. وأخبرني أنه بعد

أن تمخر الزوارق قليلا في البحر تجد تيارا ورياحا تتجه دائما اتجاها واحدا في

الصباح، واتجاها آخر مساء. ففهمت حينئذ أن ذلك هو حركة المد والجزر

البحرية التي هي ارتفاع الماء مرة حتى يغمر السواحل، وانخفاضه أخرى حتى

ينحسر عنها ، ولاكنى علمت بعد أن هذه الحركة هي حركة المد والجزر الخاصة بالنهر العظيم المسمى أورينوقو ، فقد كان لمانه حركتان ، إحداها إلى البحر ، والثانية إلى العكس منها . وحين يقل الماء ينحسر عن فم الخليج الذى كانت جزيرتنا فيه . وكانت تلك الأرض التى رأيتها إلى الغرب والشمال الغربى هي الجزيرة العظمى التى تدعى « ترينيد » وهى فى النقطة الشمالية من فم ذلك النهر . وسألت جمعة كثيراً من الأسئلة عن تلك الأرض ، وسكانها ، وعن البحر وشاطئه ، وعن أقرب الأنم إليهم ، فأجابنى عما وجهته إليه من الأسئلة بتلك الصراحة التى عهدتها فيه . وسألته أيضاً عن الأسماء المختلفة للقبائل التى تشبه قبيلته فلم أظفر منه بغير هذا الاسم « كريس » ففهمت بسهولة أنهم الكريبيون الذين نرسم ما كنهم على المصورات الجغرافية فى جزء من أمريكا الجنوبية حيث يبتدىء فم النهر السالف الذكر ، ويمتد سكانهم إلى غيانا ثم إلى « سان مارثا » ^(١) . ثم أخبرنى جمعة أن عند مغرب القمر - وذلك إلى الغرب من جزيرتهم - قوما بيض البشرة ، يرخون لحام مثلى ، وأنهم قتلوا كثيراً من الناس ، فعلمت أنهم الأسبانيون الذين ارتكبوا كثيراً من الفظائع الوحشية ، حتى ذاع اسمهم بكل سوء بين أمم العالم طراً ، وتناقل الخلف عن السالف سوء سمعتهم ، وردى أحدوشتهم ^(٢) ، وسألته كيف أقدر على الوصول إلى أولئك القوم

(١) مدينة فى شمال كولومبيا على بحر الكريبيين

(٢) الأحداث مايتحدث به

الببيض من هذه الجزيرة ؟ فقال يمكن الوصول إليهم في زورقين ، فلم أفهم ما يريد ، ولم يقدر على شرح غرضه ، وبعد طول عناء فهمت أنه يريد أنه يمكن الوصول إليهم في زورق كبير الحجم ، بحيث تكون سعته كزورقين . ومن هذه المحادثة تجددت آمالي في النجاة ، وترك هذه الجزيرة وتحينت الفرص لتدبير الأسباب ، وربما كان هذا المسكين جمعة مساعدا لي على ذلك .

وفي ذلك الوقت الطويل الذي عاش فيه جمعة معي ، وتعلم لغتي لم أجدني مضطرا لوضع أساس ديني في نفس ذلك الرجل ، لأن الأساس كان معدا من قبل . وقد سألته ذات يوم من خالقك ؟ ولكنه لم يفقه ماقلته ، وظنني أسأله عن والده ، فغيرت معه طريقة ، وسألته عن خالق البحار والأرض التي نسير فوقها ، والجبال والأشجار ، فأجابني بأن خالق هذه الأشياء وغيرها قديم جداً لم يدركه شيء من الأشياء وهو بنامكي^(١) ولم يقدر جمعة على وصف شيء مما يتعلق بهذا الخالق الذي ذكره ، ولكنه قال إنه أقدم من كل مانوي ، أقدم من البحر والأرض . والقمر والنجوم فسألته حينئذ إذا كان ذلك الخالق القديم قد أوجد كل الأشياء فلماذا لا تعبده تلك الموجودات ؟ فنظر إلى نظرة المتعجب ثم قال كل الأشياء تتوسل إليه وتتجه . فسألته أين يذهب موتاكم بعد موتهم ؟ فقال يذهبون إلى موجدهم بنامكي . فسألته هل يذهب قتلاكم الذين تأكلونهم إلى الخالق أيضا . فأجاب بالأيجاب

(١) بنامكي اسم ألهم

وفى نور تلك المعلومات التى عرفها ابتدأت أعلمه علما حقا، ليعرف
الله سبحانه وتعالى كما نعرفه، فأخبرته أن الله العلى حى فى تلك القبة
الزرقاء التى فوقنا ^(١) وأشرت نحو السماء، وأنه قادر يدبر العالم بالحكمة
التي أوجده بها، وأنه مالك كل شيء، يعطى ويسلب، واستمرت على
ذلك حتى شحذت ذهنه، وأضأت المنهج له. وكان يستمع لما أقول،
وهو ماق إلى بذهنه ولبه. وفهم الحكمة فى بعث الأنبياء والرسول
وطرب منها. وكان يرانى وأنا أصلى خاشعا، فأفهمته أن الله يسمعنا فى
صلواتنا وإن استقر فى السماء، فأخبرنى ذات يوم أنه إذا كان الله الذى
أعبده قادرا على أن يسمعنا وهو فى سمائه فلا بد أن يكون أعظم قوة،
وأوسع سلطانا من إلههم بنامكى الذى لا يبعد عنهم إلا قليلا، ومع ذلك
لا يسمع ندائهم حتى يذهبوا إلى الجبل العظيم الذى يسكنه، إيمانادوه بما
أرادوا. فسألته هل ذهبت إليه لتكلمه؟ فقال لا. إن الأحداث لا يذهبون
إليه، ولكن الكبارم الذين يفعلون ذلك وسماع «أو كايكى» ففهمت
أنهم رجال الدين عندهم، أو الكهنة الموكلون بالأسرار الدينية، فهم
يذهبون حيث يجدون إلههم، ثم ينقلون إلى قومهم حديثه معهم. ومن
هذا الحديث علمت أن الكهانة موجودة حتى بين أشد الناس وثنية
وتوحشا، وأن سياسة جمل الدين سرا من الأسرار ليستأثر الكهنة
باحترام الناس كافة، لا نجدوها عند الرومانيين فقط، بل توجد كذلك فى
جميع أديان العالم، مهما كان أربابها من الحطة والتوحش.

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الأصل الأنجليزى

ولما وقفت من جمعة على الأسرار المتقدمة ابتدأت أوضح له الحقيقة وأزيل من فكره تلك الأوهام ، فأفهمته أن تظاهر كهنتهم بالذهاب إلى الجبل العظيم الذي ذكره ليصلوا إلى إلههم « بنامكي » خداع لعقولهم ، وتضليل بها ، وأن رجوعهم منه بكلمات يقولونها للناس أغش وأكذب ، وقلت له إنهم إذا تقابلوا في الجبل مع أحد ، أو سمعوا أجابة منه ، فهو الروح الخبيثة . وحينئذ ابتدأت معه في الكلام على الشيطان الذي هو للإنسان عدو مبين ، فتناولت نشأته وعصيانه الله ، ومخالفته لأمره ، وعداوته للأنس ، وسبب تلك العداوة ، ووجوده في الأجزاء المظلمة من العالم ، ليعبده الناس بدل الخالق الحقيقي ، والطرق الكثيرة التي يسلكها ليغرر بالناس ، ويقودهم إلى هلاكهم . ويبدت له قدرته على معرفة الأسرار ، وفهم كنهها ، حتى ينصب أشراكه فنكون نحن مغررين بأنفسنا ، ونقودها إلى الدمار باختيارنا . ولم أجد من السهل أن أوضح له الأفكار الصائبة عن الشيطان كما وجدت ذلك سهلا في توضيح صفات الله عز وجل ، فإن الطبيعة قد أرشدتني في كلامي معه ، فأفهمته ضرورة وجود سبب أولى عظيم ، وقوة عامة حاكمة ، وعناية خفية مدبرة ، ووجوب العبادة لمن اتصف بهذه الصفات ، لأن من العدل والأنصاف أن تشكر لمن أنعم عليك بنعم لو حاولت إحصاءها لأعجزك الأحصاء . أما أظهار حقيقة الشيطان فكان من الصعب التحدث فيها

وقد سألتني جمعة ذات يوم سؤالا حرت في الجواب عنه ، وهو سؤال يخطر بغير كل إنسان ، فقد كنت أخبره بقدرة الله ، وأنه شديد

العقاب لمن عصاه ، وأنه أعيد النار للآثمين ، وأنه كما قدر على إيجادنا ، وخلق كل شيء ، قادر أن يهلكنا في أقل من لمح البصر . وكان أثناء ذلك يحسن الاستماع ويصغى بكل انتباه . وقد انتقلت من هذا الحديث إلى أن الشيطان عدو الله في قلوب الناس ، وأنه اتخذ من حقه وحذقه ، سلاحاً يعارض به من يريد سلوك سبيل الخير الذي وضعه الخالق جل جلالته قدرته ، وأنه بذلك يعمل على دمار الشرائع في جميع العالم . فقال جمعة بعد ذلك أليس الله قادراً قوياً ؟ وإذا كان كما وصفت فلماذا يترك عدوه الألد يعمش في الأرض فساداً ؟ فأجبتته بأن الله أقدر الموجودات وأقواها ، وأن قوته لا تدانيها قوة في الوجود ، وأنتا نعبد ونسأل إليه ليقدرنا على الشيطان حتى نذيقه الهوان ، ونقاوم إغراءه لنا بالشر ، وبكبح عداوته عنا .

ولكن هذا لم يقنع جمعة ، فقال إذا كان الله قادراً قوياً ، وكان شديد البطش ، فلماذا لم يقتل هذا الخبيث حتى لا يعترف الذنوب والآثام ؟ فدهشت لهذا السؤال ، لأنني وإن كنت الآن شيخاً كبيراً لست أهلاً لحل مثل هذه العقدة ، ولم أقدر حين سمعت السؤال أن أجيب بشيء ، فتظاهرت بعدم السماع ، وسألته إعادة ما قال ، ولكنه كان حريصاً على سماع الجواب ، فلم ينس سؤاله ، وألقاه كما فعل أولاً ، فوجدت وقتاً قليلاً من التفكير ، فتحسن موقفي قليلاً وأجبتته « إن الله سيعاقبه في النهاية عقاباً شديداً ، وإنه أمهله حتى ينال جزاءه بعد محاكمة عادلة ، وسيطرح في قاع جهنم خالداً فيها » ، ولكن جمعة لم ير في جوابي مقنعاً لشغفه بحب الاطلاع ، فكرر السؤال ، فظهر العجب من قولي في الأجابة « أمهله »

« وفي النهاية » وقال لماذا لم يقتل الشيطان منذ أمد سحيق ؟ فقلت له « إنك إذن ستسألني لماذا لا يعاقبنا الله بالموت الزوام ^(١) حين نعصيه . إنه يمهنا للتوب فيغفر لنا » ففكر قليلا ثم قال « حسن ما تقول إذن أنت وأنا ، والشيطان ، وكل مذهب سيمهل حتى يتوب ويغفر الله له » فأحسست أنني غلبت على أمرى في هذا الجدل ، وتلك المحاورة إلى آخر حد ممكن ، وقد كان هذا برهانا ساطعا أمانى على أن العقل المنصف يسهل عليه إدراك المعلومات التي يتأكد بها من وجود الله سبحانه وتعالى .

ولخرج المناقشة ودقتها غيرت مجرى الحديث فجأة ، كأنه طرأ ما يوجب ذلك ، ثم أرسلت جمعة إلى مكان بعيد يستغرق منه الذهاب إليه وقتا طويلا قمت فيه بالصلاة لله سبحانه وتعالى ، وضربت إليه أن يساعدني على تعليمه ، ويقدر قلبه على تسلم نور المعرفة الألهية ، ويجذبه إليه ويرشدني أن أقرأ له من كلماته المقدسة ما يحمله على الاقتناع ، والنظر إلى ما في السموات والأرض من الأدلة الواضحة ، والآيات البينات حتى ينجو بنفسه من الشقاء .

وإني لم أدع طريقة توسمت فيها النجاح في تعليمه إلا اتبعها ، وقد استفدت أنا نفسي من تعليمه وإرشاده فوائده ، وسيرى جميع الذين يجدون أنفسهم في مثل موقعي أنهم يدركون بالتعليم ما كانوا غير عالمين به ، أو أنهم يبنون معلوماتهم على أساس متين ثابت موطد الدعائم ، بكثرة التفكير والاحتياط لتفهم المتعلم . وقد وجدت في نفسى سرورا

(١) الموت الزوام الكريه أو المجهز

وانشراحا للبحث والتنقيب بمناسبة تعليم جمعة لم أشعر بمناها قط من قبل .
 وابتدأت أشعر بقلّة أحزاني وآلامي ، وأرى أن معيشتي كانت سارة
 راضية ، وأفكر في أن سجنى بهذه الجزيرة كان سببا لنوجه قلبي نحو
 خالق الأشياء جميعها ، بل كان سببا في نجاة جمعة من الموت وإيقاظ روحه
 من الشقاء بأرشاده إلى المعرفة الحقة والصراط السوى . وكنت كلما فكرت
 في ذلك كله سرت في نفسى هزة الفرح والسرور ، وشكرت الله عز وجل
 على أن ساقنى إلى هذه الجزيرة التى طالما ظننت أنها أتعس مكان يصاب
 به آدمى . وبهذه المواطن بقيت ثلاث سنين ، وهى المدة التى أقمتها مع
 جمعة فى تلك الجزيرة النائية ، وكانت حياتى فيها تامة السعادة ، إذا كان
 هناك شئ فى هذا العالم يصح أن يدعى سعادة تامة . أما جمعة فقد أصبح
 متدينا شديد التمسك بدينه . وكانت معنا كلمات الله المقدسة نقرأها ونتعلم
 منها . وكنت دائما أقرأ كتاب الله الجمعة ، وأشرح له معنى ما فى التنزيل .
 وكان بأسئلته الكثيرة المتنوعة سببا فى أن صرت ضليعا فى العقائد الدينية
 إلى حد لا يمكن الوصول إليه بالقراءة الخصوصية مجردة من مثل
 مناقشات رفيقى . ولا ينبغي أن أهمل الإشارة إلى هذه الحقيقة وهى أن
 الوحدة التى ابتليت بها كانت سببا فى قراءتى كتاب الله ، والانتفاع بما حوى
 من غرر الآيات المحكمات ، فأثرت فى جمعة حتى أصبح من النساك .

أما الخلافات الدينية والمناظرات الجدلية التى استولت على عقول
 الناس ، وأخذت طويلا من وقتهم ، فكانت عديمة الجدوى لنا ، ولعلها كذلك
 بالنسبة لجميع الناس . إننا نملك الكتاب الذى إذا اتبعناه فإن نضل بعده ، وهو

كتب الله ، فقد تشبعنا بروحه فعلمنا الحلال والحرام ، وغرس في قلوبنا الطاعة للأوامر والنواهي . وإني كنت واثقا أننا لو بحثنا في النقط الدينية الخلافية التي سببت كثيرا من الاضطراب والفوضى في أنحاء الدنيا ، ولنلنا منها قسطا وافرا من الفهم والتحصيل لوجدناها عديمة الأثر في حياتنا وأستطيعك عذرا أيها القارئ في ترك جوهر قصتي ، والاسترسال في بيان هذه الأشياء .

الفصل الرابع والعشرون

صنع روبنسن كروسو وجمة قاربا للذهاب به إلى بلاد الثاني

ومجي المتوحشين أثناء ذلك

وإني أرجع فأقول : إنه بعد أن تأكدت الروابط بيني وبين جمعة ، وأصبح يفهم كل ما أقول وقدر على التكلم بالإنجليزية بسهولة وإن كانت لغته غير مضبوطة ، ابتدأت أخبره بقصتي وكيف جئت إلى هذه الجزيرة ، وعشت فيها ، وبعدة إقامتي بها . ثم شرحت له ذلك السر الغامض الذي كان يزعمه ، وهو البندقة . وكيف تملأ بالبارود والرصاص ، وعلمته الرماية بها وأعطيته سكيننا فطرب لها ، ثم صنعت له حزاما عاقت به جعبة وضعت فيها « باطه » فكانت عظيمة النفع كسلاح لنا ثم استعملناها في مواطن أخرى لأغراض شتى غير الدفاع .

ثم وصفت له الممالك الأوربية ، وخاصة إنجلترا التي جئت منها ، وكيف يعيش القوم فيها ويعبدون الله ، ويعامل بعضهم بعضا ، وكيف يتجرون

في السفن ، ويذهبون بها إلى جميع جهات العالم ، ثم حدثته عن السفينة التي كنت أحد ركبها ، وما حل بها ، وأشرت إلى المكان الذي غرقت فيه ، ثم أريته بقايا الزورق الذي فقد أثناء هربنا ، ذلك الزورق الذي كنت عاجزا عن تحريكه ، وقد تحطم الآن كل التحطيم ، فلما رأه جمعة وقف مفكرا وقتا طويلا ، ولكنه لم يفهمه بينت شفة ، فسأله عن سبب تفكيره ، فأجاب بأن زورقا كهذا وصل إلى شاطئ بلاده حيث كان يقيم . وفهمت من كلامه أن ذلك الزورق الذي حدثني عنه قد ساقته الرياح هناك ، وكان أهله في خطر ، فاستنبطت من كلامه أن سفينة أوربية قد تلاعبت بها العواصف ، وأصابها ريح صرصر عاتية ، فجعلت عاليها سافلها ، ومزقتها شر ممزق ، ثم أفلت منها زورق من زوارق النجاة فدفع إلى شاطئهم . ولم أفكر قط أن قوما يفرون من الغرق إلى أرضهم لأنهم يعلمون ماذا ينتظرهم هناك ؟ ولذلك لم أفكر في سؤاله عن كان فيه ، وبالأحرى لم يخاطر بيالي أن أبحث عن جنسيتهم ، فقصرت بحثي على صفة الزورق ، فوصفه جمعة وصفا كافيا ، ثم أصلح خطئي حين سمعته يقول ! إنهم أنقذوا الرجال البيض الذين كانوا فيه من الغرق ، فسأله حينئذ عما إذا كان في الزورق رجال من البيض ، فقال نعم ، فاستفسرت عن عددهم فعد على أصابعه سبع عشرة مرة ، فعلمت أنهم سبعة عشر رجلا ، ثم سأله عما حل بهم ، فقال إنهم يعيشون بين قومه . فكانت أجوبة جمعة مصباحا استنرت به في فهم ما يأتي ، وهو أن أولئك البيض الذين ذكرهم جمعة قد يكونون من ركاب تلك السفينة التي تكسرت قرب جزيرتي ، لأنهم

بعد أن رأوا مآل سفينتهم ركبوا زورقا لينجوا أنفسهم ، فسار بهم إلى شاطئ تلك البلاد التي يقطن بها المتوحشون .

وسألت جمعة بجد عما آل إليه أمر أولئك القوم ، فأخبرني بصدق أنهم لا يزالون هناك يعيشون بين قومه ، وأنه مضى عليهم هناك أربع سنين ، وأن القوم تركوهم وحدهم ، وأعطوهم من القوت ما يغنيهم ، فسألته كيف تركوهم يعيشون ولم يأكلوهم ، فقال إنهم اتخذوا منهم أصدقاء وعقدوا معهم هدنة ، ثم قال إن قومي لا يأكلون إلا دميئنا إلا إذا اشتبكوا معهم في قتال ، وأسرنا الأسرى في المعركة .

وبعد هذا بمدة طويلة كنت أنا وجمعة على قمة التل في الجانب الشرقى من الجزيرة . وهذا التل هو الذى رأيت منه فى يوم صافى الأيام شواطئ القارة الأمريكية . فنظر جمعة بحيرة نحو بلاده . وكان اليوم هادئا صافيا ، ثم وقع فى دهشة واضطراب ، وابتدأ يرقص ويقفز ، ونادانى لأنى كنت بعيدا عنه . فسألته ما الخبر ؟ فقال . « فرح وسرور . هناك مملكتى . هناك قومى » .

فلاحظت على جمعة سرورا لا يحد ، فكانت عيناه تتقدان بشرا ، وتفيمضان حبورا ، وظهرت على وجهه علامات الاهتمام كأنه يريد العودة ثانية إلى بلاده . وكانت هذه الملاحظة سببا فى أن اعتورتنى أفكار كثيرة إذ أصبحت غير مطمئن لجمعة كما كنت قبلا ، لأنى فكرت فى أنه إذا تمكن من العودة إلى بلاده فسينسى دينه ، بل ربما نسى ما يجب عليه نحوى فيخبر قومه عنى فيحضرون فى عدد كبير مائة أو مائتين ، ويضحون



فرح و سرور . هـنـاك مملـكتـى . هـنـاك قومى

بي وربما يكون جمعة مسرورا طربا كما كان يفعل حين اعتاد قومه أن يأتوا بأعدائهم أسرى بعد انتهاء المعركة ويأكلوهم .

ولكنني أسأت إلى ذلك الأمين الوفي جمعة في ذلك الظن الذي ظننته ، فأسفت على ما فعلت . وعلى كل قد بقيت عدة أسابيع أعامله معاملة جافة ، مع أنه كان خالي الذهن من كل ما جال بفكرى . وكنت في كل يوم من أيام جفوتى أمتحنه لأعرف إذا كان في نفسه شئ مما اتهمته به فكنت أجده آمينا مخلصا ، ولم أجدمشجعاً على الاسترسال في تخيالاتى . ولذلك لم أجدمساعدنى على اتهامه بالخيانة .

وقد حدث ذات مرة حين كنت أنا وجمعة على التل الذى سبق ذكره ، فى يوم كثرت سحبه ، وتلبد جوه ، بحيث لا يقدر الناظر أن يرى شواطئ القارة ، أن سألته ، ألا تحب أن تكون فى بلادك بين قومك .

جمعة نعم . إنى إذن أكون مسرورا سعيدا
السيد ماذا تعمل هناك ؟ أنقلب متوحشا كما كنت فتأكل لحم
الإنسان ؟

جمعة لا . إنى أعلمهم أن يعيشوا خيرين ، يعبدون الله ، ويأكلون
الخبز ولحم الحيوان ، ويشربون اللبن بدل ذلك اللحم المحرم ،
لحم الإنسان

السيد إذا فعلت ذلك فأنهم سيقتلونك
جمعة لا . إنهم لا يقتلوننى لأنهم يحبون التعليم ويرغبون فيه ، وقد
تعلموا كثيرا من الرجال الملتحين الذين أنقذوهم من الزورق

السيد هل تحب أن تذهب إليهم؟
جمعة إني لا أقدر على السباحة كل تلك المسافة التي بيننا وبينهم
السيد إني أقدر أن أصنع لك زورقا
جمعة إني أذهب إليهم إذا جئت معي
السيد إني لا أقدر على الذهاب معك ، لأنهم سيأكلونني إذا
ذهبت إليهم

جمعة لاخوف عليك سيدي إذا جئت معي ، فأني سأخبرهم بأنك
أتقذت حياتي بعد أن فتكت بأعدائي ، فيحبونك حبا جما
ثم أخبرني أن قومه أشفقوا على السبعة عشر رجلا البيض ،
وأنهم يعاملونهم معاملة رقيقة ، كلها حنان وعطف ، بعد أن
مدوا إليهم يد المساعدة ، فنجوهم من الغرق

وبعد أن عامت ذلك من جمعة أصبحت مستعدا للمخاطرة والذهاب
إلى القارة ، لأرى إذا كان في وسعي الانضمام إلى أولئك النفر البيض الذين
قام في نفس أنهم إسبانيون أو برتغاليون ، لأنني أعتقد أنه إذا تيسرت
مقابلتهم يمكنني تدير خطة للنجاة ، لأنني أكون حينئذ في القارة
الأمريكية مع رفقة صالحة. وذلك خير من مخاطرتي وأنا في هذه الجزيرة
بمناي عن القارة بنحو أربعين ميلا ، ولا معين . وبعد أيام تحدثت مع جمعة
وأخبرته بأنني سأعطي زورقا يذهب به إلى بلاده ، فأخذته إلى ركوتي في
الجانب الآخر من الجزيرة ، ثم أظهرتها له ، بعد أن أزلت الماء عنها ،

لأننى حفظتها دائما تحت الماء ، وركبتها خيرا بالتجديف
ومعالجة السفن كما كنت أنا نفسى

فقلت له أتود أن تذهب إلى بلادك الآن ؟ فنظر إلى نظرة أسف
علمت منها أنه يريد أن يقول إن الركوة لا تقوى على تحمل السفر. فأخبرته بأن
عندى زورقا أكبر منها . وفى اليوم التالى أخذته إلى المكان الذى صنعت
فيه ذلك الزورق الذى عجزت عن تحريكه وإيصاله الماء . فلما رآه جمعة
قال إن فيه غناء . وقدمضى على الزورق وهو فى مكانه بلا غطاء نحو ثلاث
وعشرين سنة ، فتأثر من الشمس حتى تشققت بعض أجزائه ، ولكن
جمعة أفهمنى أنه يكفى لأداء ما عزمنا عليه ، وأنه يمكنه أن يحمل كفايتنا
من الطعام والشراب .

وقد صحت عزيمتى على الذهاب مع جمعة إلى القارة ، فأخبرته بأن
فى وسمى أن أصنع زورقا كبيرا كهذا ، وأمنحه إياه ليذهب إلى وطنه ،
فلم يجبنى بكلمة واحدة ، وعبس وجهه ، وقطّب ما بين عينيه ، فسألته عما
حل به فقال ماذا صنعت حتى تغضب على ذلك الغضب الشديد ؟ فأجبت
بأنى غير غضبان ولا حائق عليه . فقال لماذا إذن ترسل جمعة إلى بلاده ؟
فقلت ألم تقل إنك ترغب أن تكون مع قومك ؟ فقال بلى إنى أريد أن
أصاحبك إلى بلادى . ولا أود أن أفرد بالأوبة . ماذا أصنع هناك وحدى
إذا قفلت راجعا بغير سيمدى ؟ إنك تقدر على القيام بأعمال جليلة هناك .
فيمكنك أن تعلم القوم المتوحشين ليصيروا خيرين مفكرين ، ينتهجون
مناهج الصواب والرشد ، فيعرفون الله ويعبدونه ويعيشون عيشة جديدة
إخوانا متحابين لا تباغض بينهم ولا تنابذ .

فقلت له يا حسرتنا على ما فرطت في جنب التعليم . إني رجل قليل العلم ، فكيف تصفني بكل هذه الصفات ؟ فقال إنك علمتني فأنقذتني ، وتقدر أن تعلم قومي فتهديهم ، فأجبتته بأني أود أن أعيش هنا منفردا كما عشت قبلا . أما هو فله الذهاب إلى وطنه . فظهر عليه الاضطراب والقلق ، وأسرع إلى فأس فأخذ بها ، ثم جاء فأعطاني إياها . فقلت له ماذا أصنع بها ؟ فقال تقتل بها جمعة . فقلت علام أقتلك ؟ فقال لماذا ترسانى بعبيدا عنك ؟ ماذا ارتكبت حتى أستحق هذا العذاب الأليم ؟ وتكلم هذه الكلمات بجهد ظهر على محياه ، مقترنا بدمع هتون . وقصارى القول أني رأيت من جمعة عزما أكيدا ، وإرادة قوية صارمة ، وعظما شديدا على ، حتى اضطررت أن أخبره بأني سعيد لأن يكون معي ما أحب . ولست بمرسله بعيدا عني مادامت له رغبة في البقاء معي .

ومن تلك المحادثات التي دارت بيننا علمت أنه شديد الحب لعشرتي ، كثير البغض لفرقتي ، وأن لاشيء يقدر على التفريق بيننا ، وأن رغبته في العودة إلى قومه كانت مؤسسة على حبه لهم ، ورغبته في تعليمهم الخير والشر . بيد أني لم أفكر قط في تحمل تلك التبعة ولم يكن عندي ميل للقيام بها . ولكن الشيء الذي اهتممت به ، وأصبح يملك على كل مشاعري هو أن أسعى في الفرار من هذه الجزيرة ، لأجرب الخطة التي ذكرتها فيما مضى . وهي الذهاب إلى القارة ، عانى أجد السبعة عشر رجلا الذين ذكرهم جمعة . ولذلك ابتدأت في تنفيذ الخطة بالبحث عن شجرة تصلح أن تكون زورقا ، ليحملنا في هذه الرحلة . وكان في الجزيرة كثير من الشجر الذي يكفي لصنع أسطول كبير من السفن العظيمة ، ولكن الشيء

المهم عندي كان العثور على شجرة تصلح لغرضي ، قريبة من الماء ، حتى إذا قطعت وهيئت زورقا ، كان من السهل إنزاله في الماء ، وبذلك أتجنب الغلطة الأولى .

وبعد لأي ماعثر جمعة على شجرة تصلح لما نريد ، فوجدته أخبر بالأنواع الصالحة لذلك مني ، ولا أعرف حتى الساعة اسم تلك الشجرة التي اتخذنا منها زورقنا ، غير أنها كانت أقرب الأشياء لونا ورائحة إلى النوع الذي نسميه « التوت » . وأراد جمعة أن يحرق من الشجرة ما يكفي لتجفيفها ، ولكنني أريته الآلات التي كانت عندي ، وعلمته استعمالها ، فقام بما عهد إليه من العمل خير قيام . واستغرق العمل شهرا كاملا حصلنا بعده على زورق محكم جميل المنظر ، لأننا بما ملـكنا من الأدوات شذبنا خارج الشجرة حتى تشكل بهيئة السفن وقد مكثنا أسبوعين نعالج إنزال الزورق إلى الماء على خشب وضعناه تحته ، ولما صار فيه وجدناه كبيرا يسمع عشرين رجلا بلا تعرض للخطر .

ومع كبر الزورق كان جمعة يديره ويوجهه بسرعة وإحكام . فسألته إذا كان يكفي لحملنا إلى القارة فقال نعم . إنه لا خوف عليه من العواصف . ولكنني لم أكتف بذلك بل عزمت على أن أعد له دقلا وشراعا وأنجرا وأمراسا . أما الدقل فكان من السهل الحصول عليه ، وقد اخترت شجرة مناسبة له قريبة من المكان الذي كان فيه الزورق ، وكلفت جمعة قطعها وعلمته كيف يهيئها للغرض المطلوب . وأما الشراع فكان من الصعب إعداده . نعم كان عندي قطع كثيرة من الشرع حملتها معي من السفينة ، ولكن قد

مضى عليها منذ ذلك العهد ست وعشرون سنة ، فبليت إلا قليلا منها لأننى أهملت العناية بها لظنى أنى غير محتاج إليها . ولذلك تعبت فى تخير الأجزاء المناسبة من تلك القطع . وقد زاد تعبى لاحتياجى إلى الأبر ، ولسكنى مع كل تلك الصعوبات تمكنت من إعداد شراع مثاث قبيح المنظر للأسباب التى مر شرحها . وقد استغرق تحضير الدقل والشراع نحو شهرين . وجهزت الزورق بسكان^(١) أدبره به . وقد أتعبنى إعداداه ، ولسكنى وصلت أخيرا إلى بغيتى .

ووجدت من الضرورى أن أعلم جمعة كل مايتعلق بهذا الزورق ، لأنه وإن كان خبيرا بالتجديف فقد كان جاهلا استعمال الشراع والسكان . وقد دهش عند ما رآنى أغير اتجاه الزورق بالكؤنل^(٢) وأوجه الشراع إلى أى جهة أحببت . وكان جمعة نشيطا ذكى الفؤاد ، فتعلم ما أردت تعليمه إياه ، وأصبح ماهرا فى الملاحة . ولسكنه لم يبرع فى معرفة الأبرة المغناطيسية ، فلم أهتم بذلك لأن الجو فى تلك الأرجاء قلما تحجبه السحب ، أو يخيم عليه الضباب ، فيمكن رؤية النجوم ليلا ، والشاطئ نهارا ، إلا فى الفصول الماطرة التى لا يرغب أحد فيها فى التجوال برا أو بحرا . وقد دخلت الآن فى السنة السابعة والعشرين من أسرى بهذه الجزيرة . وكانت السنون الثلاث الأخيرة جديرة بالاحتساب من المدة

(١) الدفة

(٢) الدفة

السكرية التي أقمنا هنا ، لأنني وفقت إلى لقاء جمعة ، فأصبح عيشي هنيئاً به .

وقد حافظت كل سنة على تذكريوم وصولي إلى الجزيرة . فكننت أقوم لله فيه بالشكر على أياديته التي أسديت إلى في بدء حياتي بهذا التيه ، لأنني وجدت أسباب الراحة والهناء ، وشمرت الآن بوجوب زيادة الثناء على وفرتها . واعتقدت أن خلاصى من هذه الجزيرة قرب ، وأنه لن يمضى على فيها سنة أخرى ، ولكني لم أهمل فلاحه الأرض والقيام بكل ما كان ضرورياً لي . ولما كان فصل الأمطار قريباً أخذت الزورق إلى الجدول الذي ذكرته في بدء قصتي هذه ، حين أحضرت الرمث محملاً بمختلف الأشياء من السفينة المهشمة ، ثم قدته عند ارتفاع الماء إلى الشاطئ وأمرت جمعة بحفر مرفأ له يكفي عمقه إذا ملئ بالماء أن يكون الزورق عائماً . ولما انحسر الماء عن الشاطئ أقننا سدا منيعاً عند نهاية الزورق ليقيه من تيار المياه عند ارتفاعها في البحر . وبذلك بقي زورقنا جافاً غير مغمور بالماء . ولنجفظة من المطر جمعنا كثيراً من أغصان الأشجار ، ووضعناها فوقه حتى أصبح كمنزل مسقوف . وبعد الانتهاء من ذلك كله انتظرت شهرى نوفمبر وديسمبر لأقوم بما نويت من التجارب .

ولما قرب حلول الفصل الذي كنت أرتقب حلوله ابتدأت أعد ما كنت في احتياج إليه ، وخاصة الطعام ، ثم عزمت أن أفتح المرفأ بعد جمعة أو جمعتين ، وأنزل الجارية إلى الماء . وبينما كنت مشغلاً ذات يوم بالاستعداد أرسلت جمعة إلى الشاطئ ليأتني بسلحفاة ، كما كانت تلك عادتنا في كل أسبوع ، حرصاً على التمتع بالبيض وذلك اللحم أيضاً . ولكنه

لم يسر طويلا حتى قفل راجعا يعدو كالريح ، لا يلوى على شيء ، وقدامتلا قلبه رعبا وهلعا . وما كدت أسأله عن الخبر حتى صاح « سيدي . سيدي . سيدي . إن الخطب أليم محزن » فقلت : ماذا رأيت ؟ فقال : هناك ثلاثة زوارق . وكان ذلك المسكين يضطرب فرقا فشجعتة قليلا ، ولكنه لم يفكر في شيء ، إلا أن أولئك المتوحشين جاءوا ليجثوا عنه ويقطعوه إِرْبًا^(١) إِرْبًا . وزاد اضطرابه حتى عييت بأمره ، فأفهمته أنني كنت في خطر ، كما كان هو ، لأنهم إن عثروا علينا فسيكون مصيرنا للزوال . وحينئذ قلت لجمعة يلزمنا القتال . أمستعد أنت له ؟ فقال إنه مستعد لما يطلب منه ، ولكن عددهم كبير . فقلت له لانتهم بهم فبندقنا كفيل بالقضاء على عددهم الكثير ، كما قلت له أيضا : أمستعد أنت لحمايتي والعمل بمشورتي ورأيي كما أنا مستعد لحمايتك ؟ فقال إنه يموت إذا أمرته بالموت . وعلى ذلك ذهبنا نستعد فأعطيت جمعة قليلا من الشراب ، وجمعنا البنادق ، وملاناها بأحكام شديد ، وحملت السيف مجردا من غمده في وسطى ، كما كنت أفعل ذلك دائما ، ثم أعطيت جمعة فأسا .

ولما انتهينا من الاستعداد أخذت مرقبي ، وذهبت مرتفعا إلى جانب التل لأرى ما هنالك . ولما صوبت نظري نحو الشاطئ رأيت أحد عشر رجلا ، وثلاثة من الأسرى ، وثلاثة زوارق ، ورأيت أن همهم مقصور على الرقص والطرب ليضحوا بتلك الضحية التي أحضروها معهم غيب انتصارهم على أعدائهم . وقد لاحظت أنهم ليسوا في المكان الذي رأهم

فيه جمعة ، بل مالوا إلى فم الجدول حيث الشاطئ هناك منخفض وحيث تمتد الأشجار الكثيفة إلى البحر . ولما رأيت فعلهم الوحشي ثار غضبي عليهم ، فأفهمت جمعة أنني أعلنت عليهم الحرب ، وأنى لا بد قاتلهم ، وطلبت إليه أن يشد أزرى في هذه الحرب . وكان جمعة قد تغلب على الذعر الذي استولى على لبه بفضل ما تعاطى من الشراب ، وأصبح غير هيب ولا وجل ، فقال وهو ممتلىء بشرا : « سأموت متى أمرتني بذلك » وبهذه الفكرة فكرة الانتقام تشبعت نفسى ، فوزعت الأسلحة بينى وبين جمعة ، وسرنا نقصد مكانا صالحا للهجوم . وأخذت معى زجاجة صغيرة من الشراب ، وملأت جمعة البارود والرصاص ، وأعطيتها جمعة ليحملها معه ، وأرشدته إلى الأشياء التى يجب عليه اتباعها ، فأمرته أن يقف خلفي ساكنا بلا حركة ، وحذرتة إطلاق النار ، أو إحداث أى شئ إلا اذا أمرته . وشددت عليه ألا يتكلم كلمة أو يفتح فاه بأى صوت . وبعد أن سرنا ميلا فى أرض مغطاة بالأشجار وصلنا إلى نقطة لا تبعد عنهم إلا قدر مرمى الطلق .

وبينما كنا سائرين عاودتنى الأفكار الأولى فذهبت حدى . ولا أقصد أنى خفت نزالهم ، لأنهم كانوا عراة الأجسام غير مسلحين ، فكنت أكفيهم وحدى ، ولكنى أقصد أنى فكرت فيما كنت مقبدا عليه من تلويث يدي بدماء قوم لم يسيئوا إلى ، ولم يفكروا فى الأضرار بى ، وأن الله لم يدعنى لعقابهم ، فقد اقتضت إرادته أن يتركهم مع غيرهم من سكان تلك الأصقاع ، ليكونوا علامة على إهمالهم وجهلهم ، وليس لى أن أحكم عليهم أو أكون جلادهم وسيأفهم . وإن إرادة الله إذا اقتضت

عقابهم لأنامهم ساطت عليهم عدوا منهم . وعلى كل ايس لى تدخل فى شئونهم . نعم إن جمعة كان عدوا لهم . وكانت بينه وبينهم حرب ، فأذا قام هو بقتلهم يكون له الحق ، واسكن لا يمكن أن أقرر ذلك بالنسبة لى . ولما امتلأت بتلك الأفكار أثناء سيرى عوات على عدم قتالهم ، ورأيت أن أكون قريبا منهم ، لأشاهد عيدهم الوحشى ، وأعمالهم الخاسرة وأنظر هناك ما يقدره الله ، فأن رأيت باعنا على القتال قاتلت ، وإلا عدت كما أتيت .

وبهذه العقيدة وصلت إلى ذلك المكان الذى كنت أبتغيه ، وكان جمعة معى يسير بكل تؤدة وحذر ، فأرسلته إلى شجرة كبيرة مجاورة للشاطىء ، وأخبرته أن يتسمع ما يقولون ، ويرى ما يفعلون ، فعاد إلى بعد قليل قائلاً إنهم حول النار يأكلون لحم ما أنضجوا من الإنسان ، وأن هناك رجلاً ماقى على الأرض بجانبهم مكتوف الأيدى والأرجل ، لا يستطيع حراً ، وأنهم بعد الفراغ مما فى أيديهم سيققلونه وزاد على ذلك أنه رجل من البيض الملتحين الذين أخبرنى بخبرهم من قبل ، فتحركت حقدى وأصبحت مغفظةً مخنقةً ، فذهبت إلى الشجرة التى ذهب جمعة إليها ، ونظرت بمركبى فرأيت الأمر كما وصف ، وأن الأسير رجل أوروبى يلبس الثياب .

وكانت هناك شجرة أخرى أقرب إلى أولئك الشياطين من هذه الشجرة فسرت إليها مع جمعة مخفياً فى النباتات الكثيرة الملتفة المتهدلة الأغصان . ولما وصلت إليها علوت شرفاعندها ، فرأيت كل شئ ، ولم يكن بينى وبينهم غير قليل من الأذرع

الفصل الخامس والعشرون

إنقاذ روبنسن كروسو رجلا إسبانيا

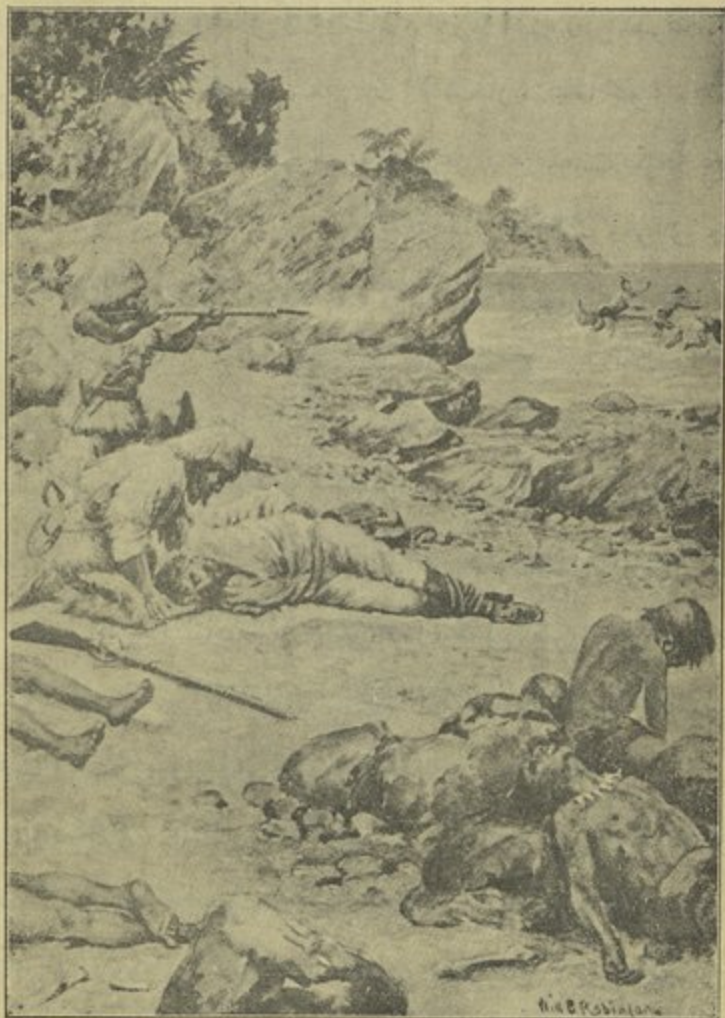
ولقاء جمعة أباه ، وقدم سفينة انجليزية

ولم يكن عندي وقت أضيعه في التفكير أو الانتظار ، لأنني رأيت تسعة عشر رجلا من أولئك السفاكين مجتمعين بعضهم بجانب بعض ، وقد أرسلوا اثنين آخرين ليقنطروا ذلك الأوروبى ، فأنحنيا ليفك أغلال رجله ، ليقطعوه عضوا عضوا ويحملوه إلى النار ، فنظرت إلى جمعة وقلت له اعمل مثل ما أعمل أنا ، فقال إنه مستعد لذلك ، فشددت عليه ألا يهمل فى شيء ما . ثم أقيت على الأرض سلاحى ، وأخذت بيدى بندقة ، وفعل جمعة مثل فعلى ، ثم صوبت فوهتها نحوهم فقلدنى وأحكم التقليد فأمرته أن يطلق النار عليهم ففعل ، وفى اللحظة عينها فعلت مثل فعله .

وقد أحكم جمعة الرمي فقتل من جانبه اثنين وجرح ثلاثة . أما أنا فقتلت من ناحيتى واحدا وجرح اثنين . وما كاد يتم ذلك حتى وقف من لم يصب منهم ، ولكنهم كانوا فى اضطراب وحيرة من أمرهم لم يعلموا أين يذهبون أو ينظرون ؟ لأنهم لم يعرفوا الجهة التى جاءهم منها الهلاك . وكان جمعة بعد أن أطلق بندقته ينظر إلى كما أمرته ليرى ماذا أصنع ؟ فوضعت بندقى وأخذت غيرها ففعل مثلى . ثم سألته أمستعد أنت فأجاب بالإيجاب ، فأمرته أن يطلق عليهم النار ففعل وفعلت مثل فعله ، فسقط اثنان منهم ميتين ، وجرح كثيرون كانوا يصرخون ويعولون ،

وعلى جسامهم دماء جراحهم . وما لبثوا حتى سقط منهم ثلاثة، ولكنهم لم يفارقوا الحياة حينئذ، وبعد الانتهاء من ذلك أمرت جمعة أن يضع بندقته ويأخذ غيرها ، ففعل كما فعلت، ثم أمرته أن يتبعني بسرعة ، ففعل ممتاثا شجاعة وجراحة ، فخرجت من بين الأشجار مندفعاً نحوهم وجمعة في أثرى كأننا جلايمد صخر خطها السيل من عل . ثم صحت صيحة عظيمة ارتجت لها الأرجاء ، وأمرت جمعة ففعل مثل ما فعلت ، فرائى وجمعة أولئك القتلة الذين بعدوا عن مكانهم . وقد ملئت قلوبهم رعباً وهلعاً . وكان همى أن أفك عقال ذلك المسكين الملقى على الشاطئ . أما الرجلان اللذان عهد إليهما بفك عقال الأسير وذبحه ففرا عند سماع أول صوت إلى زورق فركباه ، وفعل ثلاثة آخرون مثل فعلهم فأمرت جمعة أن يذهب إليهم ويقتلهم رمياً بالرصاص ، ففهم ما أمرته به ، وتقدم نحو أربعين خطوة رماح بعدها بطاق فظننت أنه قتلهم جميعاً ، لأنى نظرت فرأيت جمعة سقط في الزورق إثر إطلاقه ، ولكن اثنين منهم وقفوا بعد ذلك سريعاً فتحققوا أنه قتل منهم اثنين ، وجرح ثالثا جروحاً مميتة .

وبينما كان جمعة يطلق النار عليهم أخرجت سكينى وقطعت وفاق الفريسة الضعيفة ، فاما فككت عقال يديها ورجليها أوقفها فاذا هى رجل ، فسألته بلسان برتعالى من أنت ؟ فأجاب باللاتينية « خرسيتيانوس » ، ولما كانت ضعيفاً إلى حد لا يستطيع معه الوقوف ولا الكلام ، أعطيته زجاجة شراب ، وقطعة خبز ، وأشارت إليه أن يشرب فشرب ، وأن يأكل فأكل . ثم سألتها من أى الأمصاير أتيت ؟ فقال من إسبانيا . وكان قد أفاق قليلاً فأخذ يفهمنى بكل إشارة ممكنة عجزه عن شكرى ، وأنه



وبينما كان جمعة يطلق النار عليهم أخرجت سكينى
وقطعت وفاق الفريسة الضعيفة

مدين لى بتخليصى إياه . فأجبتة بلغته الأُسبانية ، وكنت أعرف منها
 نزا يسيرا ، « دعنا من السلام ياسيدى فسنتكلم بعد . أما الآن فيجب
 أن نقاتل فأذا كنت لا تزال قويا نخذ هذه البندقية ، وذلك السيف »
 فأخذهما شاكرا وكأنهما أعادا إليه قوة جديدة . وما كاد يتسامهما حتى
 انقض على القتلة انقضا الصاعقة ، وفي أقل من لحظة قطع اثنين منهم
 إربا إربا . ولقد كان لمفاجأتنا إياهم ، وسماعهم أصوات أسلحتنا بغتة أعظم
 أثر ساعدنا في هزيمتهم . فقد ملأوا رعبا ، وفقدوا رشدهم ، وسقطوا مغشيا
 عليهم ، وعجزوا عن متابعة هربهم عجز أجسامهم عن صد رصاصنا .
 وهذه أيضا كانت حالة الخمسة الذين حاولوا الهرب في الزورق ، فقد أطلق
 عليهم جمعة نارا سقط بها ثلاثة منهم من تأثير جراحهم ، وسقط الاثنان
 الباقيان من الفرع ؟

ولما كنت قد أعطيت الأُسباني بندقى وسيفى ، فأتى وقفت ساكنا
 محتفظا بسبطاتى ، مستعدا لمقابلة الطوارى . ثم ناديت جمعة وأمرته أن
 يذهب إلى الشجرة التى عندها بدأنا القتال ، ويأتينى بالأسلحة التى تركناها
 هناك ، فعاد بها كلمح البصر أو هو أقرب . ثم أعطيته سبطاتى وجعلت
 أحشو باقى الأسلحة وأمرتهما أن يعودا إلى كلما أرادا . وبينما أنا بأشوحشو
 الأسلحة هاجم الأُسباني أحدا المتوحشين ومعه سيف خشبى كبير ، وهو
 نفس السيف الذى كان سيقتل به لولا تدخلى ، وحصل بينهما قتال عنيف
 أبلى فيه الأُسباني بلاء حسنا على مابه من ضعف ، وشج رأس الهندى

مرتين ، غير أن الأخير كان بدينا قويا فهاجم خصمه الذي كان به بقية من الضعف وأمسك به وطرحه أرضا ، وحاول أن يسلبه سيفه الذي قلده إياه ، ولكن الأسباني بمحذقه ومهارته ما كاد يشعر أن السيف سينزع منه حتى استل بندقته ، وأطلقها بسرعة البرق على خصمه ، فأرداه في الحال قبل أن أسرع لنجدته . أما جمعة فقد تتبع الهاربين ويده فأسه ، فأجهز على الثلاثة الذين ذكرت أنهم جرحوا ، وعلى كل من لاقى منهم ، وعاد إلى الأسباني يطلب بندقة فأخذها وطارداثنين من الأعداء ، جرحهما ، ولكن هزاله أقعده عن متابعة سيرة ورائهما ، فتمكن من الفرار إلى الغابة حيث قتل جمعة أحدهما ، وتمكن الآخر بفضل خفته ونشاطه من مواصلة الجرى إلى البحر حيث ألقى بنفسه فيه ، ولحق وهو يسبح بالاثنتين اللذين في الزورق ، وكان هؤلاء الثلاثة ، ومعهم جريح آخر لانعلم إن كان حيا أو ميتا ، هم الذين نجوا من واحد وعشرين رجلا . وهالك حساب الجميع . ثلاثة قتلى من أول طلقة أطلقناها من الشجرة . اثنان قتلا من الطلقة الثانية . اثنان قتاها جمعة في الزورق . اثنان قتاها جمعة من الجرحى الأوائل . واحد قتله جمعة في الغابة . ثلاثة قتلهم الأسباني . أربعة وجدوا قتلى في الغابات إما متأثرين بجراحهم ، أو من إجهاز جمعة عليهم أثناء تجوله . أربعة هربوا في الزورق رابعهم جريح إن لم يكن قد مات .

وقد جد الذين كانوا في الزورق حتى خرجوا عن مرمى البنادق التي كان يطلقها جمعة عليهم ، ومع أنه أطلق النار عليهم مرتين أو ثلاثا فأنى لم أر أنه أصاب أحدا منهم ، وكان يرغب أن نأخذ زوارقهم ونجد في إثرهم لنطاردهم . وحقا كنت أخشى أنهم إذا وصلوا سالمين إلى أهلهم أن يعودوا

إلينا بمائتين أو ثلثمائة زورق، فيبيدوننا بكثرة عددهم، فوافقت على مطاردتهم ووثبت إلى أحد زوارقهم وأمرت جمعة أن يتبعني، ولما كانت دهشتي عظيمة عند ما نزلت إلى الزورق ووجدت رجلاً بائساً مشدود الوثاق معدا للذبح كما كان الأسباني، وكان في حالة رعب يرثى لها، ولا يدرى ما دهاه، ولم يكن يستطيع رفع رأسه إلى جانب الزورق، لأنه مكث مكتوف الرقبة والرجلين زمناً طويلاً حتى كادت تفارقه الحياة. وكان أول ما عملته أن قطعت حبال البردي التي كان مكتوفاً بها، وحاوت إيقافه، ولكنه كان عاجزاً عن الوقوف أو الكلام، وكان يئن أينما محزننا ظاناً أنه لم يحل وثاقه إلا ليذبح؛

ولما أتت جمعة أمرته أن يحادثه فيخبره بخلاصه، ثم أخرجت زجاجتي وأشرت إليه أن يسقيه منها، فكان الماء وبشرى خلاصه كافيين لأحيائه حتى استطاع الجلوس والكلام. وأتى جمعة يتبينه فأخذ يقبله ويعانقه، ويصيح ثم يضحك، ثم يرقص ويقفز، ثم يغني ويصفق، ويلطم خده ورأسه، ثم يعود فيصيح ويغني، ويثب حائراً، واستمر على هذا الحال زمناً لا أستطيع سؤاله عما أصابه. وبعد قليل بدأ يعود إلى صوابه، فأخبرني أن الذي أنقذناه هو والده. وكان المنظر مؤثراً لدرجة لا أستطيع وصف كنهها، ولا معرفة أي شفقة، ولا أي عاطفة بنوية أثرت في نفس هذا الساذج عند رؤية والده وقد نجا من الموت. ولا يمكنني أن أعلل إسرافه في عواطفه بعد ذلك، إذ كان يخرج من الزورق فلا يلبث أن يعود إليه ثانية، ويفعل ذلك مرات عدة. وكما عاد إليه جلس إلى والده، وفتح ذراعيه له،

وضم رأسه إلى صدره مدة لا تقل عن نصف ساعة ، وكأنه بذلك يقدم صدره غذاء له ، ثم يدلك ذراعيه وقدميه ، وقد أصبحت هامدة لا حراك بها ولا إحساس . ولما كنت عالما بحقيقة الأمر أعطيته شيئا من النبيذ كان في زجاجة معي ليدلك به فأفاده كثيرا . وقد عاقبتنا هذه الحادثة عن متابعة الفارين في الزورق ، إذ كانوا قد تواروا عن الأبصار ، ولم نكن نأسف لذلك ، فأن ريحا عاتية شمالية أخذت تهب بعد ذلك بساعتين واستمرت الليل كله تعارض سيرهم فترجع لدى عدم نجاحهم ، واستحالة وصولهم سالمين إلى أرضهم .

أما جمعة . فقد شغل بوالده وقد رأيت من الرحمة ألا أفرق بينهما سريريا ، غير أنني بعد زمن ناديته فحضر وهو يثب ويضحك مسرورا جذلا ، فسألته عما إذا كان قد أعطى والده طعاما أو شيئا يفتات به ، فأجاب سلما . وكان معي كيس فيه خبز فأعطيته رغيفا لوالده وآخر له ، ولكنه أعطاهما معا لأبيه . وكان في جيبى قليل من الزبيب ، فأعطيته شيئا منه لوالده فقدمه له ، ثم خرج من الزورق راكضا كأن به جنة ، وكان أسرع من رأت عيني ، فتوارى عن الأعين في لمح البصر . وعلى الرغم من ندائي له قد استمر يجرى في طريقه لا يلوى على أحد . وبعد ربع ساعة عاد متباطئا يحمل شيئا عرفت عند اقترابه منى أنه جرة من الماء العذب ، ورغيفان أتى بهما من سكتنا ، فأعطاني إياهما ، وذهب بالجرة إلى والده الذى استفاد من شرب الماء أكثر مما استفاد من النبيذ الذى أعطيته إياه . وأما روى والده سألت جمعة إذا كان قد بقى ماء فأجاب بالاثجاب ، فأمرته أن يعطيه

الأسباني البائس الذي كانت حاجته إلى الماء لا تقل عن حاجة والده، وأرسلت إليه رغيفا من الاثنين اللذين أتى بهما جمعة، وكان قد ظهر عليه التعب فاضطجع على بعض الحشائش تحت شجرة، وكانت ساقاه متورمتين من أثر ذلك القيد العنيف ولما رأيته يجلس لتناول الماء والخبز من جمعة ذهبت إليه وأعطيته قليلا من الزبيب، فنظر نظرة في وجهي ثم على لسان ناطق بالشكر والامتنان العظيمين، ولكنه كان ضعيفا لدرجة لا يمكنه معها الوقوف على قدميه، لأنه أجهد نفسه في المعركة. وقد حاول النهوض مرارا فلم يتمكن لأن قدميه كانتا تؤلمان، وورمهما يزيدان، ولهذا أشرت عليه أن يستريح وأمرت جمعة أن يدلك قدميه بالنبيذ كما فعل بوالده ولقد لاحظت أن هذا الولد الباو كان طول وقته بتمهيد والده، ويتردد إليه من حين لآخر، يرى أن كان جالسا مكانه كما تركه أم غير جلسته. وبعد قليل من الزمن نظر فلم ير والده، فقام مسرعا، وأطلق ساقيه للريح بخفته المعهودة حتى وصل إليه، فوجده راقداً يريح ساقيه. ولما عاد إلينا رجوت الأسباني أن يسمح لجمعة بمساعدته على النهوض ليقوده إلى الزورق حيث يحمل إلى مسكننا، وإذ ذاك يمكنني العناية به. ولكن جمعة الضخم القوي حمّله على ظهره حتى الزورق، ووضع به بلطف على جانبه، ثم رفعه إلى داخله حيث وضعه بجانب والده، ثم خرج ليحضر الزورق فجذبه إلى الشاطئ بسرعة جعلته يسبقني - وأنا أمشي - على الرغم من اشتداد الريح. وهكذا أتى بهما سالمين إلى الغرضة وتركهما في الزورق وعاد مسرعاً ليأتي بالزورق الآخر، ولما قابني سألته إلى أين تذهب؟ فقال لأحضر الزورق الآخر، وتركني بسرعة لم أعدها قبل في رجل ولا جواد، حتى أنه عاد بذلك

الزورق الثاني إلى الخليج في الوقت الذي وصلت فيه راجلا، ثم حماني
لأعبره . وذهب فأخرج ضيفينا اللذين كانا عاجزين عن المشي ، وحاد
جمعة في أمره فلم يدرك كيف ينقاهما ، ولسكني عاجلت الأمر ، فأشرت عليه
أن يتركهما على الشاطئ ، ويأتي معي .

وفي الحال صنعنا نقالة يدوية ثم وضعناهما معا فيها ، وحمناهما حتى
وصلنا إلى السور الخارجى لمسكننا . وهناك عانينا صعوبة كبيرة في إدخالهما ،
واستحال علينا حماهما إلى أعلاه وقررنا ألا نهدمه ، ولسكننا بدأنا نشتغل
فلسكننا نعمل ساعتين أعددنا لهما فيها خيمة غطيناها بالقلوع القديمة ،
ووضعنا فوقها أغصان الشجر ، واخترنا لهما مكانا خارج مسكننا بينه وبين
الأيكة^(١) التي غرست أشجارها ، وأعددنا لهما فراشين من أمتعي ،
وأعطيت كل واحد منهما غطاء له . وهكذا صارت جزيرتي مسكونة
وشعرت أني في غنى برعيتي . وكثيرا ما تسليت بفكرة كانت تساورني .
وهي أني كالمملك في هذه الجزيرة التي لا ينازعني فيها منازع ، وأن شعبي
خاضع لسلطاني ، وأنا سيده وحاكمه ، وجميع أفرادهم مدينون لي بحياتهم
لا يبخلون على بها وقت الحاجة . ومن المهم ملاحظة أن عددهم لا يزيد
على ثلاثة يدينون بثلاثة أديان مختلفة ، جمعة مذهبه بروتستانتى ، ووالده
لا يدين بدين ، ومن أكلة البشر ، والأسباني بابوى أو كاثوليكي ، ولسكني
أنجحت لهم حرية الاعتقاد في مملكتي ،

وما كدت أنتهى من إيواء الأسيرين اللذين أنقذتهما حتى بدأت

(١) الأيكة : الشجر الكثير الملتف والجمع أيك

أفكر في طعام لهما ، فأمرت جمعة أن يذبح ماعزة من قطيعي ، وفصلت ربعا من خلفها ، وجزأته قطعا ، ثم أعطيته جمعة ليغليه ببطء ، ثم صنعت لهما صنفا جيدا من لحم ومرق مضافا إليه بعض الأرز والشعير . وقد أجريت عملية الطبخ هذه خارج مسكننا لأنني ما كنت أوقد نارا داخله . ثم حملت الطعام إلى الخيمة ، ووضعت خوانا ، ثم جلسنا نتناول العشاء جميعا . وكنت أبذل جهدي في إنعاشهما وإدخال السرور عليهما وكان جمعة ترجحنا لأن الأسبابني كان يعرف لغة المتوحشين

وبعد العشاء أمرت جمعة أن يأخذ أحد الزوارق ، ويذهب ليحضر بنادقنا وأسلحتنا التي تركناها لضيق الوقت في محل الموقعة ، وفي اليوم التالي أمرته أن يذهب لدفن الموتى التي تركناها في العراء خوفا من تعفنها ، ونهته ألا يترك بقايا الفريسة التي ضحوا بها وكانت كثيرة ، وكنت أنا نفسي لأقوى على هذا العمل ، ولا أستطيع أن أحضر تنفيذه ولقد قام بما كلفه خير قيام ، ولم يترك أثرا لهم إلا أخفاه ، فلم أعد أميز مكانهم إلا بركن الغابة المؤدى إلى المكان ، وحينئذ جلست أنحادث مع عتيقيّ الجديدين ، فبدأت بأن جعلت جمعة يسأل والده عن رأيه في المتوحشين الذين وآوا مدبرين ، وهل يعودون بقوة كبيرة لا يمكننا مقاومتها ؟ فكان رأيه باديء ذي بدء أنهم لن ينجوا من تلك العاصفة التي عصفت بهم بعد فرارهم ، فلا بد أن تفرقهم أو تقذف بهم إلى الجنوب على شواطئ تهللكهم .

ولما سئل عن رأيه إن وصلوا سالمين إلى شاطئهم أجاب بأنه لا يدرى ، ولكنه يرجح أنهم مائتوا رعبا من الطريقة التي هوجوا بها ، ومن صوت

المقذوفات والنار التي رموا بها حتى إنهم ليقولون لأهلهم إن البرق والصواعق قتلت من كان معهم وأن الشخصين^(١) اللذين رأوهما ماهما إلا ملكان أو نفر من الجن نزلا لهلاكهم، وليس من الأنس . قال ذلك وأردفه بما سمع منهم وهم يصيحون ويتناجون باقتهم بما يؤيد رأيه ، لأنه يستحيل عليهم أن يفهموا أن في قدرة الإنسان أن يرسل الصواعق والرعد فيصيب بهما من يشاء من بعد ، وبغير أن يرفع يديه كما حصل وشاهدوا . ولقد صحت أخبار هذا الشيخ فإن المتوحشين لم يجرؤوا على دخول هذه الجزيرة مرة أخرى . ويظهر أن رواية الأربعة الذين فروا في الزورق وترجعت نجاتهم ألفت في قلوبهم الرعب إلى حد جعلهم يعتقدون أن من يحاول الدخول إلى هذه الجزيرة المسحورة فسوف تهاك نار سماوية . ومع ذلك أخذت حذرى وتأهبت بأسلحتي وجيشي الذي كان عدده أربعة ، ولكنه يقوى على مقاتلة مائة منهم في الميدان والانتصار عليهم .

وبعد زمن قليل ذهب خوفنا وأمننا مهاجمة المتوحشين . وبدأت تساورني من جديد فكرة السياحة إلى القارة . وقد أكد لي والد جمعة أنني سأجد راحة تامة هناك بفضل ما سيقدمه من الخدمة اللازمة ، ولكنني أوقفت تنفيذ فكرتي على أثر حديث دار بيني وبين الأسباني ، فهمت منه أن هناك ستة عشر رجلا من الأسبانيين والبرتغاليين قد قذفهم الأمواج إلى شاطئ المتوحشين ، فعاشوا معهم في طمأنينة ، ولو أنهم كانوا مكرهين ، لأن فقرهم إلى المساعدة حملهم على المعيشة بينهم . فسألته

أن يقص على تفاصيل رحلتهم فأخذ يقول : إنهم خرجوا على سفينة إسبانية من « ريودي لابلاتا » موطن وجههم شطر « هاوانا » مزودين بتعاليم أهمها أن يستبدلوا بجمولتهم التي كان معظمها جلوداً وفضة أى بضائع أوربية يجدونها . وإنه كان معهم خمسة من البحارة البرتغاليين التقطوهم من غرق سفينة أخرى . وإن خمسة من رجالهم غرقوا في حادثة فقد سفينتهم الأولى ، وإن هؤلاء نجوا بأعجوبة من مخاطر عدة ، ووصلوا في حالة يرثى لها إلى شاطئ أكلة الأنسان حيث كان من المنتظر أن يلتهموا في أى لحظة ، وأخبرني أن معهم بعض أسلحة لا فائدة منها فإنه كان يعوزهم البارود والرصاص اللذان أتلفهما الماء ولم يبق معهم منهما إلا النزر اليسير ، وقد أنوا على آخره عند نزولهم إلى الشاطئ في صيد ما يقتانون به

وقد سألتهم عما أعدوه لما عساه أن يصيبهم ، وهل فكروا في طريقة خلاصهم إن نزل بهم مكروه ؟ فأجاب بأنهم تباحثوا في الأمر كثيراً ، ولكنهم كانوا في حاجة إلى سفينة ، وليس لديهم الآلات اللازمة لبنائها ، أو الاستعداد بأي نوع ، فكانت مجالسهم دائماً تنتهي بالفشل والحزن . فسألتهم هل يظن أنهم يقبلون اقتراحاً ينجيهم ؟ وهل ينفذونه إذا جاءوا هنا ؟ ثم قلت له بصراحة إنني أخشى خيانتهم ، وسوء معاملتهم لي إذا أنا وضعت نفسي تحت تصرفهم ، فإن الشكر على النعمة لم يكن يوماً خالقاً طبع عليه الأنسان . وكثيراً ما يكفر بالنعمة إذا رأى منفعة ينتظرها . وإنه ليسق على أن أكون سبباً في خلاصهم ، وأراني بعد ذلك أسيراً في

إسبانيا الجديدة حيث يُضجى بلا تردد بأى إنجائزى توقعه الحاجة ، أو
سوء الطالع تحت سلطانهم . وإنى أفضل أن أقع فريسة للمتوحشين
يأكلونى حيا على أن أقع فى مخالب القسيسين والرهبان القاسية قلوبهم ،
وأعرض لحاكمهم الدينية . وإنى لأرجو إذا جاءوا جميعا هنا أن تتمكن
بكثرة الأيدى العاملة من بناء سفينة كبيرة تحملنا وإياهم جنوبا إلى
البرازيل أو شمالا إلى الجزائر أو الشواطئ الأسبانية ، وليكنى كنت
أخشى إذا ملكتهم سلاحا أن يكافئونى على الجليل بالأساءة ، وأكون
كالمتجبر من الرضاء بالنار .

فأجاب بصراحة تامة وسهولة فى التعبير : إن حالهم بلغ من البؤس
مبلغا عظيما ، وإنهم شاعرون بذلك ، وهم يمتنون الأساءة إلى أى شخص
يشارك فى خلاصهم جسد المقت . ثم عرض على أن يذهب هو والمعجوز
والد جمعة إليهم ليتباحث معهم فى الأمر ، ثم يعود إلى الجواب بعد أن
يأخذ عليهم الموائيق المؤكدة أن يكونوا خاضعين لى خضوعا مطلقا
باعتبارى قائدهم ورئيسهم ، ويستحلفهم بالأنجيل وكل مقدس لديهم أن
يكونوا صادقين ، وألا يعارضوا فى الذهاب معى إلى أية مملكة مسيحية
أختارها لهم ، وأن يصدقوا بما أمرهم به حتى أنزلهم إلى أى أرض أشاء .
ثم أخبرنى بأنه سيأتى بعقد موقع عليه منهم بهذه الشروط ثم قال : إنه
مستعد أن يخلف أنه لا يفارقنى مادام حيا إلا بأذن منى ، وأن يبذل دمه
إلى آخر قطرة فى الدفاع عنى إذا ظهر من مواطنيه بادرة تدل على نقض
عهدهم ، ولن ينقضوه فأنهم قوم متمدينون ذوو أمانة كبيرة ، وفى ضيق
شديد لا يمكن تصوره ، وليس لديهم أساحة ، ولا ثياب ، ولا طعام ، وهم

تحت رحمة المتوحشين وتصرفهم ، يكاد يقتلهم اليأس من العودة إلى وطنهم . ثم أكد لي أنى إذا تمكنت من تخليصهم فسوف يعيشون بحاجتي حتى يدركهم الموت . وبعد هذه التأكيدات عزمت على أن أخلصهم إن قدرت وذلك بأن أرسل الأسباني والعجوز المتوحش إليهم . ولكن بعد أن جهزناهما بجهازهما ثننا الأسباني عن عز منا ، واختط خطة مملوءة بالخزم والأخلاص ، فلم أر بداً من الأذعان وتأجيل خلاص رفاقه نصف عام على الأقل وهاك البيان :

لقد مكث الأسباني نحو شهر أطلعت فيه على ما أعددت لنفسى من قوت بتوفيق الله ، ورأى مقدار ما خزنت من القمح والأرز اللذين كانا أكثر مما احتاج لنفسى ، ولكنهما أصبحا لا يكفيان أسرتى التى بلغ عددها أربعة إلا بالتقدير . فإذا أضيف إلينا أربعة عشر رجلاً من مواطنيه الذين لا يزالون أحياء على حسب روايته ، فإن ما نذخر يصبح عديم الفائدة وخصوصاً إذا لوحظ أننا سنحتاج إلى شئ كثير لثموين سفينتنا التى سنبنينا لرحلتنا المقبلة إلى أية مستعمرة مسيحية فى أمريكا .

ولذلك رأى أن أسمح له مع الاثنين الآخرين أن يفلحوا ويزرعوا من الأرض مقدار ما تسمح به الحبوب الزائدة عن حاجتنا ، ثم ننتظر حتى زمن الحصاد المقبل ليكون عندنا من الغلة ما يكفى مواطنيه إذا قدر لهم الحسى ، وإلا فإن الحالة ربما حرضتهم على الخلف والتمرد ، ظناً منهم أنهم لم ينجوا من شدة إلا ليقعوا فى أخرى . فإن بنى إسرائيل قد حمدوا الله وأثنوا عليه بعد أن نجاهم من فرعون وملئه . ولكنهم جحدوا وعصوا إلههم عند ما أعوزتهم المؤونة فى الصحراء . وهكذا كانت نصيحته

قيمة ، وتحذيره ناضجا ، حتى لقد أعجبت من أمانته ، وسرني اقتراحه ،
وشرعنا نغزق الأرض بقدر ما تسمح به الآلات الخشبية التي عندنا . وبعد
شهر ونحن مكبون على عملنا حان وقت الزرع ، وقد أعدنا من الأرض ،
ما يكفي لبذر اثنين وعشرين مُدًّا من الشعير وست عشرة جرة من الأرز .
وهذا القدر هو ما يمكننا الاستغناء عنه ، وقد قترنا على أنفسنا في تقدير
مؤونة ستة الأشهر المنتظرة حتى يأتي زمن الحصاد ، وكنا ننتظر ألا يمكث
الزرع ستة أشهر كاملة في مثل هذه الأرض الحارة .

والآن وقد صرنا جماعة ، وصار عددنا كافيا لرد غارة المتوحشين
إلا إذا كانوا كثيرين ، فأنا ابتدأنا فننتقل في الجزيرة من مكان إلى آخر
كلما سنحت فرصة . ولما كان خلاصنا الشغل الشاغل لنا كان حتما مقضيا
على خاصة أن أطيل البحث والتفكير في الوسائل المؤدية إليه ، ولذلك
كلفنا جمعة ووالده قطع عدة أشجار عينتها لهما رأيتها صالحة للغرض الذي
نسعى إليه ، وجعلت الأسباب التي أطلعته على مشروعى يشرف عليهما
ويرشدهما ، وكنت أشجعهم بذكر أعمالي وكيف تمكنت وحدي من
تقطيع جذع شجرة كبيرة إلى ألواح ، ولم بذلت من الجهد والعناء في
هذا السبيل حتى أنما قطع اثني عشر لوحا من خشب البلوط ، يبلغ طول
كل واحد منها خمسا وثلاثين قدما وعرضه قدمين ، وكانت الكثافة
تراوح بين قيراطين وأربعة . وهذا عمل شاق يمكن كل إنسان أن
يتصوره . وفي الوقت نفسه كنت مجدا في تكثير عدد المعز فافقتسما
العمل بالتناوب مياومة بيني وبين الأسباني ، وكان جمعة يصحب كلا منا
في نوبته وبهذه الطريقة أضفنا إلى ما عندنا نحو عشرين من صغار المعز ،

وكنّا كلما اصطدنا ماعزة كبيرة استبقينا صغارها نربها . ولما كان موسم العنب عظيم الفائدة لنا ، وقد حان وقته ، أمرت بكمية وافرة منه فعلقت في الشمس ، وأعتقد أنه لو كان هذا القدر في « أليكات » حيث يجفف الزبيب في الشمس لتمسكنا أن نملاً ستين أو ثمانين صندوقاً من الزبيب الذي كان يكون مع الخبز الجزء الأكبر من غذائنا . وإني أؤكد للقارئ أن حياتنا كانت حياة طيبة فإن طعامنا كان كثير التغذية

والآن قد أتى زمن الحصاد ، وهياًنا محصولنا الذي لم يأت كما كنا ننتظر . ولكنه مع ذلك كان كافياً لسد حاجتنا ، وقد أخذنا من الاثنين والعشرين مُدّاً من الشعير مائتين وعشرين ، وبقدر هذه النسبة من محصول الأرض . وبذلك أصبح ما يخزن كافياً للعام المقبل بفرض أن الستة عشر أندلسياً معنا . ولو أننا سافروا للسكنى لتموين سفينتنا حتى نصل إلى أى مكان من القارة الأمريكية . وبعد أن فرغنا من تجهيز حاصلاتنا وإدخالها إلى مسكننا شرعنا في صنع سلات لفرق الحبوب فيها . ولقد أظهر الأسباني مهارة فائقة في هذه الصناعة ، وكثيراً ما لمني على عدم صنعى أشياء من هذا القبيل لأتفّع بها ، ولسكنى ما كنت أرانى مضطراً إليها . والآن وقد أعدنا الميرة للضيوف الذين ننتظرهم فأتى قد أذنت للأسباني أن يعبر البحر لينظر ماذا يمكنه أن يعمل نحو هؤلاء الذين تركهم ، وأعطيته عهداً كتابياً ألا يأتى بأى رجل يرفض المين وهو القسم ألا يؤذى ، ولا يقاتل الرجل الصالح الشفيق الذى تفضل فأرسل خلاصهم . وعليهم أن يعاونوه ويقفوا بجانبه ضد أى خطر ، وأن يكونوا خاضعين لأوامره أنى ذهبوا . هذا عهدهم الذى يجب أن يكتبوه وبوقعوه ، ولسكن كيف يتأتى ذلك

مع علمى بأن ليس لديهم قلم ولا مداد . وهذه مسألة لم نفكر فيها .
وبهذه التعليمات سافر الأسباني والعجوز والد جمعة فى زورق من
الزوارق التى أتيا فيها أسيرين ليأكلهما المتوحشون . وأعطيت كلا منهما
بندقة ، ونحو ثمانى طلقات من بارود ورصاص ، وشددت عليهما أن يكونا
مقتصدين فلا يستعملان سلاحهما إلا عند الحاجة الملزمة . وهذه مهمة سارة ،
لأنها كانت أول خطوة من جانبى نحو خلاصى بعد أن مكثت هنا سبعة
وعشرين سنة . وقد أعطيتهما قوتا من الخبز والزبيب يكفيهما أياما عدة .
ويكفى مواطنيهما ثمانية أيام ، ثم استودعتهما الله وانفقنا عند عودتهم
سالمين على إشارة يرفعونها لنعرفهم بها قبل أن يدنوا من الشاطئ . وهكذا
ذهبا والرياح هادئة فى يوم من أيام أكتوبر ، والقمر تام على حسب
إحصائى الذى لم يكن دقيقا بعد أن ضل حسابى ، فلم أعد قادرا على
ضبطه ، ولا على معرفة عدد السنين . ولسكنى تبينت فيما بعد أنى أحصيت
عددتها تماما .

انتظرت عودتهم ثمانية أيام ثم فوجئت بحادثة غريبة ربما لم يسمع
بمثالها ، وذلك أنى كنت غارقا فى نومى فى صبيحة يوم داخل سكنى وإذا
بجمعة يهرول نحوى صارخا « لقد أتوا ياسيدى لقد أتوا » ففزعت ولبست
ثيابى ثم غادرت مكافى مسرعا غير حاسب لأى خطر حسابا . ولذلك لم
أخذ من أسلحتى شيئا على غير عادتى ، واخترقت الأيكة التى أنشأتها ،
وكانت قد صارت غابة كثيفة ، ولم أكأ أنظر إلى البحر حتى علتنى دهشة
لرؤية سفينة على بعد فرسخ ونصف ، متجهة نحو الشاطئ ناشرة شراعها
والرياح تدفعها باهطف إليه ، ولاحظت أنها آتية من الجهة الجنوبية للجزيرة ،

وعندئذ ناديت جمعة ، وأمرته أن يكون بجانبى فإن هذه السفينة لا تحمل
إخواننا الذين ننتظرهم ، وربما كان من فيها أعداء .

وبعد ذلك ذهبت لآتى برقبى ، لأستمعين به على تبينهم ، ثم تسلمت
الجميل مستعينا بسامى المتنقل ، وكانت هذه عادتى إذا أردت مراقبة شىء
من غير أن أرى ، ولم تكد قدماى تطآن قمة الجبل حتى رأيت بوضوح
سفينة راسية على بعد فرسخين ونصف من مكائى فى الجهة الجنوبية الشرقية ،
ولسكنها تبعد فرسخا ونصفا عن الشاطئ ، وتبينتها فأذاهى سفينة إنجليزية .

ولقد كانت دهشتى كبيرة لدرجة لا أقوى على وصفها ، ولم يكن سرورى
برؤية سفينة ركبها من أبناء جنسى وإخوانى أقل من دهشتى ، ولكن
تشككالم أعرف سببه بدأ يساورنى ويدفعنى إلى الحذر ، وبدأت أفكر
فما عساه أن يدفع سفينة إنجليزية إلى هذه البقعة التى لا تقع فى طريق
أى تجارة انجليزية . ولم يكن لى عهد بزوبعة دفعتها يائسة إلى هذا الموقف
فأن صح أن من فيها إنجليز حقيقيون فما خير أتوا . وخير لى أن أمكث
حيث أنا من أن أقع فى أبدى اللصوص والقتلة . ولا يحتقرن امرؤ
مات وجس نفسه خيفة منه ، ولو أنه لا يرى الخطر محتملا وقوعه ، فإن هذه
الحواس فىنا لا ينكرها من أعطى حظا من قوة الملاحظة . وهى بلا شك
مرآة لعالم غير منظور لنا ، وصور لأرواح تحاول أن تنذرنا بالخطر . فلماذا
لا نفترض أنها إلهاء مسخر لفائدتنا ، ولا نبهت فى كتبها سواء لدينا أ كانت
وسوسة نفسية أم وحيا إلهيا . والحالة التى أنا فيها أكدت لى صحة هذه
النظرية ، فلولا أنى كنت حذرا لكنت من الهالكين ولمثل بى كما سترى .
ولم أكد آخذ مجلسى هذا حتى رأيت السفينة تقترب من الشاطئ .



وتبينتها فإذا هي سفينة إنجليزية

وكان من فيها كانوا يبحثون عن فرصة فيه يدخلون فيها، ومع ذلك لم يتمكنوا من رؤية الفرصة التي دخلت منها برمي، بل رسوا على الشاطئ على بعد ميل من مكاني. وقد اغتبطت بهذا الأمر لأنهم لو نزلوا إلى البر أمام سكني لطر دوني منه، ونهبوا مائتي وعند نزولهم إلى البر اقتنعت بأنهم كلهم أو أغلبهم من الإنجليز، وظننت اثنين منهم هولانديين، وإن تبين لي غير ذلك بعد. وكان عددهم أحد عشر رجلاً، ثلاثة منهم غير مسلحين، ويغلب على ظني أنهم مكتوفون. وبعد أن خرج إلى البر أربعة أو خمسة منهم، أخذوا هؤلاء الثلاثة إلى الشاطئ أسرى، ورأيت أحدهم يتضرع إليهم بكل أنواع التضرع والمسكنة. والآخرين يرفعان أيديهما إلى السماء كأنهما يتضرعان. والحق أني كنت متحيراً من هذا المنظر، ولم أدر ما تأويله؛ وهذا صاحب جمعة بأن الإنجليز يأكلون البشر كما يفعل المتوحشون، ولكني أجبته بأن لن يكون شيء من ذلك. وربما كان قصدكم قتل هؤلاء لأنهم كلهم. وكانت ترتعد فرائصي طول الوقت من هول ما أرى ولا أفهم، منتظراً من وقت لآخر أن أرى هؤلاء الثلاثة قتلى.

واقصد رأيت مرة سيفاً يرفع على أحد البائسين الثلاثة، وانتظرت أن أرى رأسه يهوى في أي لحظة. وكان ذلك منظرًا أجد منه دمي في عروقي، وكثيراً تمنيت لو أن الأسباني والعجوز كانا بجانبني، وأني كنت محتبئاً قريباً منهم حتى أتمكن من خلاص هؤلاء البائسين، لأنني رأيتهم لا يحملون معهم سلاحاً، ولكني رأيتهم بعد إهانة الثلاثة المساكين ينتشرون في الأرض كأنهم يرتادونها. ورأيت الثلاثة أحراراً في أن يذهبوا

حيث شاءوا، ولكنهم جلسوا مفكرين تظهر عليهم أمارات الفشل .
ولقد ذكرني حالهم باليوم الذي نزلت فيه إلى هذه الجزيرة وكيف جلست
أنظر إلى ما حولي ، وكيف أسامت نفسي إلى الأقدار ، تحيط بي المخاوف
والأخطار ، وكيف لجأت إلى شجرة أسكن إليها طول الليل خوفا من
الوحوش أن تلتهمني . وكما أتى كنت أجهل في تلك الليلة أن الأقدار
ستسخر الرياح ومد البحر في دفع السفينة بالقرب من الشاطئ . وتسوق
إلى رزقي وما أقتات به حتى الآن ، كان هؤلاء البائسون يجهلون أن خلاصهم
مؤكد ، وأنه أقرب إليهم من جبل الوريد ، وأنهم نجوا بالفعل على الرغم
من اعتقادهم أنهم ضاعوا ، وتمكن اليأس من قلوبهم . فما أقصر نظر
الإنسان في هذه الدنيا ، وما أحرأه أن يعتمد على الله الذي خلقه وهو
معه أينما كان ، والذي يحمي في السراء والضراء . وينقذنا بعد أن نرى
الهلاك محيطا بنا .

الفصل السادس والعشرون

إظهار روبنسن كروسو نفسه للرئيس الأنجائيزي

ومساعدته إياه على بحارته العصاة

هبط هؤلاء القوم إلى الجزيرة والمد في منتهى ارتفاعه . وبينما هم
يتحدثون مع أسراهم ، ويتجولون في الجزيرة يرتادونها ، انخفض الماء
جزرا ، واستوى زورقهم على الأرض ، وكانوا قد تركوا فيه اثنين منهم
فشربا كما علمت ذلك بعد ، حتى لعبت بنت الحان بلبهما فناما ، ثم أفاق
أحدهما قبل الآخر ، ورأى أن الماء قد غاض فانحسر عن الزروق ، واستحال
عليه وحده أن يدفعه إليه ، فصاح مستغيثا برفاقه الذين كانوا لا يزالون

يتجولون في الجزيرة ، فأتوا إليه مسرعين ، ولسكن بعد أن قضى الأمر ،
وأصبح متعذرا عليهم أن يخرجوا الزورق من الوحل والرمال . وكانوا ككل
البحارة لا يتدبرون عواقب الأمور فتركوه كما هو ، وعادوا إلى الجزيرة
يتجولون . ولقد سمعت أحدهم ينادى رفاقه أن يتركوه وشأنه مؤقتا حتى
يأتى المد المقبل فيعموم . ولقد نمت لغته على جنسهم وبلادهم ، فعلمت أنهم
من الأنجليز .

وبقيت طول هذه المدة ملازما سكنى لأغادره إلا إلى حيث أترصدهم
فوق الجبل ، وكان منيما . وكنت أعلم أن المد لن يأتى إلا بعد عشر ساعات ،
وعندها يخيم الظلام ، ويمكننى أن أراقب حركاتهم ، وأسمع حديثهم من غير
كبير تحفظ . وشرعت أسلح نفسي استعدادا لمر الكمقيل ، وأنا أعرف أن
خصوصى هذه المرة أشد بأسا من سبقتهم ، ويجب أن أكون على حذر
منهم . وفي الوقت نفسه ساجت نجمة ، وكان قد صار ماهرا في الرماية ،
فأعطيته ثلاث بندقات ، وأخذت اثنتين . وكان منظرى رهيبا في بذلى
وقبعتى اللتين أخذتهما من جلد المعز وقد تدلى بجانبى سيف عار عن الغمد ،
وفي حزامى غدارتان ^(١) ، وعلى كل كتف سبطانة . وكنت صممت على
ألا أعمل شيئا إلا إذا خيم الظلام ، ولكنى عند الساعة الثانية بعد الزوال
وقت اشتداد الظهيرة رأيتهما جميعا نوغلوا في الغابة ، وغلبهم النوم ، غير
أن الثلاثة البائسين لم يناموا لشدة ذعرهم . وكانوا جالسين تظلمهم
شجرة كبيرة تبعد عن مكاني ربع ميل ، وهم بعيدون عن رقابة

الأشقياء ، فعزمت على التقدم نحوهم ، والظهور لهم ، لعلى أعرف ماخطبهم .
 وفعلا مشيت ومن خلفي جمعة بشكلك المزعج المساح ، وأنا أمامه كأني
 شيطان حتى دنوت منهم . وقبل أن يراني أحد سألتهم بلسان أندلسي من
 أنتم أيها الرجال ؟ ولكنهم لم يجيبوا ، وذعروا عند سماع صوتي ورؤيتي على
 هذه الصورة المزعجة ، وتوقعت أنهم سيفرون مني فبادرتهم بالإنكليزية
 « أيها الرجال لا يدهشكنم وجودي هنا ، فقد يأتي الله بالفرج بعد الضيق ،
 وقد تظفرون بصديق وأنتم تنتظرون عدواً » فرفع أحدهم قبعته ليحييني
 وقال . « إن حالنا لم تعد في طاقة البشر . فأذا قيض لنا صديق فلا بد أن
 ينزل من السماء » فقلت « هوّن عليك يا هذا ، فأن كل مساعدة تنزل من
 السماء ، فإلى أراك قد استولى عليك اليأس ، فهل تسمح لأجنبي عنك
 أن يمد يد المساعدة لكم ؟ لقد رأيتم حين نزلتم إلى البر ، ورأيتمك ترفع
 يدك ضارعا إلى الوحوش الذين معكم ، ورأيتم أحدهم يرفع سيفه نحوك
 ليقتلك » فقال بصوت تخنقه العبرات وهو مضطرب حائر : « من عساك
 تكون ؟ وأي معبود أنت ؟ حاشا لله ما أنت بشرأ . إن أنت إلا ملك
 كريم » فقلت : « دع عنك خوفك واطمئن إلى ، فأن الله سبحانه لو أرسل
 إليك ملكا لألبسه حلة خيرا من هذه التي ترى ، ولأسلحه بسلاح خير من
 هذا . وما أنا إلا رجل منلك إنجليزي الجنس ، وأميل إلى مساعدتك .
 وإنني كما ترى لا أملك غير خادم واحد ، وعندنا أسلحة وذخيرة فخذونا
 بكل ما أوتيتم من جلاء وصراحة عن قصتكم ، وكيف نقدر على مساعدتكم ؟
 واقصص أنت على قصتك ولا تخف »
 فقال « قصتي طويلة يضيق وقتنا عنها ، وأعداؤنا على مقربة منا ،

ولكنى أخلصها لك فأقول : إني كنت ربان هذه السفينة وقد شق بحارتها عصا الطاعة على ، وكان في وسعهم قتلى ، ولكنهم فضّلوا أن يتركونى فى هذه الجزيرة المقفرة مع رجلين ، أحدهما وكيلى ، والثانى أحد المسافرين ، حيث ننتظر هلاكنا فى مكان ليس فيه سكان ، ولا نعرف من أمره شيئاً » فسألته « أين هؤلاء الوحوش أعداؤك ؟ » فقال « هم رقود هناك » وأشار إلى أشجار كثيفة ، وأظهر مخاوفه من أن يكونوا رأونا ، أو سمعوا حديثنا فيقتلوننا ، فسألته أ يحملون أسلحة نارية ؟ فقال « إن لديهم ثلاث بنادق تركوها فى السفينة » فصحت فرحاً « دع كل شئ لى فإن من السهل قتالهم جميعاً ، وهم نيام ، ولكن هل يحسن بنا أسرهم ؟ » فاعترض بأن بينهم اثنين شريرين لا يؤمن جانبهما ولا يستحقان رحمة ، فإذا أخلصنا منهما فإن الباقين يعودون إلى عملهم ، فسألته أن يشير إليهما ، ولكنه اعتذر بأنه لا يمكنه أن يميزهما لبعدهما المسافة ، وأظهر استعداده لأطاعة أمرى فى كل ما أمره به . وفضلت أن أبتعد قليلاً عن نظريهم وسمعيهم حتى لا نوقظهم . وما بعدنا حتى وارتنا الأشجار فقلت له : هل تعطينى عهداً بشيئين اثنين إذا عملت على خلاصك ؟ فأجاب قبل أن يعرف شرطى إنه هو والسفينة إن قدر لها النجاة تحت أمرى وقيادتى ، وإذا لم تنج السفينة فإنه سيحيى ويموت من أجلي وبجانبى فى أى بقعة من بقاع الأرض أختارها له . ووافق على قوله هذا زميلاه ، فقلت « حسناً وإن ما أشرطه عليكم لا يزيد على شيئين : أولهما أنكم مادتم فى هذه الجزيرة معى فليس لكم سلطان فيها ، وإذا سلحتكم بسلاح فى الحق أن أسترده منكم فى أى وقت ، وألا تسيئوا لى ولا لى متاعى ولى عليكم الطاعة . وثانيهما أن تحملونى أنا وزميلي إلى

إنجلترا بغير مقابل إذا نجت السفينة » فأعطاني الربان كل التأكيدات على ذلك وقال إن الشرف والمروءة يقضيان على الإنسان أن يخضع لهذه الطلبات العادلة ، وفوق ذلك فإنه يكون مدينا لى بحياته ويعان ذلك على رؤوس الأشهاد فى كل فرصة مادام حيا . فقلت ذلك خير لكم ، وهما كم الآن ثلاث سبطانات ، وباروداً ورصاصا

وسألته ماذا ترى أن نصنع ؟ فشكرنى مقرأ لى بالجميل ، ثم طلب أن يكون مقوداً برأى ، وكنت أرى من الصعب أن نبدأ بأى عمل . وظهر لى أن أحسن طريق يجب أن نساكه هو إطلاق النار عليهم على حين غفلة منهم ، فإذا نجا أحد منهم بعد أول طاق ، وأظهر استعدادا للخضوع ، فسنتظر فى استبقائه . وهكذا نترك لله وحده أن يحكم بيننا وبينهم ، فقال إنه يكره قتالهم ويعقته ولكن بينهم اثنين لا يرجى لهما إصلاح ، ولا تسهل قيادتهما ، وهما سبب العصيان والثورة فى السفينة ، فإذا نجيا فإن حالنا ستسوء ، لأنهم سيذهبان إلى السفينة ليستنجدا بمن فيها ثم يعود الجميع إلينا فيبيدونا ، فقلت له إن الحاجة تبرر رأى ، وليس لدينا أية وسيلة أخرى لنجائنا . ولكنى رأيتـه يحذر إراقة الدماء . فتركته ومن معه يتصرف فى الأمر على حسب الأحوال

وبينا كنا نتناقش سمعنا بعضهم يستيقظ من نومه ، وسرعان ما رأينا اثنين منهم واقفين ، فسألته أ كلاهما أو أحدهما من الرجلين اللذين كانا سبب العصيان فى السفينة ، فأجاب سلبا ، فقلت له : دعهما يذهبان فإنه يظهر أن العناية الإلهية ما يقظتهما إلا لينجوا ، ولكنـه إذا أفلت أحد الباقيـن من يديكم فعليـكم وذره ، فأخذ السبطانة التى أعطيتها

إياها بيده وعلق في منطقته غدارة وسار يتقدمه زميلاه ويبد كل
منهما قطعة من السلاح . وقد أثار كلامي فيهم الحمية التي كنت أنشدها
وتقدموا حتى أثار تقدمهم حذر أحد البحارة فأذا هو يراهم مقبائين نحوه
فنادى إخوانه ، واسكن الوقت كان قد فات فإنه لم يكده ينطق حتى
بادره رفيقا الربان بأطلاق الرصاص إطلاقا لم يشترك فيه الربان الذي
رأى أن يحتفظ مؤقتا بسلاحه . واتقد أحكمت الرماية فأصابا اثنين ،
أحدهما قتل والآخر جرح جرحا بليغا حاول معه أن يقف على قدميه ،
وينادى النجدة النجدة ، واسكن الربان دنا منه وقال له : دع عنك طلب
النجدة وادع الله أن يغفر لك ذنوبك . ثم صفعه بمؤخر السبطانة فخر
صريعا . وبقي من عصابتهم ثلاثة أحدهم جريح . فلما رأوني أدنو منهم ،
ورأوا الخطر محيطا بهم استرحمونا فقال الربان . لن أرحمكم حتى تؤتوني
موثقا من الله ألا تعودوا لمثل خيانتكم السابقة وأن تخلصوا لي في إنقاذ
السفينة والسفر بها إلى « جهايك » حيث أتينا . فلما آتوه موثقهم كاديركن
إليهم ويستحييهم ، لولا أن أمرته بأن يشد وثاقهم ماداموا على ظهر
هذه الجزيرة .

وبينما هو مكب على وثاقهم أرسلت جمعة ، ووكيل الربان إلى الزورق
للتأكد من ألا يصيبه خطر ، ثم أمرتهما أن يأتيا بالشرع والمجاديف .
وبعد قليل أتى ثلاثة من البحارة كانوا يتجولون ، ولما رأوا أن الربان
الذي تركوه أسيرا غدا طليقا ظافرا ساموا أنفسهم فشد وثاقهم وتم لنا
النصر عليهم ، ولم يبق إلا أن يعرف كلانا أمر صاحبه ، فبدأت أقص
على الربان قصتي التي أصغى إليها بكل جوارحه إصغاء يقرب من الدهشة

وخصوصا عندما ذكرت له الطريقة التي بها حصلت على أفواتي وذخيرتي
ولما كانت روايتي من أولها الى آخرها مجموعة غرائب فإنه تأثر بسماعها
تأثرا شديدا . ولما تذكر موقفه هذا . وأن الأقدار حفظتني من كل
مكروه ، كأنها كانت ترمي بذلك إلى خلاصه غلبته دموعه ، وعجز عن
الكلام .

ولما انتهينا من الحديث قدته ورقيقه إلى سكني ، ودخلنا من حيث
خرجت من أعلاه ، وهناك أطعمتهم مما ادخرت ، وأريتهم الوسائل التي
أعدتها خلاصى مدة إقامتى الطويلة هنا ، فأدهشهم كل مارأوا أو سمعوا
وكانت دهشتهم عظيمة من حصنى الذى خبأته بما غرست منذ عشرين
سنة من الأشجار التي كان نموها أعظم وأكثر من نمو مثيلاتها في إنجلترا ،
حتى أصبحت غابة صغيرة كثيفة يصعب اختراقها من أية جهة إلا من
الجانب الذى شققت لى فيه طريقا معوجا ، فكان هذا المكان سكنى
وحصنى . ولى عرش فى مملكتى هذه ككل الأمراء ألجأ إليه أحيانا ، وسوف
أرى الربان إياه فيما بعد . وطابت منه أن تقصر بحثنا على طريقة تنقذ
بها السفينة . فوافق على ذلك . ولكنه لا يدري كيف يعمل على خلاصها
وفيهما ستة وعشرون رجلا اشتركوا فى مؤامرة خبيثة جعلت دماءهم أمام
القانون مباحة ، ولذلك سيقاومون مقاومة اليأس المستميت . لعلمهم
أنهم إذا ساءلوا فسيشنعون فى أول بلد أو مستعمرة إنجليزية تصل إليها .
وليس من رأى إذن أن نهاجهم ونحن بهذه القلة .

فكرت طويلا فيما قال . ووصلت إلى تصويب رأيه . وأنه لا بد

لنا من حل سريع نفاجئهم به ، وهم على ظهر السفينة لنتمكن من منعهم من النزول إلى البر وقتلنا . ولقد خطر لي أن بحارة السفينة سيفادرونها للبحث عن رفاقهم الذين أبطلوا في العودة إليهم ، ومعرفة ما حل بهم وبزورقهم . وربما أتوا مسلحين وتفوقوا علينا . ولقد نالت فكرتي هذه موافقة الربان ، وكان أول عمل يجب أن نبداً به تعطيل الزورق الراسي على الشاطئ ، وتجريده من كل ما فيه حتى لا يتمكنوا من أخذه ، فيصبح غير صالح الاستعمال ، فذهبنا إلى الشاطئ وأخذنا ما في الزورق من أسلحة وغيرها . وكان فيه زجاجتان من الشراب ، وعدد غير قليل من الكعك الجاف ، وقرن من البارود ، وقطعة كبيرة من السكر في كيس ، وزنها ستة أرطال . وقد قابلت هذه الأشياء بسرور عظيم ، خصوصاً السكر والشراب ، لأن ما كان عندي منهما نفذ من زمن بعيد .

وبعد أن نقلنا إلى الشاطئ كل ما وجدنا من مجاديف وأدغال وشرع خرقنا الزورق خرقاً كبيراً ، حتى إذا أتوا وتغلبوا علينا يصعب عليهم حمله . ولم يدر قط في خلدني أننا سنتمكن من تخليص السفينة ، ولذلك كانت نظرتي عند تركهم الزورق ، أن نصلحه ، ونركب فيه إلى جزيرة « ليوارد » حيث نمر على رفاقنا الأسبانين الذين لا يزالون في ذا كرتي . وبينما نحن جالسون نبحث في مشروعنا ، وقد أخرجنا الزورق إلى البر حيث لا تصله المياه عند ارتفاع المد ، وخرقنا في قاعه خرقاً كبيراً لايسهل إصلاحه ، إذا بالسفينة تطاق مدفعا ، وتلوح بعلمها في الهواء ، إشارة إلى الزورق أن يعود ، وقد كرروا إطلاق المدفع ، وعمل الأشارات

مرارا بلا جدوى . ولما أعتبهم الحيل رأيتهم يزلون زورقا آخر
قذفوه نحو الشاطئ . ولما اقتربوا منه رأيناهم لا يقولون عن عشرة مسلحين
ولما كانت السفينة على بعد فرسخين تمكننا من رؤيتهم بسهولة ، وتعرفنا
وجوههم عند مадفعهم المد إلى مكان شرقى بالنسبة للزورق الأول ،
واضطروا للتجديف حتى يصلوا إليه . وعلى هذه الصورة عرفهم الربان ،
وأخبرنا عن أخلاقهم ، وقال إن فيهم ثلاثة مخلصين أمناء حقيقوا إلى
العصيان والمؤامرة سوقا بالقوة والتهديد ، وإنهم إنما يدرون رئيس الزورق
ويتظاهرون بالعصيان خوفا منه ، وإنهم يمتقون موقفهم هذا ، وإنه يرى
أنهم متفوقون علينا كثيرا .

فتبسمت ضاحكا من قوله ، وقلت له إن من كانوا في موقفنا هذا
لا يجحد الخوف إلى قلوبهم سبيلا ، فإن أى مصير نصير إليه سيكون
خيرا من حالنا هذا . ويجب أن نعتبر أن أى نهاية ننتهى إليها سواء
أ كانت حياة أم موتا خلاص لنا . وسألته ماذا ترى في حياتى هنا ، وهلا
تحاول الخلاص منها ؟ وأن اعتقادك أيها السيد أنى ما حفظنى الله هنا إلا
خلاصك ، وقد كانت حيائك منذ هنيئة في خطر داهم . وفي اعتقادى
أنه يجب علينا شئ واحد فقال وما هو ؟ فقلت المحافظة على الأمناء منهم
لأمانتهم ، ولو أنهم كانوا جميعا من القاسية قلوبهم لاعتقدت أن الله
سبحانه وتعالى مآجعههم على هذه الصورة إلا ليقعهم في أيدينا . ويجب
أن نؤمن بأن كل من تظأ قدمه منهم هذه الجزيرة فهو لنا ، ويجب أن
يحميا ويموت على حسب موقفه نحونا .

وما كدت أتم كلامي هذا حتى رأيته تشجع كثيرا . وشرعنا بهمة في إنجاز عملنا . وكنا قد عولنا على فصل أسرانا بعضهم عن بعض حين رؤيتنا الزورق يقترب من الشاطئ . وقد أتمنا هذا بحكمة تامة ، فأرسلنا اثنين لم يتق فيهما الربان كل الوثوق ، وثالثا مع جمعة إلى السكف حيث لا يسمع لهم صوت ، والا يوقف لهم على أثر ، ولا يمكنهم أن يهتدوا إلى طريق إذا قدر لهم الهرب . وهناك تركوا مكتوفين وأعطوا مؤونة ، ووعدوا أن ترد إليهم حريتهم بعد يوم أو اثنين إذا حافظوا على الهدوء والسكون ، وإذا حاولوا الفرار فأنهم سيقتلون بغير رحمة ولاشفقة . وقد أتوا جمعة موثقهم على أن يتحملوا سجنهم هذا بصبر ، وشكروه على حسن معاملته ، وعلى النور الذي تركه لهم ، إذ كان قد أعطاهم شمعة مما كنا نصنع نحن أنفسنا زيادة في إكرامهم ، ولم يعرفوا شيئا إلا أنه واقف بالباب يحرسهم . أما المسجونون الآخرون فقد عوملوا معاملة حسنة ، وبقي الاثنان اللذان لم يتمتعاً بثقة الربان مكتوفى الأيدي ، وقد وثق الربان باثنين آخرين أخذتهما في خدمتي بعد أن أقسما أن يعيشا ويموتا معنا فأصبح عددنا بهما مع الثلاثة المخلصين الأثنا سبعة مسلحين . وما شككت قط في أننا أصبحنا كفاء لمقاتلة العشرة القادمين علينا ، مع ملاحظة أن الربان قال إن من بينهم ثلاثة أو أربعة أمناء . ولما وصلوا إلى مكان الزورق الأول دفعوا بزورقهم إلى الشاطئ ، ونزلوا إلى البر ، وجروه من خلفهم وقد ملأني هذا الأمر سرورا ، فأني كنت أخشى أن يتركوه في مرساه بعيدا عن الشاطئ ، وفيه بعضهم ليرعاه ، فيفلت من

أيدينا. وما كادوا يصلون إلى الشاطئ حتى أهرعوا^(١) إلى الزورق الأول
ولقد كان سهلا علينا أن نرى أنه راعهم رؤية زورقهم مجردا من كل ما فيه
على الصورة المتقدمة ، وفي قاعه خرق كبير .

وقد وقفوا قليلا عند هذا ، ثم نادوا بأعلى صوته مرتين أو ثلاثا ،
وصاحوا عبثا لعلهم يسمعون رفاقهم ، ثم دنا بعضهم من بعض حتى كونوا دائرة
وأطلقوا الرصاص من بنادقهم دفعة واحدة سمعناها ، وقد تجاوزت بصداها
أنحاء الغابة ، ولكن لم يجهم أحد ، فأن الذين كانوا في الكهف لا يمكن
أن يسمعوهم ، والذين معنا لا يجرؤون على مجاوبتهم ، مع أنهم سمعوا صوت
إخوانهم . ولقد دهشوا لهذه المفاجأة ، وهموا كما أخبرونا بعد ذلك أن
يعودوا إلى السفينة ليخبروا رفاقهم هناك أن رجالهم قتلوا جميعا ، وأن
الزورق خرق . وفعلا أنزلوا زورقهم إلى البحر وركبوا فيه ، فذعر الربان
واضطرب لذلك ، لأنه رأى أنهم لا محالة عائدون إلى سفينتهم ، وسيقلعون
بها معتقدين أن رجالهم فقدوا . وبذلك نفقد السفينة التي أملنا طويلا أن
ننقذها ، ولكن اضطرابه كان أشد لما رأى أنهم لم يذهبوا بعيدا بزورقهم
حتى عادوا مسرعين إلى الشاطئ بفكرة جديدة يظهر أنهم تشاوروا
واتفقوا على تنفيذها . وهي أن يتركوا ثلاثة منهم في الزورق ، والباقيون
يجوسون خلال الجزيرة باحثين عن رجالهم . وما أشد حيرتنا وتضايقنا
من ذلك ولم ندر ماذا نفعل ؟ فأن اصطيانا هؤلاء السبعة الذين على البر
لا يفيدنا أية فائدة إذا تمكن زورقهم من الهرب فأن من فيه سيذهبون

إلى السفينة ويحلون شرعا هارين بها . وبذلك يقضى على أماننا في خلاصها ، على أنه لم يكن لنا حيلة إلا أن نصبر لنرى ما عساه يكون .

ولما رسا الزورق نزل منه سبعة إلى البر ، وابتعد الثلاثة الباقون به إلى مسافة ليست بالقصيرة ، منتظرين رفاقهم ، واستحال علينا أن نميزهم . وقد مشى الذين نزلوا إلى البر مجتمعين نحو قمة الجبل الصغير حيث أسكن . وكنا نراهم من حيث لا يروننا . وقد كان يسرنا لو أنهم اقتربوا منا فنتطلق عليهم رصاصنا ، أو لو أنهم ابتعدوا عنا فنخرج من مكمننا . ولما وصلوا إلى حيث يجدون طريقا متسعا إلى الوادي والغابة ، واقعا في الجهة الشمالية الشرقية ، حيث أرض الجزيرة منخفضة ، نادوا وصاحوا حتى أخذ منهم الأعياء ، ويلوح لى أنهم كانوا يخافون أن يبتعدوا عن الشاطئ ، أو أن يتفرق بعضهم عن بعض ، فجلسوا تحت شجرة يتشاورون في أمرهم . ولو أنهم فكروا في النوم هناك لسهلوا علينا أمرنا ، كما فعل زملاؤهم من قبل ، ولكن الرعب كان قد ملأ قلوبهم فلم يحزوا على النوم . وهنا أشار على الربان إشارة صائبة وهي أنهم ربما يعودون إلى إطلاق النار كي يسمعوا زملاءهم ، فإذا فعلوا فلنهاجمهم بغتة عقب إطلاق النار مباشرة وقبل أن يملئوا سلاحهم ثانية ، فلا يسمعهم إلا تسليم أنفسهم ، ونتمكن من أخذهم من غير إراقة دماء . ولقد أعجبنى اقتراحه غير أنني اشترطت أن ينفذ ونحن على مقربة منهم ، حتى نتمكن من مفاجأتهم قبل أن يملئوا سلاحهم ، ولكن هذه الفرصة لم تأت ، ومكثنا طويلا لا ندرى ماذا نفعل ؟ وأخيرا قلت لهم إننا لن نتمكن من عمل شيء حتى يرخي الليل سدوله ، فأذا لم يعودوا إلى الزورق

فربما تمكنا من الحيلولة بينهم وبين الشاطيء ، واحتلنا على من فى الزورق حتى نأتى بهم إلى الساحل .

انتظرنا طويلا ونحن قلقون خشية أن يرجعوا . وكنا مضطربين عند ما رأيناهم بعد مشاورة طويلة يمددون نحو الشاطيء . ويظهر أن الفرع استولى على قلوبهم من خشية المكان ، فقرروا العودة إلى زورقهم ليمتوا سياحتهم معتقدين أن زملاءهم ماتوا . ولما رأيتهم يذهبون نحو الشاطيء أيقنت أنهم قرروا ترك البحث والتنقيب ، وأنهم عائدون من حيث أتوا . ولما أطلعت الربان على هذه الحقيقة كاد يقضى عليه ، ولكنى اهتمت إلى حيلة ترجعهم عن قصدهم . وقد نجحت كل النجاح . وذلك أنى أمرت جمعة ووكيل الربان أن يذهبا إلى الجهة الغربية عند الخليج الصغير الذى أنى منه المتوحشون عند مانجيت جمعة ، فأذا وصلا هناك إلى مكان قليل الارتفاع على بعد نصف ميل ، يصيحان صياحا عاليا حتى يسمعا هؤلاء البحارة فأذا سمعاهم ، يجيبون نداءهما . فليكررا الصياح ويتبعدا عن طريقهم ، وهكذا حتى يأخذاهم داخل الجزيرة ووسط الغابات . وحينئذ يرجعان إلى من طريق عينتها لهما . وكانوا قد وصلوا إلى الزورق ، فناداهم جمعة ووكيل الربان وصاحا بهم حتى أسمعاهم ، وأجابوا نداءهما وانطلقوا على الشاطيء متجهين نحو المغرب ، حيث يسمعون النداء ، حتى وصلوا إلى الخليج . ولم يقروا على عبده ، فصاحوا بالزورق ، فأتى وعبر بهم ، كما كنت أنتظر .

ولاحظت بعد عبورهم أنهم بعد أن اطعمنا على الزورق الذى

صار داخل الخليج في شبه ميناء أخذوا واحدا ممن كانوا به وتركوا اثنين فيه بعد أن ربطوه إلى جذع شجرة ، وذلك ما كنا نبغي ، فأنى وزملائي عبرنا الخليج بعيدا عن الأنظار ، وفاجأناهما فوجدنا أحدهما على الشاطئ بين النوم واليقظة ، وحاول النهوض ، فباغته الربان بضربة تركته طريح الأرض ، ثم أمر الآخر الذي في الزورق أن يسلم ، وإلا فإنه لا محالة هالك . ولم نجد معارضة كبيرة في إقناعه بالتسليم أمام خمسة منا ، وهو يرى ما حل برفيقه . وقد لاح لي أنه كان من الثلاثة الذين لم يشتر كوا في العصيان بقاوبهم فاقتنع بالتسليم بسهولة ، وانقاد أخيرا إلينا بأخلاص وأمانة . وفي الوقت نفسه نجح جمعة ورفيقه في عمليهما خير نجاح ، فزحزحاهم من جبل إلى جبل ، ومن غابة إلى أخرى بصياحها وندائهما ، حتى أعيام التعب والنصب . وتركاهم حيث كانوا لا يقدرّون على العودة إلى سفينتهم قبل حلول الليل ثم عادا إلينا تعين

ولم يعد لنا عمل إلا مراقبتهم عند عودتهم ، ومفاجأتهم في الظلام مفاجأة تركهم تحت رحمتنا . ولقد مضت ساعات على مجيء جمعة قبل أن يعود البحارة إلى زورقهم . وكنا نسمع مقدمتهم من بعد يتكلمون مع المؤخرة ، ويحثونهم على المسير ، ونسمع جوابهم وهم يشكون تعبهم وما أصابهم من عرج ، وأنهم لا يمكنهم المسير أسرع من ذلك ، فكانت أخبارهم هذه تنعشنا وتريحنا . وفي نهاية الأمر وصلوا إلى الزورق . ويستحيل أن أصف ما حل بهم من الخبل عند مارأوا زورقهم على الأرض بعد أن تركه الجزر ، ولم يجذوا الرجاين به . وسمعناهم يتكلمون بصوت محزن وهم في حالة يرثى لها ، ويخبر بعضهم بعضا أنهم نزلوا إلى أرض

مسحورة لإنجاة لهم من هولها . ثم صاحوا كثيرا منادين أخويهم باسميها
ولا محيب . ولقد رأيناهم مع قلة الضوء في مثل هذا الوقف يمشون على
غير هدى ، ويقلبون أكتفهم كمن أصابه اليأس ، فكانوا تارة ينزلون إلى
الزورق ليستريحوا ، وأخرى ينزلون إلى البر يمشون ، وهكذا لم تستقر
لهم حال

وكان رجالى يتوقفون إلى قتالهم في هذا الظلام وينتظرون أمرى ،
ولكنى كنت أرى أن أستبقى حياتهم بقدر استطاعى ، ولا أحب أن
أعرض حياة أحد من رفاقى للموت ، وأنا عالم أن أعداءنا مساحون ، فعزمت
على الانتظار لأرى هل يتفرقون كي نتبينهم ، فاقتربنا منهم وأمرت جمعة
والربان أن يزحفا على أيديهما وأرجلهما ملتصقين بقدر ما يستطيعان
بالأرض حتى لا يراهما أحد وليتمكننا من الدنو منهم من غير أن يطلقا
النار . ولم يستمرا على هذا الموقف طويلا حتى رأى الرئيس الزورق
وآخرين يتقدمون نحوهما . وكان هذا الرئيس زعيم الثورة ، وقد ظهرت
عليه علامات اليأس والمسكنة والذلة . ولما رأى الربان عدوه اللدود
قريبا منه ، وتحت يديه لم يطق صبرا على إماله حتى يقترب منه ليتأكده ،
ولم يتحقق منه غير صوته . فلما اقتربوا قليلا وقف الربان وجمعة ، وأطلما
عليهم الرصاص بغتة ، فقتل كبيرهم ، وخر صريعا مجذلا ، وجرح الثانى
جرحا بليغا أماته بعد ساعة أو اثنتين ، أما الثالث فقد فر هاربا . وعند
سماع صوت الطلقات تقدمت أنا وجيشى ، وكانت جملتنا حينئذ ثمانية ، وهم
أنا وكنت قائد الجماعة ، وجمعة وكيلى ، والربان وزميلاه ، والثلاثة الأخرى
الذين سلحناهم



فلما اقتربوا قليلا وقف الرباز وجمعة وأطافا عليهم الرصاص بغتة

ولما كننا في ظلام دامس^(١)، ولا يمكنهم أن يعرفوا عددنا جعلت الرجل الذى كان فى الزورق، واتخذ الآن جانبنا، يناديهم بأسمائهم محاولاً أن أجبرهم إلى حديث أعلى أصل معهم إلى اتفاق. وقد نجحنا فى ذلك، فأن حالتهم كانت تقضى عليهم بالتسليم. فبدأ ينادى أحدهم باسمه فقال « ياتوم سميث » فعرف المدعو صوت المندى فأجاب سريعاً « أنت روبنسن »؟ فأجاب نعم أنا هو. واستحلفك بالله ياتوم سميث أن تلقوا أسلحتكم، وتسلموا، وإلا فأن الموت محيط بكم من كل فج. » فقال « لمن نسلم وأين من نسلم لهم؟ » فقال « هنا رباننا، ومعه خمسون رجلاً يصيدونكم صيدا. ولقد قتل كبير الزورق، وجرح ويل فراى، وأنا أسير فأن لم تخضعوا وتسلموا فهاكم مؤكداً مرية فيه. » فقال « وهل يعنى عنا إذا سلمنا؟ » فقال سأسأل عن ذلك. وسأل الربان الذى صاح بنفسه قائلاً « ياسميث. أنتم تعرفون صوتى، فأن القيمت أسلحتكم فى الحال، وخضعتم نجوتهم جميعاً إلا ويل أنكنس. »

الفصل السابع والعشرون

ما جرى بين ويل أنكنس والرئيس، وإيقاظ السفينة

وخروج روبنسن كروسو من الجزيرة

وعند ذلك صاح ويل أنكنس « رحمة بى أيها الربان. ماذا فعلت أكثر من غيرى؟ فقد كنا فى العصيان سواء. » وقد كذب فى هذا

فأنه كان أول من قبض على الربان في الثورة، وأول من قسا عليه فشد وثاقه وسبه، فأمره الربان أن يضع سلاحه طوعا وبنتظر أمر الحاكم. وكانوا يلقبونني بهذا اللقب. وهكذا بكلمة واحدة ألقى الجميع أسلحتهم وبدءوا يرجون حياتهم، فأرسلنا الرجل الذي تولى محادثتهم ومعه اثنان فشدوا وثاقهم. وبذلك تم لجيشي الذي ظنوه مؤلفا من خمسين رجلا، ولم يكن غير ثمانية، أن يستولى عليهم وعلى زورقهم. ولقد بقيت بعيدا ومعى رجل واحد محافظة على سمعة الحكومة.

وكان أول عمل لنا بعد ذلك إصلاح الزورق، والتدبر في أسر السفينة. أما الربان فقد وجد فرصة للتكلم معهم، فذكر لهم ما كان من خستهم ولؤمهم معه، وإجرامهم الذي لا بد أن يصل بهم إلى البؤس والشقاء. وربما جرهم إلى الشنق، فظهر عليهم جميعا الندم، وبدءوا يطالبون النجاة لأنفسهم، وهو يقول لهم: « ليس هذا شأني، فأنتم استم أسرأي، ولكنكم أسرئ حاكم الجزيرة، التي ظننتم أنها جرداء مقفرة لا ساكن فيها ولا أنيس، ولكن قضى ربكم أن تكون أهلة بسكانها. وحاكمها إنجليزى الجنس، وربما شنقكم جميعا. ولا سكة قيل ضيافتكم وقد يرسلكم إلى إنجلترا حيث تنالون القصاص العادل، إلا أنك نس الذي أمرت أن أطلب منه الاستعداد للموت فسوف يشنق في الصباح ». ومع أن هذا الكلام كان من لدنى فإنه أثر الأثر المرجو منه، لأن أنك نس خردا كما يرجونى أن أكون شفيعا له عند الحاكم أيمفو عنه. وتضرع إلى الآخرون أن أشفع لهم ألا يرسلوا إلى إنجلترا. والآن خطر لى أن وقت الخلاص قد حان. وأنه يسهل علينا أن

نستخدم هؤلاء القوم في امتلاكنا السفينة . ولذلك تنجيت بعيدا عنهم
في الظلام حتى لا يروا شكل حاكمهم ، وناديت الربان إلى . وكنت إذا
تكلمت أمرت شخصا آخر أن يعيد كلامي للربان . كالمو كونا على مسافة
بعيدة . فنلا يقول للربان إن الحاكم أرسلني في طلبك ، فيقول أخبر جنابه
أني حاضر في إثرك . وبذلك اعتقدوا أن الحاكم لا يزال بعيدا عنهم بحيشه
الكبير . ولما حضر إلى الربان أطلعتة على مشروعي للقبض على السفينة ،
فوافق عليه كل الموافقة ، وأعجب به أيما إعجاب ، وعزم على تنفيذه في
الصباح . ولكي ندرك النجاح في عملنا ونؤديه على الوجه الأتم ، طلبت
منه أن نقسم الأسرى قسمين ، فيأخذ هو أتكس مع اثنين من أردتهم
خلقا مكتوفين ويضعهم في الكهف مع الآخرين ، ويعهد في حراستهم
إلى جمعة والرجلين اللذين أتيا مع الربان . وهكذا نقلوا إلى الكهف كما
ينقل السجين إلى سجنه . وكان محلا موحشا لمن كان في حالتهم . أما أفراد
القسم الآخر فقد نقلوا إلى غرفتي - كما كنت أسميها - وقد وصفتها لك
وصفا دقيقا فيما سبق . ولما كانت حصينة ، وكانوا مكتوفين لم يكن هناك
مجال للخوف منهم ، وخاصة بعد أن عاد إليهم رشدهم

وفي الصباح أرسلت إليهم الربان ليختبرهم لنعلم أيمن أن نتق بهم
في الذهاب إلى السفينة لمفاجأتها . فبدأ يقص عليهم ما أصابه من الضرر ،
والحالة التي هم عليها الآن ، وأفهمهم أن لا بد من التشكيل بهم بعد عودتهم
إلى إنجلترا ، ولو أن الحاكم عفا عنهم في هذه القضية . وأخبرهم بأنهم إذا
تطوعوا في عمل مبرور كخلاص السفينة ، فإنه يمكنه الحصول على وعدم
الحاكم بالعمو عنهم . وكل واحد يمكنه أن يتصور كيف أن اقتراحا كهذا

يقابل بالقبول والرضا من قوم في الحالة التي هم فيها، نفروا ساجدين متضرعين إلى الربان واعدن إياه أن يكونوا أمناء له حتى يلفظوا الروح، وأنهم مدينون له بحياتهم، وسيذهبون تحت قيادته إلى أي جهة يريد ماداموا أحياء. فأجابهم حسنا فعلتم، ولكن لا بد من ذهابي إلى الحاكم لأعرض عليه عهدكم هذا، ولكي أعمل جهدي في أخذ وعد منه. وبذلك صور لي الربان حقيقة حالهم التي صاروا إليها، وأخبرني أنه يعتقد صدقهم فيما يقولون.

ولنكون في مأمن طلبت منه أن يعود إليهم ويختار منهم خمسة ويفهمهم أنه ليس في حاجة إلى الرجال، وإنما أخذهؤلاء لمساعدته، وأن الحاكم سيحتفظ برفيقيكم والثلاثة الآخرين الذين أرسلوا جميعا إلى القلعة كرهائن عنده دليلا على وفائكم.

فأن نكثتم عهدكم فسوف تشنق الرهائن الخمسة على الشاطئ وهذه قسوة أقنعتمهم أن الحاكم لم يكن هازلا، ولم يكن لهم إلا أن يقبلوا طائعين. وهكذا صار شغل الربان والأسرى معا إقناع الخمسة الآخرين أن يؤدوا واجبهم هذا. ولقد وجهنا بعثتنا نحو السفينة مكونة على الصورة الآتية (١) الربان ووكيله والسائح (٢) الأسيران اللذان أسرا من الفرقة الأولى، وقد أطلقت سراحهما وساحتها لحسن شهادة الربان فيهما (٣) الأسيران الآخرين اللذان كانا لا يزالان في حجرتي مكثوفين، وأطلقنا سراحهما عند تأهب الربان للمسير (٤) الخمسة الذين أطلقوا حديثا، فكانوا جميعا اثني عشر، خلاف خمسة أبقيناهم أسارى في الكهف كرهائن. ولقد أخبرت الربان أنه إذا كان مستعدا للمخاطرة مع

هؤلاء القوم في مفاجأة السفينة فليفعل فاني وجمعة لا يمكننا مرافقتهم
تاركين خلفنا سبعة رجال يستنفدون كل مجهودنا في حراستهم متفرقين
وفي إطعامهم .

وقد أقيمت الخمسة الذين كانوا في السكف مكتوفين ، وكان جمعة
يدخل إليهم في كل يوم مرتين يمدهم فيهما بما يحتاجون إليه . أما الاثنان
الآخران فقد سخرناهما في حمل المؤونة إلى مسافة بعيدة حيث يتسلمها
جمعة منها .

وحينما ظهرت بنفسى للأسيرين كنت مع الربان الذي عرفهما أني
رسول الحاكم إليهما ، وأنه أمرني أن أرافقهما وأبلغهما رسالته ، وهي ألا
يتحركا من مكان إلى آخر إلا بأذني ، فأن خالفا أمرى فسوف يقرنان في
الأصفاد في القلعة . وبذلك أمكنني أن أظهر لهم كشخص آخر غير
الحاكم يكلم الناس عنه ، وعن حصونه وقلاعه ، وما شابه ذلك في
كل فرصة .

ولم تكن أمام الربان صعوبات إلا تجهيز الزورقين بالرجال ، وسد
الخرق الذي بأحدهما . وقد أقام السائح الذي أتى مع ربانا على أحدهما ،
وأعطاه أربعة من الرجال . أما هو ووكيله وخمسة آخرون فقد ذهبوا في
الآخر ، وتم لهم أمرهم ، ووصلوا إلى السفينة في منتصف الليل حتى إذا
ما كانوا على مقربة منها أمر الربان روبرنسن أن يناديهم ويخبرهم أنهم
عائدون بالزورق والرفاق بعد أن أعياهم البحث . وهكذا شغلهم حتى
أتينا إلى السفينة ، فكان الربان ووكيله أول من صعدوا إليها بأساحتهم .
وما كادوا يصلان حتى قضيا على الوكيل الثاني والنجار بمؤخر بندقيتهما .

وبفضل مؤازرة الرجال لها تمسكنا من غلق نوافذ السفينة العليا . وبذا حبسوا من كان في باطنها حيث هم . وحينئذ تمسكن رجال الزورق الآخر من الدخول إلى السفينة من مقدمها ، واستولوا على محل البحارة والممر الموصل إلى المطبخ ، حيث أمروا ثلاثة رجال وجدوهم هناك . ولما تم لهم ذلك ، وأمنوا شر من كان على سطح السفينة أمر الربان وكيله وثلاثة معه أن يدخلوا على الربان التائر عنوة في مخدعه ، وكان قد تنبه لما هو حاصل ، فتسلح هو ورجلان وصبي ، واستعدوا للطوارئ ، حتى إذا ما فتح وكيل الربان بمفتاح مصطنع ، أطلق الربان التائر ورجاله النار عليه ، فأصابوه برصاصة كسرت ذراعه ، وجرح اثنان من رجاله ، ولما لم يقتل منهم أحد ، وصاح الوكيل مستغيثا ، ثم هجم على التائر في مخدعه ولم تمنعه إصابته من إطلاق بندقته عليه ، فأصابه في رأسه ، فدخلت الرصاصة من فمه ، وخرجت من خلف أذنه ، فأرداه قتيلا لم ينبس ببنت شفة . وعلى أثر ذلك سلم الباقي من رجاله وهكذا تم لنا النصر ، وأخذنا السفينة من غير أن نسرف في القتل . وحينئذ أطلق الربان سبعة مدافع وتلك إشارة قد اتفقنا عليها عند ما يتم له استرداد السفينة .

ويمكن القارئ أن يتصور كيف كان وقع خبر الانتصار على . وكنت قبل ذلك جالسا على الشاطئ أنتظر وقد عيل صبري ، واستمر حالي على ذلك حتى مطلع الفجر . وعندئذ استلقيت على ظهري واستغرقت في النوم بعد يوم كثرت فيه متاعبي . وبقيت نائما حتى أيقظني صوت بندقية فقمتم مسرعا فسمعت صوتا يناديني أيها الحاكم وتبينته فأذا هو صوت الربان وهو يتسلق إلى قمة الجبل حيث وقف مشيراً إلى السفينة ،

ثم عانقني قائلاً « أيها الصديق العزيز والمنقذ لي هالك سفينتك. فهي ملكك، ونحن وكل مافيها لك » حينئذ نظرت إلى السفينة فوجدتها قد اقتربت من الشاطئ حتى صارت تبعد عنه نصف ميل أو يزيد قليلاً. فأنهم عند ما استولوا عليها كان الجو معتدلاً فأثابوا بها إلى فم الخليج، وهناك رست والمد مرتفع، ثم ركب الربان زورقاً حتى نزل في المحل الذي نزلت فيه أولاً

وكانت دهشتي عظيمة كدت أنوء تحتها، فأنى رأيت خلاصى محققاً لأراد له، وكل شيء طوع أمرى، وسفينة كبيرة تنتظرني لتحماني حيث أحب ولقد خارت قواى بداءة ذى بدء من الفرح، فلم أستطع جواباً. ولولاً أنه عانقني اسقطت على الأرض. وقد أدرك ما فعلت بى الدهشة، فأعطاني شراباً منعشاً من زجاجة كان قد أحضرها معه لهذا الغرض، فشربت ثم جلست على الأرض، وظننت أنى قد عادت إلى قواى، غير أنى لم أقوع على الكلام إلا بعد برهة طويلة. كل هذا والربان فى ذهول لا يقل عن ذهولى، واسكنه لم يفاجأ كما فوجئت؟ وكان يتأطف ويهطف على الألفاظ العذبة الرقيقة ليعيدنى سيرتى الأولى. واسكن السرور كان قد أترع قلبى. وترا كمت فى صدرى أمواجه، فاضطربت روحى له ثم أخذت فى البكاء ماشئت أن أبكى، ثم عادت إلى نفسى بعد قليل فتمكنت من الكلام، ثم رددت تحيته بأحسن منها، وعانقته عناقاً هو أهله. وتبادلنا السرور وطفقت أقص عليه اعتقادى، وهو أنه هبط على من السماء ليخلصنى. وأن حياتى كانت سلسلة من الغرائب والمدهشات وأن هذه الوقائع ما كانت إلا براهين ساطعة على قدرة الله ولطفه الخفى

وأنه يخترق الحجب ، فيصل إلى أعماق العالم ، فيرى البائسين والمحتاجين ويرسل الرحمة لهم متى شاءت إرادته . ولم أنس في دهشتي هذه أن أتجه إلى الله شاكرًا له أنعمه على ما أولانا من نعمة الخلاص فقد كان مصدرها ، وإليه يرجع الأمر كله ، وما كان ليأنس مثلي أن ينسى شكر الله في موقفى هذا فى ذلك المكان الموحش .

وبعد أن تكلم الربان زمنا أخبرنى أنه قد أتى بشيء من المرطبات مما كان فى السفينة ولم تعبث به يد العالبيين الذين اغتصبوا منه النفوذ . وحينئذ صاح بالقوم الذين كانوا فى الزورق أن أحضروا ما للحاكم عندهم . وحقا كانت هديته ثمينة كبيرة ، كأتى كنت سابق هنا فى الجزيرة ، وكانهم لا يأخذونى معهم ، فأحضروا صندوقا ملآن بالقوارير المحتوية على شراب منعش فاخر ، وست قوارير من نبيذ « ماديرا » ، وورطايين من التبغ الجيد ، واثنى عشرة قطعة من اللحم البقرى ، وست قطع من لحم الخنزير ، وكيسا من اللوبيا وقنطارا من « البسكويت » وصندوقا من السكر ، وآخر من الدقيق ، وكيسا مملوءا بالليمون ، وقارورتين ممتلئتين من عصيره ، وأشياء أخرى كثيرة . وفوق ذلك أحضر أشياء كانت عندى أثنى وأغلى كثيرا لشدة نفعها لى ، وهى ستة قصاص جديدة نظيفة ، وستة أربطة للرقبة ، وقفاز ، وحذاء ، وقبعة ، وجردب ، وكسوة جميلة من كسّى لم يكن يستعملها كثيرا . وجمادى القول أنه كسانى من الرأس إلى القدم . وهذا عمل كله حناف ورحمة لا ينكرهما أحد . أما من جهتي أنا فلم يكن أحدا أكثر منى بغضا وأشد كرها إلى منظري هذا وأنا ألبس هذه الثياب لأول مرة . وبعد

فراغنا من هذه الحفاوة ، وبعد أن أدخلنا هديته الطيبة إلى سكنى جالسنا
نتشاور فيما يجب عمله بأسرانا ، وهل من الحكمة أن تقدم على حماهم معنا
ولا سيما اثنان منهم لا تسهل قيادتهما ، ولا يلبثان أن يعبثا بالنظام . وكان
رأى الربان فيهما أنهما فاجران لا يشكران صنيعا ، ولو قدر له أن يحماهما
معه في السفينة فأنهما سيبقيان مكباين في الحديد ، ليسالما إلى القضاء في
أول ميناء إنجليزي يمر به . ولقد كان مصرا على رأيه هذا فاقترحت عليه أن
يترك الأمر لي إذا أراد ، وأنا كفيل بأن أقتنعهما بأن يطالبا أن نتركهما في
الجزيرة ، فوافق على ذلك مسرورا .

وفي الحال أرسلت جمعة واثنين من الأسرى في طلب الخمسة الأسرى
الذين كانوا في السكف مقيدين بسلاسلهم وأغلالهم ، وأخبرتهم أن يذهبوا
بهم إلى حجرتي وينتظروني معهم حتى أحضر . وبعد مدة ذهبت إليهم
مرتديا ملابس الجديدة ، وهناك سميت حاكما مرة أخرى . وتقابلنا جميعا
مع الربان ، وأمرت بأحضارهم أمامي ، وأخبرتهم بأن لدى تفاصيل بكل
مفاسدهم وشروخهم وعدائهم للربان ، وكيف أنهم هربوا بالسفينة ، وكانوا
ينوون أن يدبروا السرقات أخرى ، واسكن الله خيب فآلهم ، ورد كيدهم
إلى نحورهم ، وأفهمتهم أنني أمرت بأخذ السفينة ، وأنها الآن راسية في الطريق
وأن ربانهم الجديد قد جوزى على سوء عمله ، وهما هو ذا مصلوب أمام
أعينكم على الدقل . أما أنتم فخبروني بماذا تدفعون عن أنفسكم حكمى عليكم
بالموت شنقا بتهمة اللصوصية البحرية التي أخذتم وأنتم لها فاعلون . وما
كانوا يشكون في أنى على تنفيذ ما أقول قادر ، فأجاب أحدهم نائباعن
الباقين أنهم ليس عندهم ما يقولون إلا أن الربان وعدهم أن يستبقى أرواحهم ،

وأنتهم يتضرعون إلى طالبين الرحمة . فقات لهم « إني لا أعرف رحمة لكم ، ولا تأخذني بكم شفقة . وقد عزمت على مغادرة الجزيرة مع رجالي ، وقد أخذت جوازا للسفر إلى إنجلترا مع الربان ، الذي لا يمكنه أن يحملكم إليها إلا سجناء مقرنين في الأصفاد ، لتحاكموا على عصيانكم وهربكم بالسفينة . وما جزاء من يفعل ذلك إلا الموت . وما كان لي أن أختار لكم ما تصنعون إلا إذا أفررتهم أن تبقىوا هنا في الجزيرة ، فإذا أردتم فأني ميال لمسامحتكم » . فظهر عليهم الرضا وقالوا إنهم يفضلون البقاء على أن يحملوا إلى إنجلترا ليشنقوا .

وعلى ذلك تركت المسألة عند هذه النقطة ، ولكنني لاحظت أن الربان يحاول رضع عراقيل في سبيلهم ، وكأنه لا يريد أن يتركهم في الجزيرة غير أنني أظهرت له شيئا من الغضب ، وقلت له إنهم أسراى وحدى ، وليس له من أمرهم شيء ، وبما أنى قد وعدتهم قولا معروفا ومغفرا ، فأنى سأبر بوعدى لهم ، فإذا لم يوافق على تصرفى هذا ، فليسمح لى أن أطلق سراحهم ، وأرد لهم حريتهم ، كما وجدتهم ، فأن من لم يرق فى نظره إطلاقهم فله أن يجد فى أثرهم ثانية إذا أمكنه .

وعندئذ ظهرت عليهم علامات الشكر ، فأطلقت سراحهم ، وقلت لهم ارجعوا إلى الغابة كما أتيتهم ، وسأترك لكم أسلحة وذخيرة ، وأرشدكم كيف يحيون حياة طيبة إن أحكمتم أمركم . ثم شرعت فى الاستعداد للذهاب إلى السفينة ، ولكنني أخبرت الربان أنى سأمكث الليلة هنا لأهين نفسى . ودرغت فى ذهابه إلى السفينة ليعيدها سيرتها الأولى من

نظام وغيره ، وأن يرسل الزورق في صبيحة الغد إلى ، وأن يصاب الربان
الذى قتل على الدقل ليراه هؤلاء الرجال . ولما غاب عنا أرسلت في طاب
القوم ، فلما أتوا نافشتهم الحساب في شؤونهم ، وأظهرت لهم موافقتي
على اختيارهم البقاء هنا . ولو أيسح للربان أن يحملهم معه للافوا حتفهم ، ثم
أرثهم الربان الثائر مصلوبا ، وقلت لهم : ما كان لكم أن تنتظروا مصيرا
خيرا من هذا ، فلما رضوا بالبقاء أخبرتهم أني سأخذهم إلى مخزني ، وأرثهم
كيف ينتفعون به . ثم شرعت أقص عليهم تاريخ الجزيرة وكيف وصلت
إليها وأطلعهم على حصوني وطريقي في عمل الخبز وزرع القمح والانتفاع
بالعنب . وبالاختصار أرشدتهم إلى كل ما يسهل عليهم معيشتهم ، ثم
حدثهم عن الستة عشر أندلسيا الذين كنا ننتظرهم ، والذين تركت لهم
خطابا مع هؤلاء الرجال ، وأخذت عليهم الميثاق أن يحسنوا ضيافتهم
إذا قدر لهم الوصول إلى هنا ، وتركتم لهم أسلحتي التي هي خمس سبطانات
وثلاث بنادق للصيد وثلاثة سيوف ، وصندوق ونصف من البارود ،
لأنني بعد السنتين الأوليين لم أسرف في استعماله ، وما استعملت منه إلا
القليل . ثم علمتهم طريقي في تربية المعز وحلبها ، والانتفاع بألبانها .
واتخاذ الزبد والجبن منها ، وبالأجواز قصصت عليهم قصتي . ووعدتهم أن
أحمل الربان على ترك صندوقين من البارود ، وبعض بذور كنت أسرلو
كانت عندي . ثم تركت لهم حقيبة اللوييا التي كان الربان أحضرها لي
وأمرتهم أن يحرصوا عليها كل الحرص فيزرعوها ليربو ويعم نفعها .
وبعد ذلك تركتهم في اليوم التالي ، وامتطيت السفينة ، وأعدنا
عدتنا للمسير ، غير أننا قضينا ليلتنا في مكاننا لم نبرحه . وفي الصباح

فاجأنا اثنان من الخمسة أتيا إلينا سابحين مبكرين يشكوان مر الشكوى من الثلاثة الآخرين، ويتضرعان إلينا أن نحملهما معنا، لأن موتهما محقق لو تركا، واستحلما الربان أن يرحمهما فيسوقهما ولو إلى الموت العاجل . وعندئذ تظاهر الربان بأن الأمر شورى بيننا ، وبعد صعوبات ذلت وعهود أخذت ، واستغفار من جانبها ، حملناهما معنا ، ثم جلدناهما وعذبناهما عذابا شديدا أصلح حالهما فصارا نافعين . وبعد ذلك بقليل أرسلنا زورقا إلى الشاطئ — وكان المد مرتفعا — يحمل الأشياء التي وعدت الرجال بها مضافا إليها صناديقهم وملابسهم التي أخذوها ساكرين ، ثم هدأت خاطرهم بوعدى إياهم أنى إذا تمكنت من إرسال سفينة خلاصهم ، فأنى سأفعل غير ناس ولا متوان .

وكنت قد حملت معى قبل مغادرة الجزيرة قبعتى ، وكانت من جلد المعز ، ومظلتى ، وبيغائى ، تذكر لىأتى بهذه الجزيرة . ولم أنس النقود التى مر ذكرها ، وبقيت بجانبى معطلة ، وقد علاها الصدأ ، حتى إن العين لتنكرها إذا رأتها ، وكذلك كانت النقود التى وجدتها فى السفينة الأسبانية . وهكذا غادرت الجزيرة فى اليوم التاسع عشر من ديسمبر سنة ١٦٨٦ كما حققت ذلك فى تقويم السفينة ، بعد أن مكثت بها ثمانية وعشرين عاما وشهرين وتسعة عشر يوما . وكان خلاصى من أسرى فى المرة الثانية موافقا لليوم الذى هربت فيه أول مرة فى الزورق من مغاربة « سالى »

ولقد وصلت على السفينة إلى إنجلترا بعد سياحة طويلة فى اليوم الحادى عشر من شهر يونيه سنة ١٦٨٧ بعد أن غبت عنها خمسا وثلاثين

سنة . وكنت بعد أوتى إلى بلادى غربيا ينكرنى كل إنسان ، كأنى لم أكن بينهم ، ولا معروف لديهم . ووجدت تلك المرأة المحسنة الطيبة القلب المخلصة لى لانزال حية ، وكنت أمنتها على أموالى ، ولكن سوء الطالع قد لازمها فشكت زوجين وساءت حالتها ، فطمأنت قلبها وأبرأت ذمتها من الدين الذى لى عندها ، وأكدت لها أن لا خرج عليها من هذه الجهة ، ومددت لها يد المساعدة بقدر ما سمحت به حالى - وكانت لا تسمح بمساعدة كبيرة - اعترافا لها بحميلها وأمانتها فيما مضى ، وأكدت لها أنى لن أنساها ، ولن أنكر عليها شفقتها نحوى كلما وجدت إلى مساعدتها سبيلا ، كما سترى ذلك بعد

الفصل الثامن والعشرون

ذهاب روبنسن كروسو إلى لشبونة ومقابلة الرئيس البرتغالى

وذهابه من هناك الى انجلترا براً

وبعد هذا سافرت إلى «بور كشير» ، فوجدت والدى قد قضيا نحبهما وانقرضت أسرتى إلا أختين وطفلين لأخ . وقد اعتبرت ميتا من زمن بعيد ، ففقدت كل شىء من متاع الدنيا ، ولم أجد ما أسد به رمقى أو أستعين به على معيشتى . وذلك المبلغ الصغير الذى معى لم يكن ليقوم بحاجتى فى هذه الحياة الدنيا . ومع ذلك قد أسدى إلى معروف لم أكن أنتظره . وذلك أن ربان السفينة الذى نجيت ، وأنقذت سفينته وما بها من متاع ، قص على أصحابها ما كان من أمرى معه ، وكيف خلاصته هو

ورجاله والسفينة ، فدعوني هم وبعض التجار لمقابلتهم فأجزلوا الى الشكر وكافوني بما يزيد على مائتين من الجنيهات .

وبعد تفكير طويل في حالتي وما سيؤول إليه أمري بعد هذه الهبة الضئيلة التي تقصر عن سد حاجتي عزمت على السفر إلى لشبونة على أجد طريقة أعرف بها ما آلت إليه مزرعتي في البرازيل ، وما حل بشريكي . وعندي ما يحملني على الظن أنه عدني من الهالكين من زمن بعيد . ولهذا الغرض قصدت لشبونة فوصلتها في إبريل وكان جمعة يرافقي أينما ذهبت ، وقد أخلاص لي الود . ولما حلت بها وجدت بعد البحث صديقي القديم ربان السفينة الذي سافرت معه من إفريقيا ، وكان قد علاه المشيب وصار كهلا ، واعتزل الملاحة تاركا سفينته لابنه الذي جاوز سن الشباب وصار شيخا . وكان لا يزال يتجرع مع البرازيل . ولم يعرفني ذلك الصديق ، وما كدت أعرفه ، ولكن سرعان ما تذكرته وأعدت ذكري إلى ذهنه بعد أن أعلمته بنفسى .

وبعد أن قضينا لبانة الشوق القديم سألتهم عما يعرف من أمر مزرعتي وشريكي ، فأخبرني أنه لم يذهب إلى البرازيل من نحو تسع سنين ، ولكنه متثبت أن شريكي كان حيا عند ما تركها آخر مرة ، وكان الوكيلان اللذان أشركتهما معه لحراسة نصيبي قد ووريا في التراب . وأعلمني أن استطاعتي الحصول على المعلومات السكافية لهما تم في مزرعتي من تحسين وإصلاح . وذلك أن الوكيلين قد سلما بموتى غرقا كما أشيع ، فأعطيما يخصني منها إلى بيت المال الذي تملكها ظانا أني لن أعود فأطلبها ، فجعل الثالث للملك والثلاثين لدير « سان أوجستين » ليصرف ريعهما على الفقراء ، وحمل

الهندو على اعتناق الكاثوليكية . فإذا ما ظهرت أو ظهر لى وارث ترد إليه إلا ما صرف من ريعها فى الأعمال الخيرية أو إصلاحها . وأكد لى أن وكيل الدخل الملكى ^(١) من الأرض ، ووكيل الدير يحاسبان شريكى حسابا عسيرا ، ليعرفا مقدار ما تنتج المزرعة معرفة تامة ، لياخذ نصيبى وهو النصف فسألته أيعلم مقدار التقدم فى مزرعتى ؟ وهل هى فى حاجة إلى عنايتى ؟ وهل تترضى عقبات إذا ذهبت إليها وأخذت أطالب بنصيبى فيها ؟ فأجابنى بأنه لا يعرف بالضبط مقدار التقدم الذى حصل فيها ، ولكنه يعرف أن شريكى أصبح ذا ثراء عظيم بتسمير نصف المزرعة فقط ، وأنه يتذكر جيدا أنه سمع أن ثالث نصيبى الذى اختص به الملك ، والذى منحه ديرا أو أحد الملاجىء الدينية يبلغ دخله السنوى أكثر من مائتين من الجنيهات البرتغالية ، وأنه لانزاع فى رد حقى إلى ، فأن شريكى لا يزال حيا يشهد لى ، ولا يزال اسمى مسجلا فى سجلات المملكة ، وإن أعقاب الوكيالين أناس أمناء مخلصون وذوو يسار . وأنه على ثقة بأنى سأفوز منهم بالمساعدة على نيل حقى كاملا . وفوق ذلك سأجد عندهم مبالغاً وفيرا من النقود متجمعا مما خصنى من حاصلات مزرعتى مدة كان أبواهم وكيالين لى قبل أن تستولى الحكومة عليها كما مر . وتقدر تلك المدة بنحو اثنتى عشرة سنة كما يتذكر .

وعند ذلك لم أظهر اهتماما ولا قلقا . ثم سأله كيف جاز للوكيالين أن يتصرفا فى ملكى مع العلم بأنى كتبت وصيتى فجعلت الربان البرتغالى

(١) الدخل الملكى الجزء الذى يخص الملك

وارثي الوحيد ؟ فأجاب بأن ذلك صحيح ، ولكن لم يقم برهان على موتى فلم يكن في استطاعته أن ينفذ وصيتى حتى يتثبت من موتى . أضف إلى ذلك أنه ما كان يرغب في التدخل في شىء يبعد عنه هذا البعد الشاسع . نعم إنه سجل وصيتى وحفظ حقه ، وإنه لو أخبر بحياتى أو موتى لقام مقامى ووضع يده على مصنع السكر ، وأمر ابنه الذى بالبرازيل الآن أن ينفذ ذلك ، ثم أردف بيانه هذا بقوله سأفضى إليك بسر قد لا يسرك ، وذلك أنى اعتقدت بموتك كما اعتقد جميع الناس ، فعرض على شريكك والوكيلان من قبلك نصيبك فى مدة الست السنوات الأولى أو الثمانية فقبلته ، غير أنه فى تلك المدة لم يكن نصيبك يبلغ ما صار إليه بعد ، لسبب ما أنفق على المباني والتجديدات وشراء العبيد ، ومع ذلك سأعطيك بياناً تاماً بما لك فى ذمتى وكيف تصرفت فيه

وبعد أن قضيت بضعة أيام فى الحديث مع ذلك الصديق القديم قدم لى حساب الدخل فى الست السنين الأولى موقعاً عليه من شريكى والوكلاء التجار ، لأنه كان يستولى عليه عيناً ، فبدأ خذ من لفائف التبغ والسكر والدبس وبعض المشروبات مما ينتج معمل السكر . ولدى شخصى عن الحساب أقيت الدخل يزداد سنة بعد أخرى ، ولكن لكثرة النفقات فى المبدأ كان صافى الدخل عند ذلك قليلاً . وقد أرانى ذلك الشيخ الأمين أنه كان لى فى ذمته أربع مائة وسبعون أيرة برتغالية ، وستون صندوقاً من السكر ، وخمس عشرة كفيفة مزدوجة من التبغ ، فقدت فى سفينته

عند انكسارها وهي عائدة إلى لشبونة، وذلك بعد سفرى بنحو إحدى عشرة سنة.

وقد ابتدأ ذلك الرجل الطاهر القلب النقي السريرة يشكو سوء حظه، ويندب نحس طالعه، ويذكر لى أنه اضطر إلى الانتفاع بأموالى ليقوم من سقطته ويقل نفسه من عناره، فقد اشترى حصاة فى سفينة جديدة، ثم قال لى بعد ذلك « مهما يكن من شىء يا صديق العزيز فإن أدعك تحتاج إلى نقود، وعند عودة ولدى من سياحته ستنال كل ما تريد ». ثم أخرج صرة عتيقة، وأعطانى منها مائة وستين ليرة برتغالية ذهباً. ثم أعطانى عقدا بقيمة ما يستحقه هو وولده من الأسهم فى سفينة كان ابنه قد سافر فيها إلى البرازيل. وكان لكل منهما ربعها، وجعل ذلك رهنا بيدي على المبلغ الذى بقى لى عنده.

فأثرت فى أمانة ذلك الرجل ومعرفته حتى لم أطق صبرا على ذلك. ولما تذكرت إحسانه إلىّ حين قبلنى فى سفينته، وكيف أخلاص لى الود فى تلك المدة ما كدت أتمالك نفسى من البكاء عند ما سمعت حديثه معى. فسألته لأعرف أكان المبلغ الذى دفعه لى يوقعه فى شدة وضيق؟ فأجابنى بأنه لا يقدر أن يقول غير أن المبلغ يضايقه قليلا، ولكنه أردف ذلك بأن المال لى، وربما كنت محتاجا إليه أكثر منه.

وقد كان كل حديثه معى ممتلئا بشعور الوداد والأخلاص حتى غلبنى البكاء فبكيت محبة وحنواً عليه، ولذلك أخذت من المبلغ الذى أعطانيه مائة ليرة فقط، وأعطيته الباقي، وكتبت له صكبا أخذت منه، ووعدته برد الباقي إذا حصلت على أملاكى، وقد فعلت ذلك فيما بعد.

وأما عقد السفينة الذى أراد دفعه لى كرهن لدينه ، فقد أيدت أخذه ، لأن ما طبع عليه من الوفاء والأمانة سيحمله على دفع ما أطلب منه بدون احتياج إلى حفظ رهن عندي . وإذا لم أحتج إلى المال ، بأن استوليت على عقارى الذى جعل لى أملا فى الحصول عليه ، فإن آخذ منه درهما واحدا .

وبعد الانتهاء مما تقدم عرض على ذلك الشيخ الأمين طريقة أصل بها إلى أملاكى ، فأخبرته بأنى أردت الذهاب إليها بنفسى . فأجاب بأن لى أن أفعل ذلك إذا أردت ، وأن هناك طريقة يمكن بها الحصول على حقى ، والاستيلاء على ما يخصنى من الأرباح إذا آثرت البقاء . ولما كان فى ميناء لشبونة سفن على أهبة الرحيل إلى البرازيل أشار على أن أقيد اسمى فى سجل الحكومة مع شهادته بكونى باقيا فى الحياة ، وأنى أنا الرجل الذى اشتري الأرض لزراعتها والعناية بها . وبعد أن قام بالعمل مسجل الحكومة أرشدنى رفيقى أن أرسل الأوراق مع مكتوب بخطه إلى تاجر يعرفه فى البرازيل ، وأن أبقى عنده فى انتظار الجواب .

ولم يكن شئ أشرف مما أجريت به تلك الوكالة ، لأنه فى أقل من سبعة أشهر جاءنى رزمة كبيرة ممن بقى من وكلائى الذين سافرت تلك السفرة المشؤومة من أجلهم .

وكانت تلك الرزمة تحتوى على التفاصيل الآتية :

أولا - فائة بالحساب الجارى لحاصلات مزرعتى من السنة التى قدموا حسابها للرئيس البرتغالى ، أعنى من ست سنين ، فكان حقى بعد جميع النفقات ١٧٤ ليرة برتغالية .

ثانيا - قائمة بحساب أربع سنين أخرى عند ما كانوا مستولين على الأملاك ، قبل أن تدعى الحكومة للاستيلاء عليها بناء على أنها تركت شخص مفقود ، وكانوا يسمون ذلك موتا مدنيا . وقد كان صافي ذلك بعد المصروفات نحو ٣٢٤١ ليرة برتغالية ، لأن قيمة المزرعة كانت قد ارتفعت كثيرا .

ثالثا - قائمة بحساب رئيس دير سان أوجستين ، وكان قد استولى على ما يخصه من الدخل أكثر من أربع عشرة سنة . ولما كان قد صرف كثيرا منه في وجوه البر والأحسان لم يكن لازما برده إلى ، ولكنه أقرب بما كان باقيا في يده بأمانة وإخلاص ، وقدّره بنحو ٨٧٢ ليرة برتغالية وأخبرني بأن المبلغ تحت يده وهو ينتظر أمرى فيه . وأما سهم (١) الملك فلم أحصل منه على نتيجة ما .

وقد وصلتني رسالة من شريكى بهننى فيها بإسلامة الأوبة ، وكانت كلها حنوا وشفقة . وقد شرح لى فيها تقدم المزرعة ، وما تنتجه كل عام ومقدار ما بها من الأفدنة ، والأصناف التى تزرع بها ، وعدد العبيد الذين كانوا يشتغلون فيها . وبعد أن بارك لى فى كتابه أخبرنى بأنه نام بالشكر لله سبحانه على ما أولانيه من النجاة . وألح على لى فى الحضور لتسلم ما يخصنى ، أو إرشاده إلى من أريد ليرسل إليه حق من نتاج الأرض . وأرسل لى هدية ثمينة تقبلتها بقبول حسن ، وهى خمسة جلود جميلة من جلود النمر كانت مرسلة إليه من إفريقية فى سفينة وفقت فى سفرتها ، وخمسة

(١) سهم الملك حصته ونصيبه

صناديق ممتلئة بأنواع مختلفة من أطيب الحلوى ، وخمسون قطعة ذهباً أقل حجماً من الليرة . وكذلك أرسل لى وكلاى مع السفن ألفاً ومئتين صندوق من السكر ، وثمانمائة حزمة من التبغ ، وباقي الحساب ذهباً

ويمكننى الآن أن أقول إن نهاية أمرى كانت أجل من بدايته ، ويصعب على بيانى أن يصف لك حقيقة ما كنت أشعر به من السرور حين قرأت تلك السكتب ، ووجدت ثروتى بجانبى ، لأن سفن البرازيل كانت تأتى معاً ، فوصلت سلمى آمنة إلى النهر قبل أن تصالى الرسائل . ولا أطيل عليك القول فقد تغير وجهى ، وحال لونه إلى الصفرة الفاقعة وخررت مغشياً علىّ . ولولا ما بذله ذلك الرجل الطيب القلب من إحضار منبه استنشقه لتغلبت سورة الفرح المفاجئ على الطبيعة ، وقضيت نحى فى المكان عينه .

وقد استمر المرض ساعات عدة حتى جاء الطيب . فلما أخبر بطبيعة المرض وكيف نشأ فصدنى فسال الدم ، فأحسست راحة . وإنى أعتقد يقيناً أنه لو لم يتداركنى الله بهذه الوسيلة لفارقت الحياة .

أصبحت الآن أملك نقوداً أكثر من ٥٠٠٠ جنيهه إنجليزى ، وضيعة فى البرازيل يزيد دخلها سنوياً على ألف جنيهه إنجليزى ، وكانت أرضها خصبة لاخوف عليها كأي مزرعة بانجلترا وقصارى القول أنى أصبحت فى حال لم أقدر نعيمها حق قدره ، ولم أدر كيف أهدأ لأتمتع بخيراتها ولذاتها .

وكان أول ما فعلته أن أحسنت إلى ذلك الربان البر تغالى الذى أحسن

إلى في بدء حياتي ، وكان عوناً لي على الشدائد شقيقاً في البداية ، أميناً في النهاية ، فأرثته كل ما وصاني ، وأخبرته أن ذلك كله كان بحسن رعايته ، وعناية الله الذي يدبر الأمور جميعها ، وأنه ينبغي لي أن أكافئه بسخاء عظيم ، فأرجعت له المائة التي أخذتها منه ، وأحضرت مسجلاً من رجال الحكومة ، وكلفته أن يكتب صك إبراء عام مسقط لكل ما كان لي عليه ، وهو أربع مائة وسبعون ليرة برتغالية . وبعد هذا جملة وكيلاً عني في تسلم حاصلات ضيقتي ، وكلفت شريكى أن يرسل إلي الحساب ، ويبعث له باسمي ما أستحقه من نتاج الأرض مع السفن التي تأتي من البرازيل . وقد جعلت له في ذيل العقد مائة ليرة برتغالية يأخذها كل سنة هبة مني مادام حياً ، ويستولى عليها من ثمن ما يرسل إليه من شريكى ، وخصصت ابنه بخمسين ليرة برتغالية يأخذها بعد موت أبيه مدة حياته . وهكذا كافأت ذلك الرجل الهرم على ما أسلف معي من معروف

وقد بقي على الآن أن أعرف إلى أي جهة أتوجه ؟ وماذا أصنع بالأموال التي وصلت إلى يدي بتقدير العزيز الحكيم ؟ وأصبحت ذامشاً غلاماً وهموم أكثر مما كنت في تلك الجزيرة البعيدة التي لا أنيس فيها غير وحدتي ، فلم أكن لأحتاج هناك إلى غير ما في حوزتي : ولا أجد غير ما كنت في حاجة إليه ، أما الآن فقد صرت ذاملاً ، وكان علي أن أدبر شؤونه ، ولم أجد الآن مغارة أضع فيها دراهمي ، أو مكاناً أخبئها فيه بلامفتاح ولا قفل إلى أن يعلموها العفن ، وليس هناك من يحسبها بأذى ، بل أصبحت في حيرة من أمري لا أعلم أين أضعها ولا من يتسلمها مني ؟ وإنني لم أجد لي ما جأ

غير الربان الذى كان أمينا مخلصا ، وكانت عندى أعمال بالبرازيل تستدعى ذهائى إليها ، ولـكننى لم أكن قادرا على السفر قبل أن أدبر أمرى وأضع أموالى فى يد أمينة تحافظ عليها فى غيبتى ، ففكرت فى صديقتى الأرملة التى كانت أمينة كما عهدتها ، ولـكنها كانت قد كبرت وصارت رقيقة الحال ، وقد تكون مدينة فلم أجدرى مفرا من الذهاب إلى إنجلترا مستصحبا معى أموالى .

وقد مضت على شهور عدة قبل أن أعزم عزما صادقا على ذلك ، وبعد أن كافأت الربان واطمأن لما صنعت معه ، فكرت فى تلك الأرملة التى كان زوجها المحسن الأول إلى ، وكانت هى صديقة المشورة طيبة القلب أمينة ، فكلفت تاجرا فى لشبونة فكتب إلى عميل له فى لندن ، فذهب إليها بنفسه ودفع لها مائة أيرة ، وسلاها عن همومها ، ووعدا بأنها مادمت حيا سأذكرها وأرسل إليها ما أقدر عليه ، وقد أرسلت لكل من أختى مائة أيرة وإن لم تكونا فى احتياج إلى المساعدة ، ولكنى واسيتهما بذلك لأن إحداهما كانت أرملة وكانت الأخرى مع بعلها إلا أنه كان غير مهتم بشئونها كما يجب . ولم أجدرين أن أعرفهم من أقاربى وأصدقائى من أركن إليه لأضع عنده الأموال وأذهب إلى البرازيل وأنا آمن عليها ، وكان ذلك يزعجنى كثيرا ،

وقد فكرت مرة فى الذهاب إلى البرازيل والسكن بها ، ولـكن كان وسواس دينى يعترض ذلك فكنت حين أفكر فى أنى سأحيا وأموت هنا معتنقا المذهب البابوى آسف على سالف مدتى التى أقمها هناك متبعا لتعاليم ذلك المذهب ، لأنه ليس أحسن مذهب باقى المرء به ربه .

ولا أطيل عليك فلم تكن الديانة بمانعة لي الآن من الذهاب إلى البرازيل،
ولسكني كنت في حيرة من أمري لا أدري أين أضع أموالى في مأمن
أطمئن عليها فيه، فعولت على الذهاب بها إلى إنجلترا حيث اعتقدت
بأنى سأجد بعض الأصدقاء أو الأقارب الذين سيكونون أمناء مخلصين
لي. وعلى ذلك رتبت أمتعى للذهاب إلى إنجلترا.

وقبل بدء الرحلة إلى بلادى كتبت رسائل ردا على الأخبار السارة
التي وصلتني من البرازيل فحررت إلى رهبان دير «سان أوجستين»
كتابا أشكر لهم فيه حسن تصرفهم وأمانتهم وإقرارهم بما بقى في ذمتهم
لى من النقود وهو ٨٧٢ ليرة، وطلبت إليهم أن يأخذوا للدير ٥٠٠ ليرة،
ويعطوا الفقراء والمحتاجين ما بقى، وفوضت إليهم أمر قسمته بينهم،
ورغبت إليهم فى الدعاء لى، وقد كتبت لوكلائى كتابا يفيض شكرا وثناء
على تلك الاستقامة والدقة فى تصريف الأشياء، ولم أرسل إليهم شيئا
من الهدايا لفرط غنائم. وكذلك حررت اشريكى مكتوبا أرسلته إليه
مثنيا على همته ومروءته، واستقامته وجده، فى إنجاح عمله وتحسين المزرعة،
وطلبت إليه أن يرسل كل ما أستحقه من غلة ما يخصنى إلى ذلك الصديق
القديم وينتظر منى تفصيلا آخر عن كل ما أريده، وأكدت له ميلى إلى الإقامة
معه ما بقى من حياتى، وأرسلت إليه بهدية ثمينة من الحريو لزوجته وابتعت
لابنتيه قطعتين من أحسن ما وجد من الجوخ الأنجيزى، وخمس قطع من
الصوف الأسود، وبعض قطع مزركشة باليد من أبداع ما وجدت. وبعد
الانتهاء من أشغالى وبيع سلعى وأخذ ثمنها أوفاء مالية صادفت صعوبة أخرى،
وهى الطريق التى أسلك للذهاب إلى إنجلترا، فبقيت مترددا بين البر

والبحر ، ولا أدري سببا لبغضى ركوب البحر وخوفى منه ، فقد عدلت عن ركوب السفن إلى إنجلترا بعد أن أرسلت حقائبي إليها ثلاث مرات .

وربما كان السبب في ذلك السكره هو جدى العاثر إذ لم أوفق في حياتي البحرية ، ولا ينبغي للمرأة أن يستهين بالبواغث الباطنية القوية في حال مهمة كهذه ، فأن سفينتين من تلك السفن التي عزمت على السفر فيها واتخذت الأهمية له قد وقعتا في المصائب والأحوال الجمة . أما إحداهما فأخذها الجزائريون أسيرة ، وأما ثانيتهما فضلت الطريق ، وغرقت عند نوربي ، وفقد كل من كان فيها إلا ثلاثة أشخاص ، ولوسافرت في إحداهما لوقعت لاحالة في خطر لا قدرة لى على تحمله . ولما كنت في حيرة من أمرى مضطرب الفكر كان مرشدى الذى أ كشف له كل أمورى ، وأطلععه على جميع أسرارى ، يحذرنى السفر بحر وقد أشار على بأحد أمرين ، أحدهما أن أذهب برا إلى « جرُون » ، وأجتاز خليج بسكى إلى « رُتشل » ومن هناك أسافر برا إلى باريس ، وقد كان هذا الطريق آمنا ، ومن هناك أذهب إلى « كاليه » ، وأعبر البحر إلى دوفر ، وثانيهما أن أذهب إلى « مدريد » وأسافر كل الطريق برا أجتازا فرنسا . ولما كنت كارها ركوب البحر ماعدا المسافة بين كاليه ودوفر عزمت على قطع الطريق كله برا ولم أهتم بصعوبة السفر ولا بطول المسافة وكثرة النفقات ، ولكى أكون مرتاحا فى سفرى بحث لى صديق الربان عن رفقة يصاحبونى ، فوفق إلى رجل إنجليزى كان أبوه تاجرا فى لشبونة ، واتفق معه أن يصحبنى فى سفرى ، ثم وجدنا بعد ذلك تاجرين

إنجليزيين، وشابين برتغاليين، أرادوا أن يكونوا معنا، غير أن وجهة الشابين كانت باريس. وهكذا كان عددنا ستة رجال وخمسة من الخدم، وقد كان مع التاجر بن خادم واحد. وكذلك الشبان. أما أنا فأتى استخدمت بحريا بإنجلترا ليسافر معي خادما، وكان معي خادمي الأمين جمعة الذي ما كان يغنيني عن خادم آخر في تلك البلاد الغريبة عنه. وعلى ذلك تركنا لشبونة وكان كل فرد من رفقتي راكبا جوادا، مسلحا بأحدث الأسلحة، فكونا عسكريا صغيرا كنت أدعى قائده، لأنني أكبر الأعضاء سنا، وأكثرهم خدما، وأول من فكر في ذلك السفر. وإذا قد أزعجتك فقصصت عليك نبأ رحلتى البحرية لا ينبغي لى أن أهمل ذكر ما قاسيناه في تلك السفرة الشاقة المملة.

ولما وصلنا إلى مدريد وكنا جميعا غرباء عنها، أحببنا أن نقيم بها قليلا لنرى ديوان إسبانيا وما يستحق الرؤية والمشاهدة من آثارها، ولسكننا اضطررنا إلى مبارحتها سريعا، لأن فصل الصيف قد أذن بالرحيل، فخرجنا منها في منتصف أكتوبر. ولما وصلنا إلى حدود «نافار» أزعجتنا الأنباء التي سمعناها من المدن التي مررنا عليها في طريقنا لأننا أخبرنا أن الثلج يتساقط بكثرة على جانب الجبال الفرنسية حتى اضطر كثير من السائحين أن يعودوا إلى «بمبلونا» بعد أن حاولوا كثير أن يجتازوا العقبات ويستمرروا في سبيلهم. ولما وصلنا إلى بمبلونا وجدنا الأخبار التي سمعناها صادقة، وألقت الجو باردا جدا لدرجة يصعب على من أقام مثلى في جو حار فلما يحتاج فيه إلى ملابس أن يتحمله. وقد كان هذا الانتقال مذهلا موجعا لأننا في مدة عشرة أيام فقط انتقلنا من مكان كان هواؤه

حارا الى آخر أحسنا فيه ريحا باردة حادة جدا لا تطاق، وكانت تلك
الريح آتية من جبال «برينيا» حتى كنا نخشى أن تتناثر أصابع أيدينا ونشعر أن
أرجلنا ميتة من كثرة تخدرها من شدة الصقيع . وقد كان جمعة المسكين
مذعورا حين رأى الجبال مغطاة بالثلوج ، وقد تأثر من شدة البرد الذي لم
يشعر بمثله في حياته .

ولما وصلنا إلى بملونا اشتد هطل الثلوج وبقيت في اشتدادها مدة
طويلة حتى قال الناس إن الشتاء أقبل قبل ميعاده ، وأصبحت الطرقات التي
كان اجتيازها صعبا مسدودة لا يمكن سلوكها ، لأن الثلج كان في بعض
الأماكن كثيرا جدا لا يمكن السير عليه بدون أن نعرض أنفسنا لشدة
البرد وخطر أن ندفن فيه أحياء في كل خطوة نخطوها . وقد مكثنا نحو
عشرين يوما في بملونا عامت أثناءها أن فصل الشتاء كان مقبلا ، ولم يكن
هناك أمل في اعتدال الجو ، لأن ذلك الفصل كان أقصى فصول الشتاء التي
مرت بأوربا ، ولم يكن في ذاكرة أي أنسان فصل مثله ، فرأيت أن نذهب
جميعا الى «فنتارابيا» ومن هناك نسافر في إحدى السفن الى برديكس .
وهذه سفرة قصيرة جدا

وبينما كنت أفكر في ذلك إذ بأربعة رجال فرنسيين قد جاءوا
إلى بملونا ، وكانوا قد أوقفوا على جانب فرنسا كما أوقفنا نحن على جانب
إسبانيا فوقفوا إلى دليل حاذق قطع بهم البلاد بالقرب من رأس
«لنجويدك» في طرق جبلية لم يتعمم فيها الثلج كثيرا ، لأنهم كانوا إذا
وصلوا إلى موضع فيه ثلج كثير يسرون عليه بخيلهم لجوده جمودا يكفي
لحملهم وخيلهم ، فلما أحضرنا ذلك الدليل تعهد بأن يذهب بنا في الطريق

نفسه بدون أن يصيبنا ضرر من النلوج، غير أنه اشترط علينا أن نكون مساعدين جيداً لندفع عن أنفسنا شر الوحوش الضارية، لأنه أخبرنا أن كثيراً من الذئاب يظهر عند مرور الطرق في الجبال ليبحث عن طعام له حين يغطي الشايج أرض تلك النواحي، فأجبناه بأن لا خطر علينا من تلك السباع الوحشية إذا ضمننا ذلك النوع، ذى القامتين من الذئاب، وهو الذى سمعنا كثيراً أنه يهدد الطرق الجبلية من جهة فرنسا، لأن خطره أعظم وأشد، فأخبرنا بأن لا خطر علينا من ذلك في الطريق الذى يريد أن يذهب بنا فيها. وعلى ذلك تم بيننا الاتفاق، وانضم إلينا أيضاً اثنا عشر رجلاً بخدمهم وكان بعضهم فرنسيين، والآخر إسبانيين، وقد حاولوا اجتياز الطرق فاضطروا أن يرجعوا القهقري.

فسافرنا جميعاً من بمباونا مع ذلك المرشد فى الخامس عشر من نوفمبر، وأخذ منى العجب مأخذه حين رأيت الدليل يرجع بنا إلى الورا فى نفس الطريق التى جئنا بها من مدريد، وقد سار بنا نحو عشرين ميلاً عبرنا أثناءها نهريْن، ثم وصَلنا إلى السهول حيث وجدنا أنفسنا فى بلاد حارة حسنة الجو خالية من النلوج، ولـسكن الدليل دار بنا إلى اليسار بـغـة دورة دنونا بها من الجبال من ناحية أخرى. وقد كان منظر الجبال والأودية مخيفاً هائلاً، ولـسكننا قطعناها بأرشاد ذلك الدليل الحاذق الذى سافر كثيراً فى تلك الشَّعاب^(١) واجتازها فى طرق معوجة، فتجنبنا بذلك خطر النلوج

(١) الشعاب جمع شُعب وهو الطريق فى الجبل

وبينما كنا سائرين أرانا المرشد بغتة قطيعي لنجويدك وجسكني
الخصبتين النضيرتين، ولكنهما كانا لا تزالان بعيدتين عنا، وكانت الطريق
التي بيننا وبينهما خشنة وعرة شافة، وقد اضطربنا قليلا عند ما شاهدنا
التاج يسقط بكثرة يوما كاملا حتى عجزنا عن السير. ولكن الدليل
أمرنا بأن نكون مرتاحي البال، وأخبرنا بأن ذلك كله سيزول بعد قليل،
ثم ابتدأنا ننحدر كل يوم ونتقدم شمالا أكثر مما مضى. وهكذا سرنا
معتدين بعد الله على مرشدنا.

الفصل التاسع والعشرون

مقابلة جمعة دبا، وخروج الذئب على روبنسن كروسو ورفاقه

وزواج روبنسن كروسو بعد رجوعه الى انجلترا

وقبل مغيب الشمس بساعتين كان دايانا قد سبقنا قليلا حتى غاب
عن مرأى العين، فخرج بغتة من واد عميق متصل بأجمة كثيفة ثلاثة
ذئاب كبيرة وتبعها دب كاسر، فانقض ذئبان منها على الدليل الذي لم ينجه
من الموت بأنيابهما غير قرب المسافة بيننا وبينه، إذ أمسك أحدهما بفرسه
ودهمه الآخر مفاجئا حتى لم تكن له فرصة ليهي نفسه للدفاع عن حياته،
فكان يستغيث ويصرخ بكل ما أوتي من قوة. فأمرت خادمي جمعة
أن يركض بفرسه ليرى ما حل به، فلما قرب منه نادى بأعلى صوته
« سيدى . سيدى » ولم يجبن بل تقدم بكل جرأة، ورمى الذئب الذي
كان يهاجم الدليل في رأسه، فخر مجذلا مضرجا بدمائه.

وقد كان الدليل ذا جد سعيد لأن جمعة كان المتقدم لنجدته ، وهو خبير بطباع تلك الوحوش فلم يخفها ، بل تقدم و صوب رصاصته إليها . ولو كان غيره الذى سمى لا نقاذه لأجفل من الذئب ورماه بعيدا عنه فربما أخطأه وأصاب الرجل .

وكان ما حدث كافيا أن يرعب^(١) من هو أشجع منى قلبا . وبقينا حل الرعب فى قلوب الجميع حين سمعنا عند إطلاق الرصاص عواء الذئاب على جانبي الطريق . وكانت أصواتها تتضاعف ويشتد صدها لعلو الجبال ، فظننا أنه يوجد منها الجمل الغفير . وحقا كان عددها غير قليل فلم نكن آمنين منها على أنفسنا . ولما أطلق جمعة الرصاص على أحد الذئبين فزع الذئب الذى كان ممسكا بالفرس ، وفر موليا الأذبار لا يلقى على شيء ، ولم يحدث بالجواد ضرر لان أنيابه تعلقت بحلقات اللجام . وأما الرجل فقد تألم كثيرا إذ عضه الذئب عضتين مؤلمتين إحداها فى ذراعه ، والأخرى فوق ركبته . وقد كاد يسقط لولا أن أغاثه جمعة بقتل الذئب . ولما سمعنا صوت الرصاص يدوى فى الأرجاء أسرعنا بخيلنا لئلا نرى حقيقة الأمر . ولما فصلنا من الأشجار التى كانت تحجبنا عن المنظر رأينا رأى العين كل ما جرى ، وكيف أنقذ جمعة ذلك الرجل الذى أضر به الانفراد ، بيد أننا لم نعرف ماهية الوحش المقتول .

ولم يحدث قتال قط ظهرت فيه الشجاعة والمهارة مثل القتال الذى ابتدأ بعد ذلك بقليل بين جمعة ودب ظهر لنا . وكان خوفنا عليه فى بدء القتال شديدا

(١) يرعب يخوف

ولكنه تحول بعد ذلك إلى طرب وسرور. وغير خاف أن الدب ثقیل ضخمة الجنة لا يمدو بسرعة كالذئب الذى ضربت الأمثال بخفته وسرعته. وفى الدب خصلتان هما قاعدتان لأعماله. أما الأولى فهى أنه لا يتعرض للناس إلا إذا ابتدؤه بالتعرض، أو كان جائعا جدا، وربما كان أمره حينئذ كما وصفت لأن الأرض كانت مغطاة بالنلوج، فإذا ابتعدت عن الدب ولم تتعرض له ابتعد عنك ولم يبتدئك بشىء تخشاه. وينبغى أن تعامله بالحسنى واللين وتحيد عن طريقه، لأنه وإن كان مخلوقا ظريفا فهو لا يحيد خطوة عن طريقه ولولا مير من الأمراء. وإذا توجهت منه خيفة يجب أن تبحث لك عن طريق أخرى، وتستمر سائرا، لأنك إذا وقفت جامدا فى مكانك وأخذت تنفرس فيه يعد ذلك إهانة له وحطا من كرامته. وإذا أشرت إليه أو رميته بشىء ولو عودا صنيرا طول أصبعك فأصابه، فإنه يغضب ويهيج تاركا كل أعماله جانبا متفرغا لأخذ ثأره. ولا بد له أن يحصل على ترضية تكفيه لرد شرفه المهان. تلك هى خصلته الأولى. وأما الثانية فهى أنه حقود يحمل الضغن ولا ينساه، فإذا أهين مرة لا يترك من أهانه حتى يلحق به ويقتص لنفسه.

وكان جمعة قد أنقذ دليلنا حين وصولنا إليه. وبينما كان يساعده على النهوض ويشجعه، لما حل به من الألم والخوف، إذا بدب قد خرج بغتة من بين الأشجار، وكان كبيرها ثلا لم أرفى حياقي دبامثله، فارتعدت فرائصنا جميعا لرؤيته، إلا جمعة فإنه حين رآه ظهرت على وجهه علامات الفرح والشجاعة، وقال مشيرا إليه: ^(١) ثم التفت إلى وقال ياسيدى دعنى

(١) اسم فعل بمعنى أعجب

أصاخفه وأهزبه لأضحككم قليلا. وقد أخذني العجب مما شهدته فيه من الفرح والسرور، فقلت له «يا أحمق لا تدن من الدب يا كلك» فقال منكرا على رأى «إنه لا يقدّر على أكلى. وسوف أريك قوتى وحذقى. وسأضحككم قايلا. انتظروا هنا فستعجبون لما آتى به من الأعمال مع هذا الدب»، ثم جالس على الأرض، وخاع نعليه في لحظة يسيرة، ولبس خفا كان معه. ثم أعطى زمام جواده لخادى الآخر، وتناول سبطانته بيده، وابتدأ يعدو كأنه الريح سرعة. وكان الدب يمشى الهوينى لا يتعرض لأحد حتى دنا منه جمعة وناداه قائلا «أيها الدب اصنع لما أريد. إنى أبغى أن أحدثك حديثا» كأن الدب يفهم ما يقول. وكانت جماعتنا تتبعهما عن بعد. وكنا حينئذ قد نزلنا إلى جانب جبال جسر كنى وصرنا إلى غابة ممتدة الأطراف والنواحي حيث كانت الأرض سهلة والأشجار كثيرة وإن كانت متفرقة.

استمر جمعة في عدوه حتى أدرك الدب فتناول حجرا كبيرا ورماه به فأصاب رأسه، ولسكنه لم يحدث به ألما كأنه رمى به عرض الحائط. ولما أحس الدب بالحجر يلقى عليه رجع على عقبه وأراد أن يلحق الرامى، وكان يخطو خطوات كبيرة راكضا خلف جمعة الذى قفل راجعا وأخذ يعدو نحونا كأنه يستغيث بنا، فأخذنا الأهبة لقتل الدب بالرصاص وإيقاد جمعة من الخطر، وقد غضبت لما حدث لأن الدب كان سائرا فى طريقه لم يؤذنا. ومما زادنى غضبا هرب جمعة بعد إرجاع ذلك الوحش نحونا فناديته قائلا «أيها السكاب أهذا الضحك الذى وعدتنا به؟ عدوخذ جوادك ودعنا نرى الوحش بالرصاص» ولما سمع صوتى نادى بأعلى صوته قائلا «لا تقتلوا الدب

انتظروا تضحكوا كثيرا» ، ثم أبصر جمعة شجرة بلوط تناسب طلبه فأشار إلينا أن نتبعه ، واستدار كالبرق وصعد إلى تلك الشجرة التي اختارها ، وكان قبل صعوده قد وضع سبطانته على الأرض على بعد بضعة أمتار من الشجرة .

وقد وصل الدب بعد قليل إليها ونحن نتبعه . وكان أول عمل له وقوفه عند السبطانة وشمها ، ولكنه لم يمسه ، ثم أخذ يتسلق الشجرة متشبثا^(١) بها كالهرّ وإن كان ثقيلا جدا ، وقد تعجبت لحماقة جمعة ، ولم أر في عمله ما يستوجب الضحك إلى أن رأيت الدب يعلو الشجرة .

ولما وصلنا إليها وجدنا جمعة قد تعلق بطرف رفيع في غصن من أغصانها ، وكان الدب في منتصف الطريق إليه . ولما قرب الوحش من القسم الضعيف في الغصن ضحك جمعة وقال « انظروا سأعلم الدب كيف يرقص » ثم أخذ يحرك الغصن فابتدأ الدب يترنح ذات اليمين وذات الشمال إلا أنه بقي في مكانه ، وأخذ يلتفت إلى الخلف يرى كيف يمكنه الرجوع ، فلم تقدر على الإمساك عن الضحك ، فقهرقنا ملء أفواهنا ، ثم إن جمعة دعا الدب كأنه يحسن تفهم اللسان الإنجليزي وقال له « مالك لا تتقدم إلى الأمام ؟ أرجوك أن تتقدم إلى أكثر من هذا » ثم كف عن تحريك الغصن فتقدم الدب قليلا نحوه ، كأنه فهم قصده ، فابتدأ جمعة ثانية في تحريك الغصن فكف الدب عن التقدم .

(١) تشبث بالشئ ، تعلق به

وقد كان الوقت مناسبا لضربه على رأسه، فقلنا لجمعة أن اهدأ ارمى
الوحش بالرصاص فصاح قائلا « أرجوكم ألا تفعلوا فساء قتلته بعد قليل »
ولا أطيل عليك القول فقد كان جمعة يكتر من هز الغصن والدب يقف
حنقا حائرا حتى أ كثرنا من الضحك، ولم ندر ماذا أراد جمعة أن يفعل
بعد ذلك، فقد ظننا أولا أنه يريد أن يرمى الدب إلى الأرض، ولكنه كان
على حذر تام، فلم يتقدم كثيرا ولم يرخ نفسه، بل تمسك بالغصن وساعدته
مخالبه العريضة حتى لم ندر ماذا تكون العاقبة وكيف تنتهي تلك اللعبة
ولسكن جمعة أزال اللبس سريعا لأنه لما علم أن الدب لا يتقدم إليه
وأنه لا يمكن أن يرخى من إمساكه بالشجرة ناداه قائلا « إذا أحجمت
عن التقدم إلى فأنا أسمى إليك » ثم أوغل في تسلق الغصن حتى قرب
من نهايته التي تنحني بثقله فتدلى نازلا برفق عليه، ولما قرب من الأرض
ألقى بنفسه فجاء واقفا على قدميه، ثم أسرع نحو سبطانته فأخذها في يده
ووقف ساكنا.

فقلت له « ماذا تريد أن تعمل الآن ؟ ولماذا لا ترميه بنارك فتقضى
عليه ؟ فقال لا أرميه الآن حتى أضحك مرة أخرى. وقد كان ما أراد جمعة
لأن الدب لما رأى عدوه قد هرب منه رجع بكل حذر زاحفا إلى الوراء
على ذلك الغصن حتى وصل إلى جذع^(١) الشجرة. وكان كلما زحف قليلا
نظر ورائه ليقدر لرجله قبل الأقدام على ثقلها موضعها، ثم استمر في الزحف
وذنبه إلى أسفل ورأسه إلى أعلى. وقبل أن تلمس قدمه الأرض تقدم إليه جمعة

(١) جذع الشجرة ساقتها

ووضع فتحة سبطانته في أذنه ورماه نحر صربعا لا حراك به .
ونظر إلينا جمعة يرى ما نحن فيه فلما رأى السرور باديا على وجوهنا
ضحك بصوت عال وقال « هكذا تقتل الدب في بلادنا » فقالت له
« إنكم لا تملكون سبطانات كهذه » فقال « ولكننا نومي جيدا بالقوس
والنشاب ^(١) »

وقد كان هذا القتال سارا لنا إلا أننا لم نسلم بعد ، لأننا مازلنا في
البرية ، وكان دليلنا في ألم شديد ، فلم نعلم ماذا نعمل ، وكانت زمجرة السباع ^{الزئير}
تهولني كثيرا ، ولم أسمع قط شيئا أزعجني مثل هذا الأزعاج إلا الزئير
الذي سمعته من قبل على شواطئ إفريقيا .

فكانت هذه الأشياء الخيفة ، وإقبال الليل ، تستحثنا على الأسراع
في سيرنا للوصول إلى بغيتنا ، ولولا ذلك لقبلنا رأى جمعة وساخنا ذلك
الوحش الهائل ، لأن جلده كان ثميئا ، ولكن الدليل كان يسرع بنا لنقطع
الفراسخ الثلاث الباقية . ولذلك تركنا الدب وسعينا بجذ إلى الأمام
لنتم سباحتنا .

وكانت الأرض لا تزال مغطاة بالثلوج ، وإن لم تكن عميقة مخيفة ، كما
كانت على الجبال . أما الحيوانات الوحشية المروعة فقد كانت تسمعنا
أصواتها بعد أن نزلت من الجبال إلى الأودية والسهول لتبحث عن طعام
تتغذى به . وقد آذت كثيرا من القرى بقتل غنمها وخيائها والقضاء على بعض أهلها
وقد كان أمامنا مكان آخر اعتاد المسافرون أن يروا فيه كثيرا من

(١) النشاب السهام مأخوذ من النشوب الواحد نشابة

الذئاب، وهو سهل محوط بالأشجار والأجهم من جميع جهاته، يخترقه ممر ضيق لا بد من اجتيازه حتى نصل إلى قرية أزمعنا المبيت فيها تلك الليلة وقبل مغيب الشمس بنصف ساعة دخلنا الحرج الأول، وبعد مغيبها بقليل دخلنا السهل ولم نصادف فيه شيئاً غير خمسة من الذئاب كانت تعدو ومتابعة كأنها رأت فريسة لها فلم نعرنا أى التفات، وبعد قليل توارت عن الأبصار. وقد أخبرنا الدليل بأن نكون علي حذر لأننا سنرى ذئاباً غيرها، فسرنا ونحن متأهبون لكل الطوارئ، فكانت أساحتنا بأيدينا، وأعيننا يقظة ترمق كل ماحولها، ولم نر ذئاباً إلا بعد اجتيازنا ذلك الحرج الذى امتد نصف فرسخ، ووصلنا إلى السهل. فلم نكد نطؤه بأقدامنا حتى رأينا حصاناً ميتاً قد أحاطت به ذئاب كثيرة، وأكلت كل ما فيه من لحم، وهى الآن تعرك^(١) عظمه عليها تجدد فيه ما يقوم ببعض حاجتها، فلم نر أن نزعجها، ولم نلتفت هى إلينا. وقد أراد جماعة أن يعا كسها، ولكنى لم أئجل له هذا المسمى، لأننى تأكدت أننا سنجد أماننا من أعمال الدفاع ما لا نطالب المزيد عليه، وقد كان ما ظننت، فلم نسر قليلاً حتى سمعنا عن يسارنا عواء ذئاب كثيرة ارتجفت لهوله فرائسنا، ثم رأينا نحو مائة منها تعدو صفافاً مستقيماً منتظماً، كأحسن جيش قد نظمه ضباط خيرون. ولم أعلم كيف نلقاها، ولكن وجدت أحسن شيء نعمله أن نجتمع معاً. وهكذا فعلنا، وأمرت قومي أن يستعدوا فيطلق نصفهم بنادقهم عليها. وإذا استمرت فى عدوها نحونا يطلق الباقيون عليها نارهم، ويكون الأولون

(١) عرك الشيء حكاه حتى عفاه

مستعدين بما بقي معهم من الأسلحة ، لأن كل واحد منا كان مسلحاً ببندقية كبيرة ولتنتين صغيرتين . وعلى ذلك كنا مستعدين لأطلاق ست طلقات على النظام السالف الذكر ، ولكننا لم نضطر إلى استعمالها ثانية . لأنها عند سماعها الصوت وقفت حائرة مضطربة . وكان بعضها قد أصيب في رأسه فخر ميتاً وبعضها جرح فولى هارباً ، ورأينا أثر دمه على التلوج بعد ذلك ، ولكن الباقي لم يهرب . وقد علمت أن شر ^{الزف} الصياع يخاف صوت الإنسان ويخشاه فأمرت القوم أن يصرخوا بأعلى أصواتهم ، فرفعوا عقيرتهم بالصراخ ، فلما سمعت صوتهم ولت هاربة لا تلوى على شيء ، ثم أمرت رجالى فأطلقوا عليها مرة ثانية ، فهربت جميعها وبعدت عنا .

فوجدنا الفرصة سانحة لنملاً بنادقنا فملاًناها سريعاً ولم نكد ننتهى من ذلك حتى سمعنا عن شمالنا أصواتاً تشيب لهولها النواصى تمتد أمامنا في الناحية التى نتجه إليها . وقد هجم الليل علينا بخيله ورجله فساء حالنا وازداد العواء شدة على شدته حتى أيقنا أنه صوت تلك المخلوقات الضارية ثم رأينا بغتة ثلاثة قطعان من الذئاب عن يسارنا وخلفنا ، وأمامنا ، فكنا كمن أحيط بهم من كل فيج وناحية . ولما رأيناها لا تهجم علينا أسرعنا فى طريقنا بقدر ما سمحت به خشوته . ولم نزل كذلك حتى قربنا من مدخل الحرج الذى أردنا اجتيازه عند منقطع السهل ، ولكننا دهشنا جداً إذ رأينا الممر مكتظاً بكثير من تلك الذئاب . وقد سمعنا إطلاق سبطانة عند مدخل آخر لذلك الحرج ، ولما وجهنا وجوهنا نحوه رأينا حصاناً خارجاً منه وعلى ظهره سرج وفى رأسه لجام ، وكان يركض كالريح ، وخلفه نحو سبعة عشر ذئباً تجدد فى إثره بكل ما أوتيت من قوة . وكان الجواد مبرزاً

عليها وسابقها، ولكننا لم نظن أنه يستطيع أن يبقى كذلك طويلاً، بل أيقنا أنها ستدركه وتمزقه شر ممزق

وقد رأينا منظراً محزناً تكاد تنفقت لهوله الأكبادة، لأننا شاهدنا حين وصولنا إلى ذلك المعبر الذي خرج منه الجواد جثة حصان، وجثتي رجلين قد أكلتها الذئاب الضارية. وقد استنبطنا أن مطلق السبطانة التي سمعنا صوتها هو أحد ذينك الرجلين، لأننا رأينا سبطانته بجانبه، وقد أكل رأسه وما يليه من جسمه، ففرغنا من شدة الهول والوجل، وملكنا نذعراً. ولم ندر أين نتوجه. وبينما نحن كذلك في تلك الحال المؤلمة إذا بالذئاب قد هجمت علينا وكان عددها لا يقل عن ثمانية ذئب من أحد الذئاب وأضرها. وقد اتفق أن رأينا بالقرب من مدخل ذلك الممر خشباً لاح لنا أنها قطعت في الصيف الماضي. وربما كانت هناك لتنقل إلى جهة أخرى. فافتدت جيشي الصغير وسط تلك الأشجار، ثم اصطففنا خلف شجرة طويلة منها، وأمرت الجميع أن ينزلوا عن خيلهم ويقفوا مكونين مثلنا في وسطه خيلنا، ويتخذوا من الشجرة مراساً لهم. وقد أحسننا صنعاً بما فعلنا لأن هجمة الذئاب التي تلت ذلك كانت شرسة جداً، إذ أقبلت وهي تعوى وتضج ضجيجاً مروعاً وثارَت إلى تلك الشجرة التي اتخذناها وقاية لنا، وقد زادها شراسة رؤيتها خيلنا، فأمرت رجالاً أن يطاقوا نارهم عليها كما فعلوا قبلاً، فأحكموا رميها فقتلوا كثير منها، ولكننا كنا في حاجة شديدة لاستمرار الأطلاق عليها لأنها استمرت في هجومها كأنها الشياطين. وكان المتأخر منها يدفع المتقدم نحونا ليثب ويفترس

ولما أطلقنا عليها النار في المرة الثانية ظننا أنها ستقف قليلا أو أنها ستفر من أمامنا، ولكنها لم تن إلا فترة قصيرة، ثم هجمت علينا فأطلقنا عليها النار مرتين، وأعتقد أننا قتلنا نحو ثمانية عشر ذئبا، وجرحنا ضعف هذا العدد، ولكنها هجمت مرة أخرى ولم تكف عن شرها.

وكان جمعة يشتغل بأعداد البنادق بخسكة وخبرة، وأما خادمي الآخر فدعوته إلى وأعطيته جزءا من البارود وكلفته أن يفرغه على الأرض بجانب تلك الشجرة في خط طويل ففعل ذلك. ولما عاد إلينا تقدمت الذئاب إلى الشجرة ووثب عليها بعضها فأطلقت عند ذلك طلقات من البارود فاشتعل وأحرق ما كان قد صعد على الشجرة من الذئاب، وثار سبعة منها علينا من شدة النار في جسمها فقتلناها سريعا. وأما البقية فأنها خافت من النور الذي كان عظيما أشدة الظلام، فنكصت على عقبها، وارتدت قليلا إلى الوراء فأمرت كل رجالي بأطلاق بنادقهم مرة واحدة، ثم صعدنا بعد الأطلاق صيحة ارتجت لها الأنحاء، فولت الذئاب هاربة، ثم وثبنا على عشرين منها قد جرحت وكانت ساقطة مضرجة بدمائها فقطعناها بسيوفنا فكانت تعوى وتصرخ صراخا هائلا من شدة الألم ففهمت رفاقها معنى ذلك العواء فاخفتت عن الأبصار وكفت شرها عنا.

وقد كان ما قتل منها طول تلك المعركة ستين ذئبا، ولو كان القتال نهارا لزد عدد القتلى كثيرا. ولما رأينا المكان قد خلا من تلك الذئاب المفترسة واصلنا المسير في طريقنا لنقطع الفرسخ الباقي حتى نصل إلى المدينة. وقد سمعنا أثناء سيرنا عواء منكرا وأصواتا مزعجة، ولم نقدر على

رؤية تلك الوحوش لشدة لمعان التلوج الذي غشى أبصارنا . وبعد مضي ساعة علينا وصلنا إلى المدينة فوجدنا أهلها في رعب شديد، وقد استعدوا بسلاحهم ، لأن الذئاب والدَّبَّيَّةَ ^(١) هاجتهم في الليلة الماضية وأنزلت في قلوبهم الرعب ، فاضطروا لحراسة أنفسهم ودوابهم من شرها .

وفي صباح اليوم التالي اشتد بدليلنا المرض ، وكان جسمه منتفخا فلم يستطع السفر معنأ ، فاستأجرنا دليلا غيره ، فذهب بنا إلى تولوس حيث وجدنا الجوحارا والبلاذيهيجه خصبة ، ولم نكن مهدين بتلوج ولا بذئاب . ولما قصصنا على أهل تولوس ما أصابنا في الطريق أخبرونا بأن ذلك كثير الوقوع في ذلك الحرج الكبير الذي في سفح الجبل . وخاصة إذا كانت الأرض مغطاة بالتلوج . وقد عجبوا من الدليل الذي جروا أن يأتي بنا في تلك الطريق في مثل ذلك الوقت من السنة . لأن البرد يكون عادة شديدا جدا . وقد علمنا منهم أن نجاتنا من أفواه الذئاب كانت أعجب الأشياء . ولما وصفنا لهم كيف اصطففنا ووضعنا خيلنا في الوسط سفهوا أحلامنا وقالوا إن منظر الخيل يهيج الذئاب لأنها فريستها . وقد اعتاد الذئاب الخوف من صوت البارود ، ولكنها كانت جائعة فهاجت واشتدت رغبتها في الفتك بالخيول فلم تبال بالخطر الذي كان يهددها ، ولو لم نستمر في إطلاق النار عليها وإزعاجها بصوت البارود لمزقتنا شر ممزق . ولو أطلقنا النار عليها ونحن ممتطون صهوات خيلنا لكان ذلك خيرا لنا ، لأنها لم تكن لتتحقق فريستها جيذا . وقد أخبرنا بأننا لو تركنا الخيل وراء

(١) جمع دب ويجمع أيضا على أدباب

ظهورنا لا كتفت بها ونجونا نحن من الخطر . ولا أخفى على القارئ حقيقة الحال فأني لم أدر نفسي مهتدا بخطر كهذا ، وأى خطر أعظم من رؤية نحو ثلثمائة ذئب جائعة مقبلة نحونا وقد فغرت فاهها لتبتلعنا ، ولم يكن لنا و زَر نعتصم به منها .

وإني يقينا لا أحب أن أفكر في قطع ذلك الطريق مرة أخرى . وخبر لي أن أسافر ألف فرسخ بحرا في كل أسبوع مرة ، وإن عصفت بي الأنواء ، من أن أسافر برا سفرة كهذه ، ولم يحدث لي شيء غير عادي أثناء سفرى في فرنسا بل رأيت ما يراه كل مسافر فيها . وقد تركت « تولوس » إلى باريس . وبعد إقامة مدة قصيرة فيها سافرت إلى كاليه ثم عبرت البحر إلى دوثر ، ووصلت إليها آمنا في اليوم الرابع من شهر يناير بعد أن قاسيت كل صعب من البرد القارس في ذلك الفصل . وحينئذ أقيمت عصا التسيار بعد أن حصلت على جميع أموالى .

وقد وجدت تلك الأرملة الصالحة لا تزال باقية على العهد والوفاء لى ، فأرشدتنى ودبرت لى شئونى . ووفاء لما بعثت لها به من الدراهم والدنانير لم تقصر فى مساعدتى مهما تحمات فى سبيل ذلك من الآلام . وقد أعطيتها كل ما كان معى فكانت خير أمين عليه . وكنت مطمئنا لتدبيرها وعنايتها . وسررت باستقامة تلك المرأة وأمانتها منذ عرفتها حتى آخر العهد بها .

وقد شعرت بميل إلى السفر إلى لشبونة ثم إلى البرازيل ، ولكن دينى منعنى من ذلك خشية التأثير بمذهب آخر ، فرجعت عن ذلك الميل وفضلت

المكث حيث كنت . وكتبت إلى صديقي في لشبونة ليبيع مزارعي في البرازيل ، وأعطيته توكيلا بذلك ، فعرضها على شركائي فقبلوا شراءها وأرسلوا ثلاثة وثلاثين ألف قطعة من ذوات الثمانية إلى أحد وكلائهم في لشبونة ليدفعها للربان باسمي . وقد أرسل لي الربان من ذلك المبلغ ٣٢٨٠٠ و حفظ الباقي وهو ماعينته له ولابنه من المعاش السنوي كما ذكرت قبلا . وبعد بيعي لمزارعي في البرازيل لم أستطع أن أطرد خيال تلك البلاد من ذاكرتي ، ولا أن أغالب الميل الشديد الذي تسلط على لبي لرؤية جزيرتي . وقد كانت الأرملة ترهذي في السفر حتى منعني سبع سفين عنه ، فضمت إلى ابني أخي ، وكان لأبهرهما قليل من المال ، فربيته تربية صالحة وأوصيت له بحصة من مالي يستولي عليها بعد موتي ، وسامت الآخر إلى ربان سفينة ليكون بحارا . وبعد خمس سنين رأيته فطنا شجاعا نشيطا فيما يهجد إليه به ، فوضعت في سفينة جيدة محكمة الصنع وأرسلته إلى البحر فحذني ذلك الشاب إليه مع كبر سني ، لأركب المحيط ثانية وأعرض نفسي للمخاطر والأهوال .

وقد تزوجت أثناء إقامتي هنا ورزقت ولدين وبناتا ، ولكن توفيت امرأتي بعد ذلك ، ولما رجع ابن أخي من سفرة ناجحة إلى إسبانيا تجدد شوقي إلى السفر ، فوعده بالذهاب معه في سفينته إلى الهند الشرقية كتاجر من التجار . وكان ذلك سنة أربع وتسعين وستائة وألف . وفي هذه الرحلة البحرية زرت جزيرتي ورأيت نجاح الأسبانيين الذين خلفوني عليها ، وسمعت تاريخ حياتهم وحياة الأشرار الذين خلفتهم بها . وأخبرت كيف حقروا الأسبانيين وكيف اتفقوا ثم اختلفوا واتحدوا ثم تفرقوا . ثم علمت أن

الأسبانيين اضطروا أن يستعملوا القسوة معهم فأذلّوهم ثم عاملوهم معاملة
صالحة . وهذا تاريخ ممتلئ بمختلف المفاجآت ، والمدهشات والعجائب
كتاريخي السالف الذكر ، وخاصة تلك الوقائع والحروب التي دارت رحاها
بينهم وبين المتوحشين الذين جاءوا كثيرا إلى جزيرتهم ، وتلك الأصلاحات
التي قاموا بها وأحدثوها بالجزيرة ، وتلك الهجمة التي هجمها خمسة منهم
على أرض المتوحشين ورجعوا بأحد عشر رجلا وخمس نساء أسرى . وعند
رؤيتي الجزيرة هذه المرة وجدت بها عشرين طفلا . وقد أقيمت بها عشرين
يوما وغادرتها بعد أن تركت أسلحتها بعض ما يحتاجون إليه من الأسلحة
والبارود والرصاص والملابس والمعادن وصانعين ، نجار وحداد أحضرتهم
معي من إنجلترا . وقد قسمت الأرض بينهم قسمة عادلة ، ولكنني احتفظت
لنفسى بحق تملك الأرض جميعها وكلفتهم أن يكتفوا بها ولا يغادروها
إلى غيرها

وقد تركتهم إلى البرازيل ، ومنها أرسلت لهم في سفينة اشتريتها
بعض ما يحتاجون إليه ، وسبع نساء للخدمة أو للزواج لمن يحب منهم أن
يقترن منهن . وقد وعدت الإنجليز الذين بجزيرتي أن أرسل إليهم بعض
نساء من إنجلترا إذا جدوا في زراعتهم .

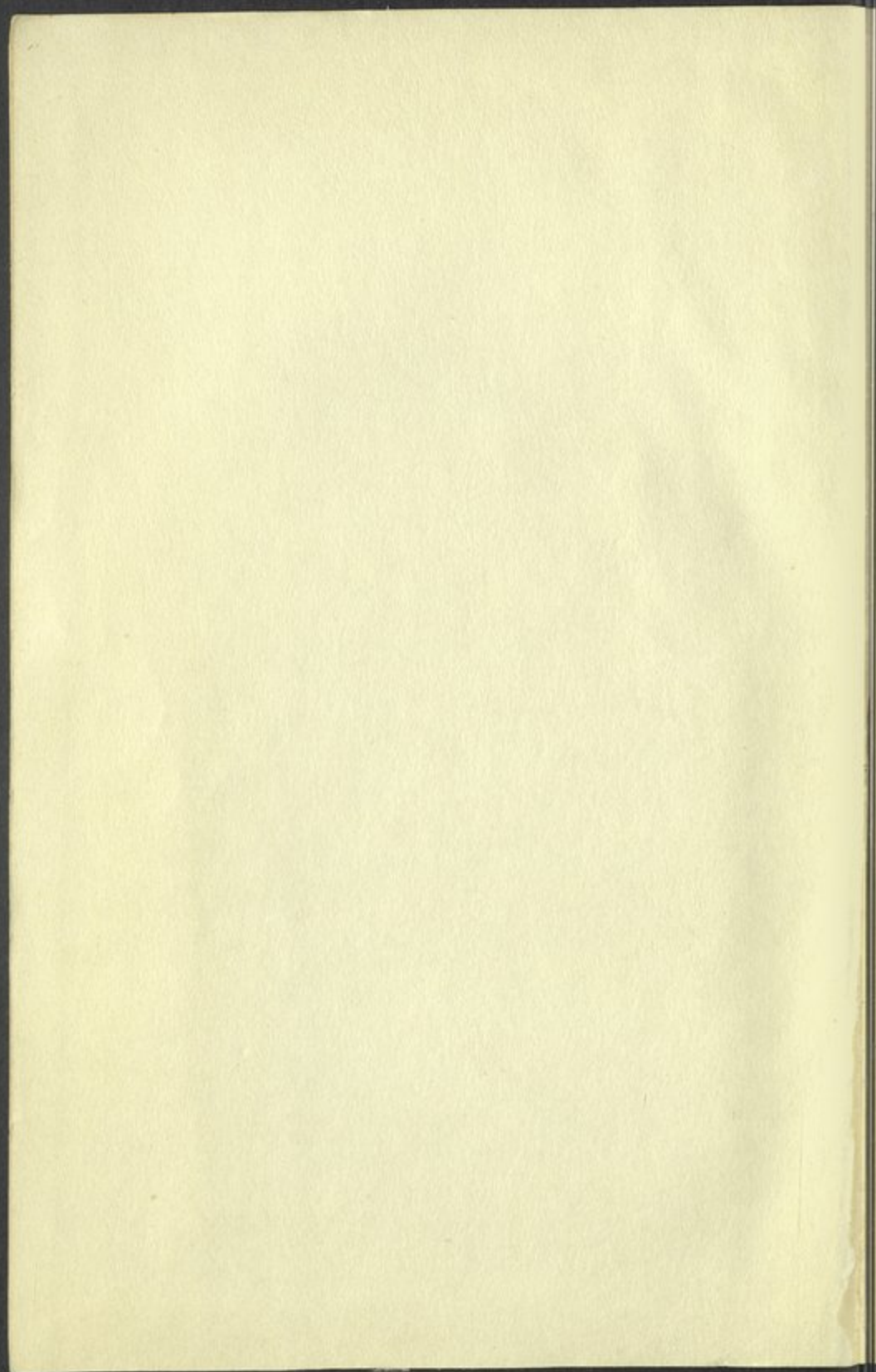
وقد وفيت بالعهد الذي عاهدتهم عليه . وبرهنوا على أمانتهم ونشاطهم
بعد أن قسمت الأرض بينهم ووجدوا سيديا لهم يسوسهم . وأرسلت
إليهم من البرازيل خمس بقرات ، منها ثلاث يتبعها عجولها ، وقليل من الغنم
والخنازير . ولما رجعت إليهم ثانية رأيت تلك الحيوانات قد كثرت كثرة
مدهشة .

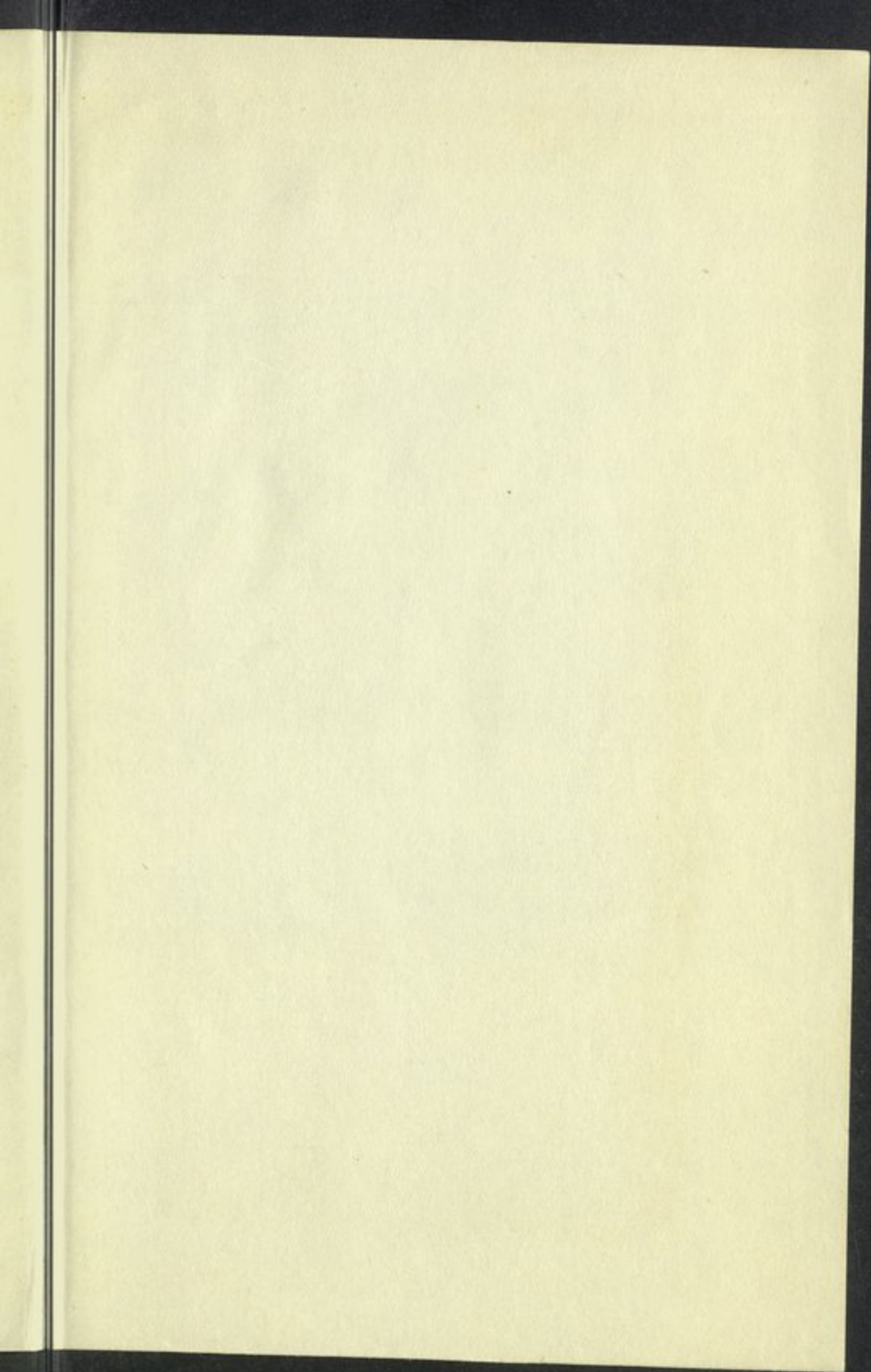
ولقد مرت هناك حوادث وعبر يحق أن تكتب وتحفظ،
كهجوم ثمانية من آكلي لحوم البشر على الجزيرة، ومحاصرتهم لها، وإهلاكهم
النبات، وقتال رجالهم مرتين غالبوا في المرة الأولى، وكان لهم الغلب
على أولئك المتوحشين ثانية بعد أن ثارت العواصف فهشمت زوارقهم،
فبادوا ولم يبق لهم أثر. وأصلح قومي أرضهم وديارهم وعاشوا في هناءة
وغبطة يزرعون ويحصدون حتى كتابة هذه السطور. وإن قدر أن يكون
في العمر بقية فأني سأكتب تلك القصص والأحداث، وما شاهدته أثناء
هذه الرحلة التي استغرقت عشر سنين ما اهـ

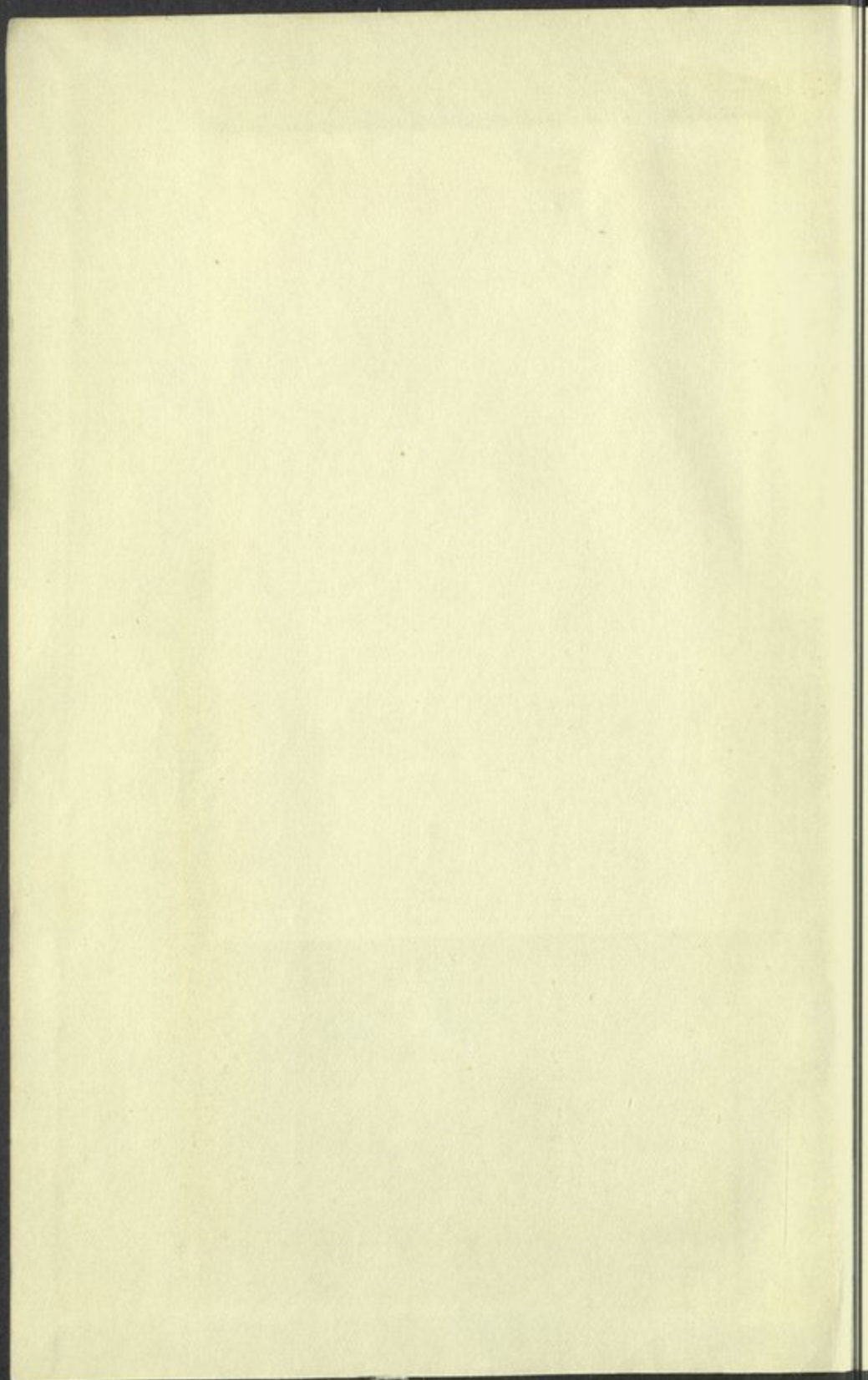
م. محمد الله

وہاں سے لے کر











DATE DUE

~~22 MAY 1971~~

~~2 - JAN 1973~~



~~J. Lib.~~
~~1 FEB 1982~~



ديفو، دانيال

حياة روبنسن كروسو ومخاطراته

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031857

